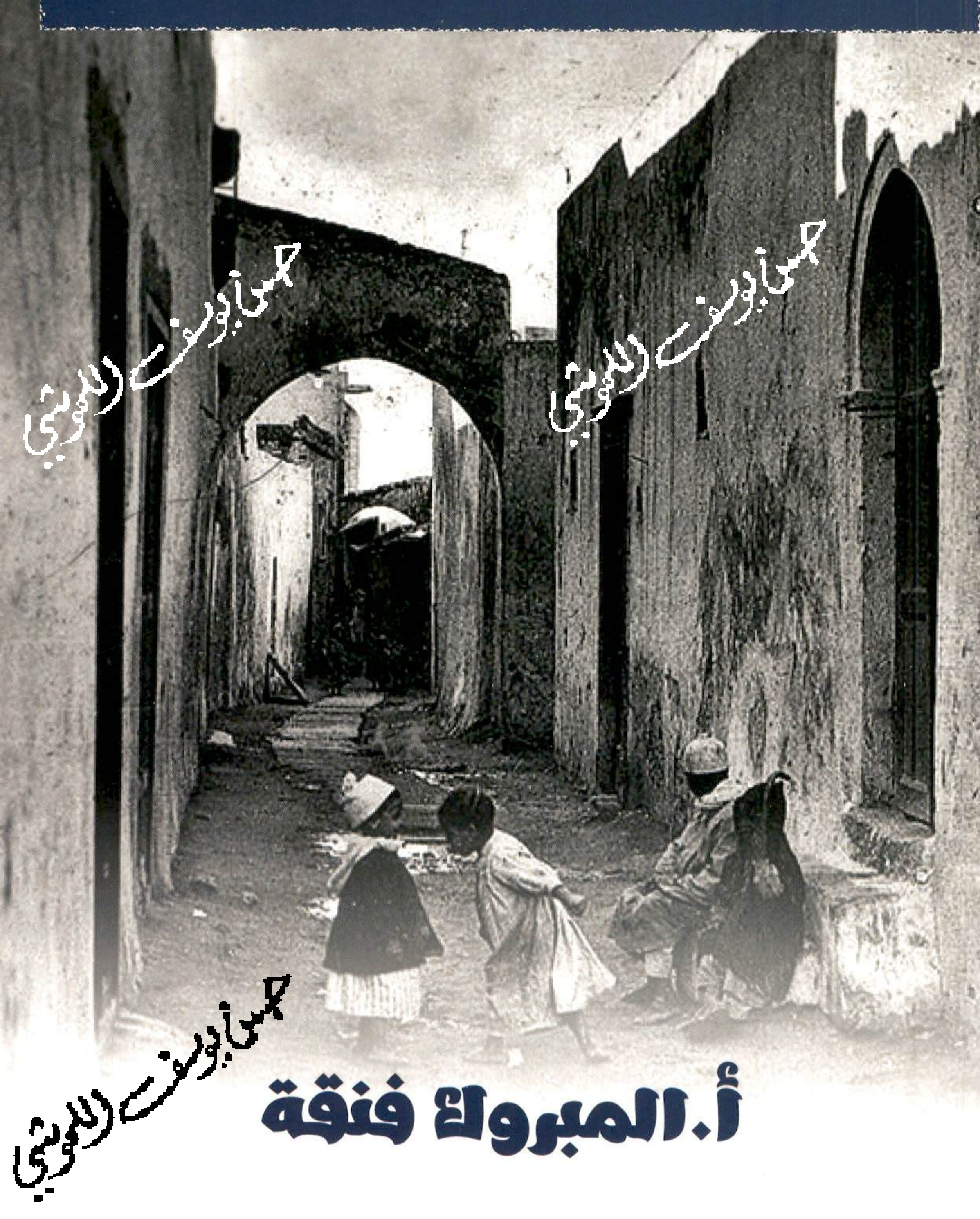
ذكريات وأحاديث الطرابلسية



أ. المبروك فنقة



دولة ليبيا

ذكريات وأحاديث طرابلسية

إعداد

أ. المبروك فنقه

متابعة وإشراف فني

أ. يوسف خليل الخوجة

مراجعة

أ. جمال احميدة الدويش

الجمع المرئي

فاطمة عبد السلام أبو بريدعة

تصميم

ياسمين موسى النمر

منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس 2023م

تنفيذ | شركة ألف لخدمات الدعاية و الإعلان info @1000.ly

الطبعة الأولى 2023م

ذكريات وأحاديث طرابلسية

ISBN 978-9959-976-09-3
الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
ردمك ISBN978-9959-976-09-3
رقم الإيداع 118 / 2023
دار الكتب الوطنية
بنغازي – ليبيا

الفهرس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

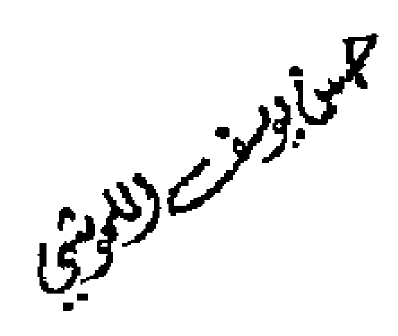
الفصل السادس

الإهداء

- إلى القلب الكبير الذي حضن طفولتي وصباي، إلى الصدر الرحب الذي حمل نزق شبابي وأخطائه، إلى من أرضعتني لبنها ممزوجا بتقوى الله ومحبة كلّ الناس.
- إلى السيدة التي قصرت حياتها وضحت بكل شيء في سبيل تربيتي بعد وفاة والدي وأنا غض طري العود، إلى من علمتني الحرف وهي أمية لم تتعلم سوى النذر اليسير من القرآن الكريم وهبته إلى ربها لتصلي به فرضها.
- إلى من جاعت لتشبعني، وتعرت لتكسيني، وإذا مرضتُ رفعتْ كفَّيها بالدعاء إلى ربها ليشفيني.
- إلى خالتي المرأة القوية التي علمتني كيف أجابه الحياة بقوة من غير ضعف، وأخذ الحق بدون عنف، إلى هؤلاء المرحومين جميعا أدين بحياتي وأنا اقترب من خريف العمر.

إلى الودودة أمي أُهدي هذا الكتاب وإليهم

المبروك فنقه



«رجاء واعتذار»

كان بودّي أن أذيل صفحات هذا الكتاب بأسماء العائلات التي عاشت بين أسوار المدينة القديمة اطرابلس بمحلاتها الأربع الإسلامية منذ العهد العثماني، والاستعمار الإيطالي وعهد الوصاية البريطانية على ليبيا حتى عهدالاستقلال 1951م، ولكن عقبات عديدة واجهتني، وصعوبات جمة اعترضت طريقي لعدة أسباب:-

أولا:- أن سكان المدينة عبر هذه العصور كانوا من جنسيات متعددة يصعب حصرها أو تحديدها.

ثانيا:- حتى لو قصرت الأمر على المسلمين اللّيبيين وغيرهم فإن المصادر التي تتناول هؤلاء من السكان قليلة ومحصورة في الإحصاء الذي أجرته إيطاليا للسّكان منذ مئة عام ونيف قد تغيّر ولم يتناول العائلات التي نتحدث عنها.

ثالثا:- إن الهرج والمرج الذي أصاب المدينة القديمة خلال عهد الجمهورية العربية الليبية قد أحدث العديد من المتغيرات في البنية التحتية لهذه المدينة لاسيما بعد أن تهدمت دورها، وهجرها سكانها حتى باتت صعيدا زلقا ووفد عليها من الجنسيات من سماها (بالحارة) طمسًا لسكانها الأوائل الذين طبّق عليهم القانون (4) ممّا جعلها قبلة لمن هبّ ودبّ من البشر الذين جعلوها مكبًا للقمامة ومرتعًا للكلاب الضالة، والقطط، والجرذان السّمينة.

رابعا :- بالرغم من وجود بعض العائلات القديمة في أماكن متفرقة منها إلا أنّ الباحث لا يرى من العدل أن يذكر أسماء بعض العائلات ويترك البعض الآخر مما يجلب اللّوم ويوصمه بالتقصير في عمل بذل فيه من الجهد – ما يحسب عند الله مبرورًا – وهدفه من ذلك إلقاء الضوء على حقبة تاريخية موغلة في القدم، تليها حقبة أخرى في الوسط، ثم الحقبة الثالثة التي عشناها مع جيل الخمسينيات حتى الآن.

فليعذرني الكلّ على عدم قدرتي على تكملة هذا العمل بتذييله بأسماء سكان مدينتنا الجميلة...... والله من وراء القصد.

توطئة:

- يحار المرء وهو يتجول بين أروقة المدينة القديمة وأزقتها المتلوية وشوارعها الضيقة وبيوتها التي بنيت من مئات السنين ولازالت قائمة رغم صروف الدهر وقهر الطبيعة.
- ويزداد حيرة حين يستنشق عبق التاريخ في هذه المدينة وهو يتطلع إلى آثارها التي أشهرها الأثر الروماني الذي خلفته روما منذ القرن الثاني للميلاد، ويزداد المرء انبهارًا حين يغوص في أعماق الآثار التي خلفتها الدولة العثمانية من مساجد تعانق مآذنها السّماء داعية المؤمنين إلى الصّلاة مسبّحة بحمد ربها وإلى أسواقها ذات الروعة التي كانت تستقبل بضائع الشرق والغرب من أوروبا وأفريقيا، وفنادقها العتيقة التي كانت يؤمّها السّواح من كل حدب وصوب للاستمتاع بهوائها العليل وشمسها السّاطعة الدافئة، وبحرها الذي تتلألأ مياهه الزرقاء الزاهية وآثارها الرائعة.
- أما شاطئها فكان من الروعة حتى إنَّ البعثات الدبلوماسية اختارت قنصلياتها أمام القلعة العظيمة الشامخة الضاربة جذورها في التاريخ منذ أن وضعت إسبانيا الاستعمارية يدها على طرابلس ثم أهدتها إلى فرسان مالطا حينما خرجت إلى غير رجعة من ربوعها.
- المدينة القديمة مفخرة طرابلس ومجدها، وطرابلس جزء من الوطن العملاق ليبيا وعاصمتها الكبرى التي اختارها مجاهدوا ليبيا كلها في وقت المحن الاستعمارية التي مّرت بهذا الوطن العزيز، فهي كالأم الرؤوم التي تحتضن أبناءها حين تشعر بالخطر تضمهم وتحتضنهم، تجوع ليشبعوا، وتظمأ ليرتووا، وتتعرى ليلبسوا وتتحمل البرد ليدفؤوا تفعل كل ذلك دون أن تنتظر منهم حتى كلمة (شكراً) أو لمسة حنان بل تسامح إذا سمعت شيئاً من العاقين منهم الجاهلين بالتاريخ.
- ألم يطلق عليها البعض جهلا (الحارة)؟ بدل المدينة القديمة!!!! نعم كانت حارات اليهود الثلاثة فيها تشكيل مفصلاً من مفاصل سكانها المسلمين، والإغريق والمالطيين، والطليان، والعثمانيين، والكرغليين بل وحتى الألبان والزنوج الذين أتى بهم الأسطول العثماني في حملاته البحرية.

- وهل اليهود هم الذين أسّسوا المدينة القديمة لكي تسّموها (الحارة)؟! إن اليهود كانوا قلة، عبارة عن جالية مثل الجاليات الأخرى التي تعاقبت على ليبيا وفضلوا العيش في حواري سكنوها في المدينة القديمة مثلما عاشوا في تونس، والمغرب، والجزائر، ومصر، وسوريا، والعراق، وأغلب العالم العربي والغربي الذي كانوا يسمون فيه الحواري «كبوتسوّات».
- إن المدينة القديمة التي يتندر عليها البعض ويتهكم بها زنقة «حواء علجية» سكن بها الباشا أحمد القرمانلي، وزنقة «شلاكة» الذي سكن في أحد بيوتها الوالي «سنان باشا» وغيره من الولاة والأمراء، والدايات، وقواد الأساطيل العثمانية، والحكام قد أفردنا لهم فصلاً خاصًا بأسماء هذه الزقاق فاطلعوا عليه إن أردتم ذلك لكي تعرفوا من التاريخ الذي جهلتموه قيمة هذه المدينة العظيمة.
- وأخيرًا وليس آخرًا فإن المدينة القديمة كانت ولازالت وستظل قلب طرابلس النابض، سكنها الغني والفقير، التقي والظالم، العالم والجاهل كانت رمز العلماء، والفقهاء، والأدباء والفنانين على مختلف الملل والأجناس ولم تضام إلا في العهد السابق حيث أهملت عن عمد وسبق الإصرار فتهدمت بيوتها القديمة وهجرها أبناؤها قهرًا لا اختيارًا، لكنها طبعت في قلوب محبّيها الذين لازال الكثير منهم يزورونها برفقة أبنائهم من هذا الجيل ليشاهدوا عياناً كيف عاشوا فيها حياة ملؤها المحبة والاحترام مع جيرانهم حياة يوقّر فيها الصغير الكبير، يسودها التسامح والإخاء دون أن يطمع هذا في ذاك إلا بما يرضي الله، ودون أن يسأل الجار غيره من الجيران (أنت مِنْ أين؟).
- ومن التاريخ الوسيط الفتح الإسلامي وعهود إسلامية مختلفة ثم العصر الحديث الذي مثلته قوى أوربية مختلفة والدولة العثمانية التي هيمنت على طرابلس بعد طرد فرسان مالطا منها سنة 1551م.
- قُسم هذا الكتاب إلى أربعة فصول تناول الفصل الأول نشأة مدينة اطرابلس وأهمية موقعها من الفترة الفينيقية والمراحل التاريخية التي مرت بها من هيمنة قرطاج ثم خضوعها إلى الرومان والوندال والبيزنطيين، واستعرض الفصل تاريخ مدينة

اطرابلس منذ الفتح الإسلامي والعهود الإسلامية التي مرت بها وتعرضها إلى الغزو الإسباني ثم فترة فرسان مالطا واستيلاء العثمانيين عليها في سنة 1551 والمراحل التاريخية التالية من الاستعمار الإيطالي وفترة الإدارة البريطانية حتى تُوّج نضال الليبيين بالاستقلال سنة 1951م.

مقدمة:

تنقسم فصول هذا الكتاب إلى مراحل زمنية مختلفة مرت بها ليبيا ومدنها:-

- منها ما هو في التاريخ القديم تمثله القوى الاستعمارية القديمة مثل الفينيقيين، والرومان، والوندال قوى تلك الفترة.
- ومنها ما هو من التاريخ الوسيط الذي مثلته أوروبا في عصورها الوسطى أطلق عليه عصر القوة البحرية وشاركت فيه الإمبراطورية العثمانية التي أنهك أسطولها البحري القوي أساطيل أوروبا التي كانت تجوب البحار وكانت ليبيا إحدى ضحاياه في الشمال الأفريقي بعد طرد فرسان مالطا منها باسم حماية الإسلام الذي مثلته القوى الإسلامية ثم العصر الحديث.
- تناول الفصل الثاني التنظيمات الإدارية التي شهدتها مدينة اطرابلس في العصر الحديث وحدودها الإدارية والتقسيمات داخلها ومهام شيخ البلد ومختاري المحلات والنظام القضائي والشرطة ومهام البلدية بعد نشأتها في سنة 1870م.
- وجاء الفصل الثالث ليتناول العمارة والثقافة والأسواق والحمامات...إلخ وأعلام الثقافة والفن والطرب والمسرح والسينما...إلخ.
- وركَّزَ الفصل الرابع على التقاليد والعادات الإجتماعية وعن المناسبات التي يهتم الأهالي بإقامتها والعادات السائدة بينهم وبعض الحكايا والقصص الذي عرفها أهلها وشخصيات اجتماعية مشهورة.
- وأحب أن أنوه للقارئ الكريم أن المعلومات الواردة في هذا الكتاب منها المأخوذ من المصادر التاريخية كالرحلات التي قام الرّحالة العرب والأجانب الذين زاروا اطرابلس وعاشوا فيها وكتبوا انطباعاتهم فيما شاهدوه ولمسوه في حياة أهلها وما سادها من عادات وتقاليد أصيلة نبعت من موروثها واتسمت بالمروءة، واستضافة الغريب والاحتفاء به ولم ينس هؤلاء الرحالة الضيوف ما قام به أهل اطرابلس من مساعدة في الحصول على المعلومات التي أفادتهم في إنجاز مهامهم البحثية، وصياغة المعلومات التي زودوا بها وثائقهم وألفوا بها كتبهم

فيما بعد فظهرت صورة صادقة موثقة عن مدينة اطرابلس وتاريخها اعتمدت في منظومة « التاريخ الدولي الموثق».

- واعتمد هذا الكتاب على ما ورد من الروايات الشفهية ممن عاصروا أحداث التاريخ الحديث فأثروا وتأثروا به، وأفاضوا بما بقي محفوظا في الذاكرة بعد أن اعتلاها الصدأ ونال منها الزمن بحكم الشيخوخة فتحدثوا عن أحداث التاريخ الذي ورثوا ذيوله عن الجيل الذي كان قبلهم واستلموا الراية منه لتكملة المشوار الذي بدأه الأجداد واستلمه الأحفاد ليستلهموا منه العبر التي تنير لهم الطريق الطويل المتعرج في درب الحياة الذي لا ينتهي إلا متى شاء الله.
- ولعل القارئ يلاحظ في هذا الكتاب الذي يتحدث عن تاريخ المدينة القديمة القديم والوسيط والحديث، إن بعض الأحداث ربّما يعرفها هو شخصيا عاشها وعاصرها أو سمع من والده وأقربائه عنها أو اطّلع على ما كتبه التاريخ عنها، ولكنه سيفاجأ حينما يقرأ عن عدد الأسواق، والزقاق، والشوارع والمساجد، والأندية، والمسارح، والفنادق، وغيرها التي شكلت تاريخ المدينة القديمة وفنّها، وعلومها، وحِرَفِها، وعلمائها، وشيوخها، كما لا يَنْسَى الكاتب ما أضافه من نتاج حياة عاشها هو شخصيا مع أقرانه وجيرانه وأصدقائه تمثلت في الألعاب القديمة والشخصيات، وغيرها.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

الواجهة البحرية لمدينة طرابلس



مدينة طرابلس والتّاريخ القديم

تُجمع أكثر المصادر التاريخية على أن تأسيس مدينة طرابلس **(أويا)** يرتبط ببداية ظهور الفينيقيين في المناطق الوسطى والغربية من البحر الأبيض المتوسط حيث أقاموا فيها العديد من المراكز التجارية، وتقطع هذه المصادر بنشأة المدينة في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد شأنها في ذلك شأن المستعمرات الكثيرة الأخرى الذي أنشأها الفينيقيون في هذه المرحلة من توسعهم التجاري والحضاري على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، واختلف الباحثون في الإجابة عن سؤال إزاء أغلب المدن الفينيقية التي نشأتْ بالساحل الشمالي الأفريقي وهو:

هل كانت هذه المدن إنشاءً فينيقيا؟! أو أنها كانت قائمة قبلهم ودخلت التاريخ بدخولهم؟ وكيف نفسر انتشار هذه المدن على الساحل الليبي انطلاقا من خليج سرت حتى أقصى الغرب ولم يكن الليبيون يوما من شعوب ركوب البحر!! كما أنهم لم يكونوا مستعدين ليعرضوا أنفسهم لأطماع القوى البحرية المنتشرة والمتصاعدة في البحر الأبيض المتوسط!!!

ولكي لا يشتط بنا الخيال وندور في فلك الافتراضات نعود إلى ما قرره أغلب هؤلاء الباحثين من أن مدينة طرابلس كانت مركزا من المراكز الهامة التي اتخذ منها الفينيقيون محطة من المحطات التجارية وارتبطوا بها بعلاقات تجارية تمكنوا من خلالها الدخول في الفلك الحضاري الفينيقي الذي ميز ذلك العصر بعلاقاته التجارية الواسعة، وطموحاته التوسعية وصراعه على السيطرة والسيادة عبر الأسواق، ولعل الطابع الحضاري الذي يصادف المرء الزائر لهذه المدينة ويلقي بظلاله حتى على ما بعد هذه الحقبة التاريخية الموغلة في القدم هي الشروط الذي التزم بها الفينيقيون في اختيار مدنهم التي أنشؤوها على الساحل المتوسط فهي تقوم على الجُزُر، أو الرؤوس، أو الخلجان، أو مصاب الأودية والأنهار، أو الأماكن الساحلية الخصبة الذي بها المياه العذبة والتربة الصالحة للزراعة، وقد توفرت هذه العوامل لموقع مدينة طرابلس الواقع بين مدينتي لبدة، وصبراتة وعلى طريق القوافل إلى المناطق الجنوبية فضلا عن موقعها بالنسبة لصقلية والجُزُر المجاورة في البحر الأبيض المتوسط.

وقد مثلت منذ تلك العصور القديمة أهمية كبرى لموقعها وساحلها الغربي والشرقي وخاصة في تلك العلاقات التي قامت بينها وبين مالطا وصقلية، وقد ساد الاعتقاد عند بعض الباحثين أن الفينيقيين الذين أسسوا مدينة **(أويا)** إنما جاؤوا إليها من صقلية ولم يأتوا إليها من مواقعهم الأصلية في الشرق، ويرى البعض الآخر أنَّ مؤسِّسيها جاءوا من مدينتي صور وصيدا من الفينيقيين الذين زحفوا على الشاطئ الغربي الليبي انطلاقا من مناطق الخليج وقد أنشؤوا بهذا الساحل أكثر من عشرة مراكز تجارية برزت منها المدن الثلاثة التي لعبت الدور الأكبر في تاريخها القديم وهي: لبدة، وأويا، وصبراتة وقد بدأ التعامل مع هذه المراكز كأسواق تجارية ثم اتجه إليها الفينيقيون بأبصارهم كمستوطنات أو مستعمرات في أواخر الألف الأولى وبداية الألف الثانية ق.م. ثم ازدادت أهميتها بعد إنشاء الفينيقيين لمدينة قرطاج سنة 814 ق.م. إنَّ ما يتوفر من معلومات قليلة لا يسعفنا في ذكر المراحل التي مرت بها في العصور الفينيقية والقرطاجية والبونيقية، لذلك علينا أن نستحضر النموذج العام للحياة في المدن الفينيقية، والقرطاجية، والبونيقية لنلتمس فيه صورة مضيئة لطرابلس سواء في حياتها العامة، أو في علاقاتها التجارية، والثقافية وأوضاعها الإجتماعية وأحوالها العمرانية ولكننا من المهم أن نعلم قبل ذلك بأنها ومنذ العصور الضاربة في القدم كانت مدينة (حاضرة) في تاريخ وأحداث البحر الأبيض المتوسط، وحضارته، وتياراته السياسية، وصراعاته الحربية، وحواره بين مختلف الثقافات والأديان تهب عليها نسماته الندية وتعصف بها رياحه وأعاصيره، وتستمد منه شمسها الساطع، وتستقبل من سمائه قمره المنير وبدره حين يكتمل.

كانت طرابلس (حاضرة) في خضم الأحداث الكبرى التي شهدها البحر الأبيض المتوسط حيث تصارعت القوى الكبرى القديمة من فينيقية، ويونانية، ورومانية، وقرطاجية، كما كانت من المدن القديمة التي استمرت في التاريخ ولم ينته وجودها كما حدث في المدن الأخرى بل بقيت (مدينة خالدة) ولم تتوقف في مرحلة من المراحل؛ تشهد عليها آثارها المرسومة والمعلومة كما هو الشأن بالنسبة لصبراتة ولبدة؛ وهما المدينتين اللتين وفرتا لدينا من المبررات التاريخية أن دورها لم يأخذ في الظهور والبروز إلا بعد أن أخذ نجم هاتين المدينتين يأفل تجاريا، وسياسيا، واجتماعيا، ولم يظهر بروزها إلا في المرحلة الأخيرة

من السيطرة الرومانية ثم البيزنطية حيث يرتفع شأنها ويكتمل ظهورها بالفتح الإسلامي الذي ساهم في التعريف بها وإعطائها وجهها الحضاري الذي استمر فيما بعد فاكتسبت هويتها العربية الإسلامية.

كانت قرطاجة التي أخضعت المدن الثلاث لسيطرتها قوة قامت بدورها في التصدي للتوسع اليوناني ثم التوسع الروماني فيما بعد حيث بسطت يدها على المستوطنات الفينيقية لتنقذها من الانهيار الذاتي، وتفقدها أيضا كلّ مظاهر الاستقلال؛ كما كان الساحل الشرقي مهمًّا للفينيقيين من قبل، فقد أصبح أكثر أهمية للقرطاجنيين كذلك، وقد اقترن تصدي قرطاجنة بالتعاون مع السكان المحليين سنة 510 قبل الميلاد إلى محاولة يونانية لإنشاء مستوطنة عند مصب وادي عين كعام (**كينبس**) وأفشلتها، غير أنها وجدت نفسها في صراع مع جيرانها وفي مقدمتهم (**قورينا**) على مناطق النفوذ التجارية والمراكز الهامة حيث لا يهم إمبراطورية قرطاجنة سوى الحفاظ على مصالحها في هذا الشريط الساحلي الذي كانت تجبي منه ضرائب فادحة في المدن (**الليبوفينيقية**) إلى جانب أنواع أخرى من الاستغلال منها والاستفادة من تجريد الحملات العسكرية الكبرى كما حدث للقائد القرطاجني المعروف (**حنعبل**) الذي جرد حملة من أربعمائة وخمسين فارسا من المدن الليبوفينيقية لحرب روما سنة 218-219 ق.م.

عند تولى الإمبراطور أوغسطس في 25 ق.م وحّد المقاطعات الأفريقية وأحكم السيطرة عليها ووزع الحاميات للدفاع عنها وأحال شؤون حكمها إلى مجلس الشيوخ وقد ازدهرت هذه المدن بعد أن تحقق لها الأمن والسلام وتحولت من مدن فينيقية قديمة إلى مدن رومانية صاعدة تتمتع بحصيلة واسعة من الأمن والحرية حيث انعكس ذلك على حياة الناس ماديا ومعنويا، وثقافيا حيث انخرط مواطنو هذه المدن الفينيقية القديمة في موطن جديد تحولت مدنه بأيدي الفنان الروماني الماهر إلى مدن رومانية جميلة بمعابدها، ومسارحها، وأسواقها، وحماماتها، ودورها، ومزارعها الجميلة وعوملت هذه المدن معاملة المدن الرومانية لا سيما بعد أن أطلق عليها اسم (**حليف**) فسمح لها بسك نقودها، وسمح لها الأخذ بالنظام السياسي التشريعي القائم بها في العهد الفينيقي والتعامل باللغة

الفينيقية التي ظلت سائدة بها إلى جانب اللاتينية إضافة إلى المراسم الدينية والعادات والتقاليد التي سادت آنذاك حتى الفتح العربي.

غير أن القبائل الداخلية في هذه المدن لم ترضخ إلى الاحتلال الروماني فبدأت تعد العدة لمحاربته بأسلوب حرب العصابات، وكان على الرومان أن يواجهوا هذا الوضع بالسعي إلى التوغل في الداخل لمحاربة هؤلاء والقضاء عليهم حفاظا على السواحل التي كانت تمثل لهم الأمل والنجاة، وكان الخطر الأول يتمثل في موقف (**الجرمنت**) الذين تعاطفوا مع بعض هذه الحركات فوجه لهم الرومان حملة بقيادة (**كورنيليوس بالبوس**) الذي زحف إلى فزان في 20 ق.م. منطلقا من صبراته عبر غدامس ثم إلى فزان حيث مدينة (**جرمة**) عاصمة الجرامنت حيث تمكن من إخماد الثورة مؤقتا، وعاد الجرامنت إلى الثورة في عهد (**تبيريوس**) عاونتهم في ذلك القبائل الليبية بقيادة (**تكفريناس**) الذي انهزم في 24 ق.م وقد أرسل الجرامنت بعد هذه الهزيمة وفدًا إلى روما يطلبون الصلح ويبدون الرغبة في السلام لولا أن ظروف (**الأمبوريات**) قد دفعتهم إلى نقض هذا العهد ورفع السلاح من جديد في وجه روما إذ نشب خلاف حول الحدود بين لبدة، وأويا، أدى إلى قيام حرب بينهما، وقد خافت أويا من تفوق لبدة عليها فاستنجدت بالجرامنت الذين حاصروا لبدة فاستنجدت لبدة بالقنصل (**فاليروس فستوس**) الذي استطاع فك الحصار عليها.

ويستخلص المؤرخون من هذه الحروب الأهلية بين المدينتين الدليل على ما كان يتوفر لهما من استقلال ذاتي وحرية في التصرف كما في كتاب حكاية مدينة.

وقد تنبه الرومان إزاء هذه الظروف بضرورة السيطرة الكاملة على المناطق الجنوبية فجردوا لها حملات توغلت في مناطق من أفريقيا لدرء الخطر والاستفادة الاقتصادية لم يعد إليها الأوربيون إلا في العصر الحديث.

ونهاية القرن الأول بعد الميلاد تمت تهدئة هذه المنطقة الساخنة حيث خيم عليها ما يسمى بالسلم الروماني وخلال المئة الثانية - التي كانت أكثر الفترات هُدوءًا في تاريخ الدولة الرومانية -عاشت المدن اللّيبية عيشة هنية دون حرب أو قلاقل داخلية.

وسارت جوانب الحياة في هذه المدن سيراً هادئًا، فساد الأمن في الداخل، وأمنت طرق القوافل، وفتحت أبواب التجارة مع روما وازدهرت التجارة والزراعة، وارتفعت الأهمية الاقتصادية لهذه المدن وحصلت على العديد من الإمتيازات أهمها معاملة سكانها على قدم المساواة مع سكان روما، وقد انعكس هذا الرخاء في هذه المعالم البارزة الباقية من هذه المدن في حمامات لبدة، ومسرح صبراتة، (وقوس ماركوس أوريليوس) بطرابلس **(أويا)** وتلتها فترة تاريخية مهمة وبوصول **سبتميوس سيفروس** ابن لبدة إلى عرش روما سنة 193م فوجدت لبدة مسقط رأسه والمدن الأخرى عناية خاصة ونالت خطوة ظهرت آثارها في تلك المخلفات التاريخية في المدن الثلاث.

ولكن رخاء هذه الفترة لم يدم طويلا ففي بداية القرن الثالث الميلادي أخذ الضعف والانهيار يدب في أوصال روما وخاصة بعد انتهاء حكم أسرة سبتميوس سنة 235م ودخول الدولة الرومانية في دوامة الحرب الأهلية وتمرد برابرة الشمال الأوربي على الإمبراطورية ولم تنفع الإصلاحات التي قام بها الإمبراطور دتلديانوس 284-305 م، ولا إصلاحات الإمبراطور قسطنطين 306-337م شيئا يذكر إذ أخذ الوهن يتسرب إلى الكيان الروماني عدا ميزة واحد فقط في هذا الجو الملبد بالغيوم هي (الاعتراف لمقاطعة طرابلس دون غيرها بالإنفصال عن المقاطعات الأخرى) لكن الشيخوخة التي أخذت تدب في أوصال الأسد الروماني مكنت الحركات الأهلية الداخلية التي تشرب إليها بعض المسيحيين من ذوي المذاهب المختلفة كمذهب الكنيسة الأفريقية كما اتخذت هذه الانقسامات الدينية مذاهب سياسية انقسمت إلى هنا وهناك بل منها من انضم إلى الحركات الثورية التي لم يستح بعضها أو أحد أفرادها الحكام من دعوة الملك **جنسريق ملك الوندال** 429م إلى عبور أفريقيا والاستيلاء عليها ولم يتخلف ملك الوندال عن تلبية هذه الدعوة فأقام علاقة وطيدة مع أنصار مذهب **(الدوناتزم)** حيث وجد فيهم حلفاء طبيعيين ضد روما وأتباع المذهب الكاثوليكي وقد تمكن جنسرق الملك الوندالي من إنهاء الحكم الروماني لإفريقيا بالرغم من محاربته من الملك الشرعي للوندال وفشل هذا الأخير في كسب هذه الحرب، وبقى الوندال في المستعمرات الرومانية والتحكم في شؤونها ومستعمراتها، غير أنهم لم يلتفتوا إلى طرابلس إلا في سنة 455 م، حين أصبحت مقاطعة

وندالية، فقد دمرت الثورات الداخلية والقلاقل الكثيرة من إمكانياتها الزراعية وانهارت حركتها التجارية بقطع الطرق التجارية بواسطة قُطّاع الطرق وزعماء القبائل المحاربين واختفاء الأسواق التي كانت حجر الأساس في تجارة القوافل التي كانت مزدهرة آنذاك وهجرها أهلها فزحفت الرمال على بعضها مثل لبدة ولم يهتم الوندال بهذه المقاطعة لأنهم لم ينتبهوا إلى أهميتها الإستراتيجية غير أنهم اضطروا إلى إعطاء اهتمامهم إلى (أويا – طرابلس) نظرا لأهمية مينائها والاحتفاظ بأسوارها وكان الوجود الوندالي هزيلا وضعيفا في المدن اللّيبية فما أن قامت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) حتى عقدت العزم على إعادة دور روما القديم في محاولة استعادة الخلافة ما ضاع من بلدان في المناطق الغربية في البحر الأبيض المتوسط فجردت في عهد الإمبراطور (**ليو**) الأول حملة بقيادة (**هرقليوس**) 498م محاولة طرد الوندال من طرابلس إلا أنهم اضطروا للانسحاب بعد ثلاث سنوات إثر هزيمتهم في تونس ولم يعودوا إلا بعد ستين سنة إلى المدن الأفريقية بعد هزيمتهم في تونس، وفي سنة 533م عاد الإمبراطور البيزنطي (**جوستينيان**) إلى إحياء مشروع العودة إلى احتلال المدن الأفريقية وتخليصها من الحكم الوندالي من جديد ومن حسن الحظ أنَّ هذه المقاطعات كانت تعيش ثورة من الداخل ضد الملك الوندالي قادها أحد زعمائها المدعو (**بودنتيوس**) الذي أعلن ولاءه للإمبراطور البيزنطي وطلب منه المساعدة التي أرسلت إليه في الحال في شكل نجدة بقيادة (**ثاتيموت**) وخرج الوندال بعد أن دحروا من الشمال الأفريقي، غير أن سيطرة البيزنطيين على هذه المقاطعات لم تكن كاملة فعادت إليها الثورات المحلية والداخلية وحاصرت لواتة القائدين البيزنطيين **ثاتيموت وبودنيوس**؛ وفي نفس الوقت قامت ثورات بنوميديا، وقد وجد (**سلمون**) خليفة القائد (**بليزاريوس**) صعوبة في القضاء عليها.

وفي سنة 455م أقام الحاكم العسكري البيزنطي مأدبة غداء على شرف الزعماء المحليين تحولت إلى مذبحة بعد أن أصدر تعليماته للحرس البيزنطي للانقضاض عليهم، قتل فيهم ثمانين زعيما ولم ينج من هذه المذبحة إلا زعيما واحدا فقط.

وانتشرت الثورة في تونس ونوميديا وقرر الثوار بعد تنظيم صفوفهم استعادة ما سلبته منهم الإمبراطورية البيزنطية مستنكرين الخيانة التي ارتكبها الحاكم العسكري البيزنطي في حق زعماء القبائل في المقابل قابلت بيزنطة ثورات الشمال الأفريقي بتحد مثله فعينت لهم قائد (**جون ترافوليا**) وطلبت منه سنة 546م، الزحف على القبائل اللّيبية التي اعتبرتها بيزنطة المسؤولة الأولى عن الثورة القائمة، وقد فتك بالثوار في أول الأمر ثم ما انفكوا أن توحدوا من جديد ونظَّموا صفوفهم بالتعاون مع قبيلتي (**الناسمون**) و(**الجرمنت**) فزحفوا على الساحل فخرج لهم القائد البيزنطي الجديد ولكنهم دخلوا للصحراء الذي تعتبر عصية على القوات البيزنطية التي تخاف من حرب العصابات التي يجيدها الثوار وجربوها على مؤخرة الجيش البيزنطي الذي تضرر كثيرا تحت قيادة القائد الأخير الذي اضطر إلى الهروب من ضربات الثوار إلى تونس حيث استعاد بناء قواته وإعادة هيكلتها ثم عاد إلى طرابلس التي انسحب منها مطرودا وعاد ليقضي على الثورة في هذه المقاطعات البيزنطية التي أخذت منذ هذا التاريخ تنعم بشيء من الهدوء والاستقرار فاستمر ما يقرب من مئة عام حتى الفتح العربي عام 643م وقد حاول البيزنطيون القيام بإصلاحات إدارية فأنشؤوا العديد من الكنائس داخل المقطعات الثلاث الذي زرعت فيها المذهب الكاثوليكي، ذلك كانت الحال عند بدء طلائع الفتح الإسلامي العربي الذي حمل لأهل هذه المدن دينا جديدًا، وحضارة جديدة لاتزال ممتدة معنا في الحياة.

يمكن أن تلخصُ بالموضوع على النحو التالي: لقد خضعت المدن الثلاث إلى نفوذ قرطاجة التي حدث من القوة الاقتصادية التي كان يتمتع بها الإقليم وأصبحت تابعة لها وباشتعال الحرب البونية الثالثة بين قرطاج وروما وتدخل المملكة النوميدية بقيادة ملكها **مسينسا** وانتهت تلك الحرب بتدمير قرطاجة ونتج عن ذلك أن ضم اقليم المدن الثلاث إلى المملكة النوميدية، ونتيجة للصراع بين زعماء نوميديا على السلطة وقيام الحروب اضطرت المدن الثلاث للاستنجاد بروما التي أرسلت بعض قواتها إلى المنطقة سنة 106ق.م وبعد هذا ازداد وجود القوات الرومانية وحين اشتد الصراع بين **يوليوس قيصر** وغريمه **بومبي** انحازت المدن الثلاث إلى الأخير؛ ولما اكتمل النصر **بقيصر** سنة 46 ق.م. ضم المدن الثلاث إلى روما، إلى الإقليم الذي عرف بأفريقيا الجديدة.

طرابلس في العهود الإسلامية

إن المتتبع لتاريخ هذه المدينة في العهد الإسلامي يلاحظ أن روايات المؤرخين ومن زارها من الرحالة العرب شهدوا لها بالعراقة والبروز ضمن المدن الهامة التي قامت على الساحل الأفريقي الشمالي، وقد جعلها بعض الجغرافيين حدا فاصلا تبدأ به أفريقيا نحو الغرب، وقد اصطلح العرب على تسمية طرابلس وتونس **بالمغرب الأدنى**، وسموا الجزائر **بالمغرب الأوسط** أما بلاد المغرب فسموها **بالمغرب الأقصى**، وهكذا يلاحظ المرء أن طرابلس من خلال ما يحيط بها من دول الشمال الأفريقي تمثل نقطة بداية نحو الغرب كما أنها نقطة بداية نحو الشرق وهو ما أضفى عليها مكانة مرموقة استراتيجيا، وسياسيا، واقتصاديا حيث كانت من أكثر مدن الشمال الأفريقي مكانة واحتراما تضاهي المكانة التي حصلت عليها في العصور السابقة للعهد الإسلامي.

وقد وردت أخبار فتوحها في الروايات الإسلامية أن **عمرو بن العاص** المكلف من الخليفة الراشد **سيدنا عمر بن الخطاب** بفتح الشمال الأفريقي قد سار إليها بعد فتح برقة فحاصرها شهرًا ولم يقدر على فتحها نظرا للتحصينات الشديدة من جميع جهاتها البرية، وبقي الحصار إلى أن اكتشف بعض الجنود الذين خرجوا للصيد منفذا لها من جهة البحر غربي المدينة فسلكوه ودخلوا منه وكبروا وتم الاستيلاء على المدينة، وتفيدنا الروايات بأن سور تحصيناتها لم يكن متصلا بالبحر، وكانت سفن الروم راسية قبالة بيوتهم وكانت طرابلس أهم ما افتتح **عمرو بن العاص** من بلاد المغرب الذي لم يعط الإذن **لعمرو بن العاص** بالزحف على أفريقيا كلّها.

وإذا استعرضنا ما كتبه المؤرخون والرحالة العرب في مختلف العهود الإسلامية وجدنا ذكرا واضحا لهذه المدينة وغيرها من المدن الداخلية منها والساحلية، ونحاول باختصار أن نلخص ما كتبه الرحالة العرب الذين زاروا مدينة طرابلس إبّان الفتح الإسلامي:-

1- تحدث عنها اليعقوبي فقال:-

اطرابلس مدينة قديمة جليلة موقعها على ساحل البحر عامرة بأهلها وهم أخلاط من الناس، فتحها **عمرو بن العاص** سنة 23 من الهجرة في عهد الخليفة

عمر بن الخطاب وهي تحتل مكانا هاما بين المدن الإسلامية التي تنتشر على الساحل في هذا الوقت وقد ذكر معها عدة مدن مثل برقة، وودان، وزويلة، وفزان وقد حرص العرب الفاتحون على التوقف على فتح مدن المغرب بل اكتفوا بهذه المدينة وما تحمله من جلال، وجمال فاتخذوا منها مركزا بحريا وعاملوها كحلقة وصل برية وبحرية بين الشرق والغرب ولم يهملوها كما جرى لبعض المدن الأخرى مثل لبدة بل احتفظت بمركزها بمختلف العصور وشاركت في جميع الأحداث التي تعاقبت على الوجود الإسلامي في البحر الأبيض المتوسط.

2- وتحدث عنها الرحالة «ابن خُرْداذبة والكرخي» في كتابه المسالك والممالك فقال:-

اطرابلس أي ثلاثة مدن مثلما كان يطلق عليها في العصر الفينيقي والنوميدي والروماني هم (طرابلس+ لبدة + صبراتة) أما اطرابلس الغرب فهي من عمل إفريقية وهي مدينة مبنية من الصخر على ساحل بحر الروم خصبة وواسعة الأرض «حصينة جدا» كان وصف الكرخي هذا لمدينة طرابلس في النصف الأول من القرن الرابع الهجري .

3- أما «ابن حوقل» فقد تحدث عنها حديثا طويلا في كتابه الجغرافي الهام «صورة الأرض» فقال في وصفها:-

هي مدينة من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة، حصينة واسعة الربض صالحة الأسواق نقل السلطان الكثير من ربضها وأسواقها داخل المدينة وأسوارها، وهي ناحية واسعة الكور كثيرة الضياع والبادية وارتفاعها دون ارتفاع برقة آنذاك وبها من الفواكه اللذيذة كالخوخ، والفرسك، والكمثرى، ما لا يوجد في المدن الأخرى، وبها الجهاز من الصوف والأثاث الفاخر وبها المراكب تورد التجارة صباحا ومساءً من بلد الروم وأرض المغرب مملوءة بضروب الأمتعة والمطاعم وتحدث **ابن حوقل** عن أهلها فوصفهم بالمرموقين اشتهروا بين من جاورهم بنظافة الثياب ونصاعة الأعراض يتجملون بحسن الثياب وحسن الصور، والقصد في المعاش، إلى مروءات ظاهرة وعشرة جميلة، ورحمة مستفاضة، ونية سديدة ورباطات كثيرة، ومحبة للغريب أثيرة .

وقد ظفرت اطرابلس بهذا المدح والإطراء من أحد الرحالة والمؤرخين من خلال ما لمسه لمس اليد في طرابلس خلال زيارته وبقائه فيها حيث اطلع على كل ما فيها بدءًا من صخورها البيضاء المبنية بها بيوتها إلى باديتها وفواكهها، وأهلها الذين يمثلون المروءة وحسن الخلق وطاعة السّلطان إلى أن يصل إلى أن المدن الأخرى على الساحل الأفريقي لم تفز بما فازت به طرابلس من مديح من هذا الرحالة.

4- وفي القرن الخامس هجري قال فيها المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم»:-

اطرابلس مدينة كبيرة على البحر، مسورة بحجارة وجبل، لها أربعة أبواب باب البحر وباب الشرق، وباب الجوف الداخل وباب الغرب، أهلها يشربون من آبار ترويها المطر، كثيرة الفواكه والانجاص، والتفاح، والألبان، والعسل.

5- كما خصها أيضا الرحالة «البكري» المتوفَّى سنة 487 هجري في كتابه المسالك والممالك بوصف هام ما وصف من مدن ومسالك فقال:-

إن أهل طرابلس من أحسن خلق الله معاشرة وأجودهم معاملة، وأبرّهم بالغريب، وفي وصفه للمدينة قال يفسر كلمة (**طرابلس**) بالأعجمية الإغريقية بأنها ثلاثة مدن سماها اليونانيون (**طرابليطة**) وتعني بلغتهم ثلاثة مدن لأن (**طر**) معناها ثلاثة وبليطة تعني مدينة، وكان يطلق عليها اسم آخر هو (**أنّاس**) هي مدينة على شاطيء البحر يلود بها صور ضخم جليل البنيان، لها أسواق حافلة، وحمامات كثيرة ويوجد بها مسجد يعرف بمسجد الشعاب هو كرباط يأوي إليه الصالحون، ومدينة طرابلس كثيرة الخيرات والثمار لها بساتين جميلة في الناحية الشرقية منها، ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح وداخل المدينة يوجد بئر يعرف ببئر (**أبي الكنود**) وأظن يقصد به بئر داخل المدينة القديمة قرب سوق الحرارة.

6- أما الجغرافي العربي الكبير «الإدريسي» من القرن السادس الهجري فقد وصف طرابلس في كتابه «نزهة المشتاق» :-

على البحر بيضاء حسنة الشوارع، متقنة الأسواق بها صناع وأمتعة تصدر إلى عديد من الجهات الكثيرة شجرة التين والزيتون وفواكهها من النوع الجيد نخيلها مثمر

وكثير إلا أن العرب أضرت ما بها وبما حولها وأجلت أهلها، وأخلت بواديها، وغيرت أحوالها، وأبادت أشجارها، وغوّرت مياهها.

وتنقل إلينا الفقرة الأخيرة وصف دقيق لما حصل لمدينة طرابلس إبان هجرة قبائل بني هلال وسليم وما كان لها من أثر سلبي على مدينة طرابلس من خلال هذا الوصف الذي أتانا به الإدريسي لمدينة طرابلس وما كانت تنعم به من خيرات في القرن السادس الذي عاش فيه هذا الرحالة العظيم.

في هذه الفترة الزاهرة التي كانت تعيشها طرابلس واقتحامها من الهجرة العربية قام **روجير** ملك صقلية بمهاجمتها بغية احتلالها متذرعا بأنه فعل ذلك لحماية بلاده من الغزاة العرب وردهم على أعقابهم وقد تعرضت هذه المدينة إلى هزات عنيفة أثرت عليها في جميع مفاصل الحياة لاسيما الاقتصادية منها فقد كانت الهجرة الهلالية ومهاجمات روجر ملك صقلية المتتالية عليها، والحروب النورماندية كل ذلك أثر بوضوح على مركزها الاقتصادي.

7- ووصف الرحالة والمؤرخ «عبد الواحد المراكشي» الذي ولد بمراكش عام 581 هجري وتعلم بها فقال في طرابلس في كتابه «المُعْجب في تلخيص أخبار المغرب» :-

أما مدينة طرابلس فلم تزل معمورة إلى هذا الوقت، كما أشار إلى أهميتها الدفاعية كثغر من الثغور الإسلامية الهامة على الساحل الأفريقي، فيها العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية شرقا إلى مدينة القيروان غربا، تمشي فيها القوافل ليلا ونهارا وكان بين الاسكندرية وطرابلس حصون عدة متقاربة جدا فإذ ظهر على البحر عدو نور كل حصن للحصن الذي يليه واتصل التنوير فينتهي خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية أو من الإسكندرية إلى طرابلس في خلال ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل فيأخذ الناس أهبتهم الدفاعية ويستعدوا للدفاع وخوض المعارك كان هذا الأمر سائدا إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفوا عنها أهلها.

8- أما الرحالة العبدري الذي زار طرابلس في نهاية القرن السابع الهجري ودون رحلته في كتاب الرحلة المغربية فقد شذّ عن القاعدة التي انتهجها جميع الرحالة السابقين من حيث حديثه على طرابلس وأهلها الذين وصفهم بالضحالة الفكرية حيث قال :-

ثم وصلنا إلى مدينة طرابلس التي هي للجهل مأتم، وما للعلم بها من غرس، اقفرت ظاهرا وباطنا، تلمع لقاصدها لمعان البرق الخلب، تريه ظاهرا مشرقا وباطنا قد قطب، اكتنفها البحر والقفر واستولّى عليها عربان البر والنصارى الكفر، تفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم النفر، لا ترى فيها شجرا ولا تمرا، ولا تحوي في أرجائها بحرا ولا نهرا ولا تجتلي روضا يحوي نورًا ولا زهرًا.

لم أر بها ما يروق العيون سِوَى جامعها ومدرستها فإن لهما نصيبا من حسن الصورة، وما رأيت في الغرب مثل مدرستها المذكورة لولا أن محاسنها مقصورة على الصورة فما يشب بها للعلم طفل ولا يشب ضرورة، ولم تقتصر نقمة هذا الرحالة على أهل طرابلس وحدها بل شملت المدينة كلها فلم يغن بوصفها كما فعل الرحالة من قبله ولم يستوقفه شيء من مبانيها سوى قوس الأثر الروماني المعروف باسم (قوس ماركوس أوريليوس) الذي وصفه وصفا دقيقا رغم أنه أول رحالة عربي يقف أمام هذه التحفة التي لعبت بخياله، وأخذت بلبه فخرج منه هذا الوصف الذي دلّ على عمق الحس الفني والأثري يقول (العبدري) لم يُرَ في طرابلس أثر عناية سوى قبة بباب البحر من بناء الأوائل في غاية الإتقان ونهاية الأحكام مبنية من صخور منحوتة في نهاية العظم منقوشة بأحسن النقش، مرصوفة بأعجب الرصف بلا ملاط بين الصخور من طين أوغيره، ومن العجيب ترتيب تلك الصخور ورصفها في الأساس عن رفعها إلى السقف ووصولها إلى هناك مع افراط عظمتها، ويستطرد في الوصف الدقيق لقوس ماركوس أوريليوس إلى أن يصل إلى الأسدين الذين كانا يحرسان هذا القوس حيث كانا مرسومين على القوس، وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال يقول لماذا (العبدري) فقط من بين الرحالة الذين زاروا طرابلس وأفاضوا في وصفها مدينة، وسكانا، وبناء فهل من سبب لنقد العبدري للمدينة ولم يلفت نظره فيها سوى الجامع والمدرسة وبالتالي (قوس ماركوس) فقط ؟

هل هذا الرحالة كان ذا شخصية بدت بوضوح في رحلته الهامة التي تعبر عن أصالة ذاتية، واستقلال في الرأي وفي الحكم على الأشياء؟! وهو قد اختلف عمّن سبقوه فلم ينقل آراءهم بينما سجل انطباعاته الشخصية، أم أنه رجل شرس الطباع سريع الإثارة والاستفزاز فكان سيء الحظ ولم يلق من الذين استقبلوه حين وصوله من يقدر شخصيته الأدبية وقيمتها العلمية ويحلوها منزلتها من التقدير والاحترام!!

وهل من الممكن أن تتغير نظرته ويرتقي بأحكامه لو وجد من يحسن استقباله ويخصه بالترحيب الذي يستحقه؟ نعم علمتنا مواقف الرحالة القدامى أنها تتكيف بظروف الرعاية والإكرام شأن بعض الصحافيين والكتاب في عصرنا الحاضر (إذا كبرت اللحمة وعبيت البطينة تستحي العوينة) وتنال ما تريده، ويمكن القول أيضا أن الظروف التي زار فيها العبدري طرابلس كانت فترة فتن واضطرابات قام بها بعض زعماء بني غانيه وغيرهم واستعانة بعضهم بنصارى البحر لاحتلال طرابلس، ومع كل الأحكام التي سنطلقها فإني والحق أقول قد أعجبت بموقف العبدري وحكمه الذي أطلقه على طرابلس رغم قسوته.

9-أما الرحالة التيجاني الذي قام برحلته في البلاد التونسية، وللقطر الطرابلسي وبقي مدة ثمانية عشر شهراً من 706 إلى 708 هجري:-

فقدم لنا أوسع صورة قدمها رحالة عربي عن هذه المدينة وضواحيها، وتعتبر رحلة التيجاني أوفى مرجع وأشمله عن هذه الفترة حتى اعتبر من أهم المصادر في تاريخ ليبيا وأحوالها العامة في ذلك العصر وقد اعتمد على معلوماتها وأوصافها كثير من المؤرخين والدارسين كان في مقدمتهم المؤرخ الكبير ابن خلدون، وقد كانت رحلة التيجاني لطرابلس سهلة وهينة وطويلة زمنيًا مما مكنه من الإطّلاع والاتصال بكل الفئات وساق لنا الوصف العام لمعالمها ومرافقها.

يقول التيجاني حين رافق الأمير أبا زكريا اللِّحياني إلى طرابلس: إن بياض المدينة حين يختلط بشعاع الشمس يكاد يغشي الأبصار، فيخرج جميع أهلها مستبشرين ومكبرين رافعين أصواتهم بالدعاء ثم أخذ في وصف شوارع المدينة وأسوارها وأكثر مرافقها فقال:-

شوارع المدينة:

لم أرَ أكثر منها نظافة، ولا أحسن استقامة واتساعًا ذلك أن أكثرها يخترق المدينة طولاً وعرضًا من أولها إلى آخرها.

المرسى وباب البحر:

وبخارج باب البحر منها منظر من أروع المناظر مشرفُ على ساحل، حيث مرسى المدينة وهو مرسى متسع تقترب المراكب فيه من البحر وتصطف هناك اصطفاف الجياد.

القلعة :

كان يسكنها الولاة الذين تعاقبوا عليها، وكانت آثار الفخامة بادية عليها غير أن الخراب قد تمكن منها، كما باع الولاة أكثر المباني والدور التي تحيط بها.

الرياض:

هذا الموقع كان خاصًا لوالي البلاد وهو قديم، أصله من مباني بني مطروح رؤساء طرابلس في القديم، ويجمع الكثير من المباني الضخمة والثمار الناضجة ثم انتابه الخراب كغيره من مباني هذا الزمان.

وكذلك تحدث رحالتنا في عصره وخلال ذكره لآثار طرابلس عن مسجد العشرة وحمام البلد، وأسوارها، وأبوابها، ومساجدها وخص بالذكر مسجد الشيخ عبدالله الشعاب الذي وصفه بأنه من أقدم المساجد في مدينة طرابلس كرباط مقدس للمجاهدين إبّان الفتح الإسلامي وتحدث عن **(مُصَلَّى)** البلد الذي حدد موقعه بجانب مرسى البلد، وباب البحر، وهو مصلى قديم قال إن الوالي عبدالله بن أبي مسلم سنة 300 هجري قد بناه.

طرابلس من (1510-1911م)
إلى بداية الاستعمار الإيطالي

يبدأ هذا العهد بتحرير طرابلس في أيدي العثمانيين وإجلاء فرسان مالطا عنها عقب الحصار البري والبحري الذي ضرب حولها في أغسطس عام 1551م وقد بدأ الهجوم على قلعة طرابلس التي كانت معقل فرسان مالطا التي سلمهم الإسبان إياها، ففي الثامن من أغسطس تم التنسيق بين سنان باشا قائد الأسطول العثماني ومراد آغا حاكم تاجوراء على حصار استمر عدة أيام قصفت فيه القلعة قصفا شديدا ألحق بها أضرارا فادحة دفع فرسان مالطا إلى الاستسلام، ومكن العثمانيين من دخول المدينة والقلعة يوم 14 اغسطس 1551م وأقيمَ احتفال كبير بانتصارهما.

وقد كان مراد آغا أول من شغل منصب (واليًا عثمانيًّا) على البلاد، فكان من أبرز أعماله العمل على إعادة تعمير المدينة، وترميم القلعة، وتنشيط الحياة العامة في المدينة بعد أن تعرضت إلى أضرار كبيرة خلال العهد الإسباني وعهد فرسان مالطا.

وبطرد فرسان مالطا سنة 1551م عادت البلاد إلى السيادة الإسلامية، واحتلت مركزا هاما حيث أصبحت قاعدة من قواعد البحرية العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، كما برزت مشاركتها في كافة الأحداث التي وقعت في هذه الفترة سواء في استرداد المواقع المحتلة من التراب التونسي أو في الإغارة على المواقع المعادية على السواحل الأوروبية، أو في رد الهجمات المضادة، أو في المعارك الكبرى التي جرت حول مالطا وقد اهتم مراد آغا بالناحية الدفاعية للمدينة والقلعة فقام بترميم القلعة وتحصينها، وحول الكنيسة التي خصصها فرسان مالطا في القلعة باسم **القديس ليوناردو** إلى **مسجد**، واستمر مراد آغا في حكم طرابلس إلى عام 1553م، حيث أدركته الشيخوخة فعاد إلى تاجوراء، وانشأ بها جامعه المشهور الذي بناه الأسرى الموجودين لديه وكان تحفة أنشئتْ على 48 عمودا وعلى هيئة حصن لايزال من أهم المعالم الأثرية المشهودة لها بالعظمة في الإنشاء المعماري، ومات في تاجوراء ودفن بمسجده الذي لازال قائما حتى الآن.

وقد خلفه **درغوت باشا** الذي كان أكثر اهتماما بالناحية المعمارية في طرابلس التي أحبها وجعل منها عاصمته في الشمال الأفريقي، والقاعدة البحرية المواجهة إلى المنطقتين الوسطى والبحرية من البحر الأبيض المتوسط، وقد مثلت عهود الولاة العثمانيين الأوائل الأقوياء فترة نمو وازدهار في المدينة القديمة حيث عظم مركزها بقوة الشخصية البحرية الهامة التي سيطرت على البحر المتوسط وتاريخه سيطرة تامة في هذه الحقبة من الزمن التي أعادت إلى الأذهان سيرة رجال البحر العظام من أمثال «**خير الدين بربروس**» الذي خلع أهمية كبيرة على مدينة الجزائر بقوته وكذلك خلع درغوت باشا نفس الأهمية بالقوة والعمل على مدينة طرابلس وتاريخها الذي لازال يشهد له المسيحيون الذين هاجمهم ونال منهم في تلك الفترة قبل غيرهم من سكان طرابلس والشمال الأفريقي عامة وقد شهدت المدينة انتعاشا بعودة السيادة الإسلامية عليها فعاد سكانها الذين هجروها ونزحوا منها إلى الضواحي أثناء الاحتلال الإسباني ومن بعده احتلال فرسان مالطا فعادت إليها الحياة نتيجة إزدهار الحركة الحربية البحرية بها وانتقال بعض الجنود المشارقة إليها ضمن القوات العثمانية.

وحرص العثمانيون على أن يجعلوا منها قاعدة بارزة لأسطولهم الذي يجوب البحر الأبيض المتوسط شرقا وغربا وشمالا ويعود إليها محملا بالغنائم، والأسرى، والسبايا، كما عادت للاتصال بالمدن الإسلامية، ولئن كان الاضطراب قد ألحق علاقاتها بالسوء مع الدول المسيحية إلا أن حركة التبادل التجاري لم تتعطل، ولكي لا يعود إليها الغزو المسيحي من فرسان مالطا أو غيرهم عمد العثمانيون إلى زيادة التحصينات فيها بعد أن حاول فرسان مالطا العمل على إثارة الفتن والقلاقل للعثمانيين عن طريق الثورات الداخلية وذلك بتحريض أهالي الدواخل وتزويدهم بالمال والسلاح لمناهضة الحكم العثماني، وسار درغوت باشا في طريق الإصلاحات فعمل على تدعيم أبراج المدينة، وإنشاء برج جديد عرف باسم «**برج درغوت**» يشرف على الميناء وعلى الجانب البحري للمدينة كما أنشأ مسجده المعروف الذي مازال قائما حتى الآن منذ عام 1559م ميلادي وكان من أكبر مساجد المدينة في تلك الفترة يضم رفاته، ومن إنجازات درغوت باشا في المدينة إنشاء **دار البارود** التي لاتزال آثارها قائمة حتى الآن في الزاوية بين سوق المشير وميدان

الشهداء، كما قام بإنشاء **برج التراب** في المرتفع باسم القبة في الناحية الشمالية من باب البحر كما قام أيضا بتعديل أوضاع السور الغربي للمدينة وبذلك ضمن صد الهجمات البحرية.

وبالرغم من الظروف البحرية التي كانت تواجه درغوت باشا المتمثلة في الفتن والثورات الداخلية من جهة، ومواجهة التحديات الخارجية المسيحية فقد استطاع أن يستقطع من وقته ما يساعده على تجميل مدينة طرابلس والعناية بها، وتطويرها مستعينا في ذلك بالأسرى المسيحيين الذين أسرهم في حملاته وغزواته البحرية حتى ليمكن القول باطمئنان أن «**المدينة القديمة بطرابلس**» كما تبدو في شكلها الباقي إنما هي إنشاء عثماني كان لدرغوت باشا الفضل الأول في وضع حجر الأساس فيه بعد أن دُمرت المدينة تدميرا تاما في العهد الإسباني كما تشهد بذلك الوثائق العثمانية القديمة ويسند هذا الرأي أن المعالم الباقية بها إنما ترجع إلى تلك العهود والفترات التالية التي كانت تقوم فيها بين الحين والآخر بعض الشخصيات القوية التي تخلف أثرها المعماري كما هو الشأن في عهد **محمد الساقزلي وعثمان الساقزلي**، وعهد **محمد باشا الإمام** وغيرهم.

ومن حظ هذه المدينة التاريخي أن توفرت عنها في مختلف الفترات تقارير تضمنت أقوال المؤرخين، والجغرافيين والرحالة العرب والأجانب، وانطباعات الأسرى، والبعثات الأخرى وهو ما شكل في مجموعه صورا متعاقبة متلاحقة لكل الفترات التي مر بها تطور هذه المدينة ومنها أنّه في عهد درغوت باشا وقع أسقف مدينة «**كاتانيا**» الإيطالية في الأسر ونقل إلى مدينة طرابلس التي بقى فيها أسيرا مدة من الزمن كتب فيها تقرير يعتبر من أهم الوثائق التاريخية على مدينة طرابلس قدمه إلى نائب ملك صقلية صوّر فيه الأوضاع العامة للمدينة سنة 1651م تحدث فيه على التحصينات التي أقامها درغوت باشا وفي مقدمتها برج التراب الذي وصفه الأسقف بأنه أقوى وأشد تحصينا على المدينة ومن الصعوبة بمكان اختراقه إلا بقوات مسيحية كبيرة وقد ظل هذا السور قائما إلى حين مغادرة العثمانيين طرابلس سنة 1918م وقد سموه من قبل **برج المنار** وكان مكانه الذي يعرف بالقبة بباب البحر في المكان الذي يقوم عليه حاليا خزان المياه بوسعاية البولاقي بباب البحر.

ويبدو أن درغوت باشا قد اهتم بتحصين المناطق الشرقية مما أدى **بالأسير الأسقف كراتشو** أن يضمن تقريره المذكور إلى نائب ملك صقلية عدة نصائح منها انزال قوات مسيحية بالمناطق الشرقية ومنها يتم الزحف على المدينة ويؤكد على ضرورة هذه الحملة والتعجيل بها لأن إغفالها والتجاوز عنها سوف يعرض ممالك صقلية، ونابولي للخراب الدائم وتعريض جميع المسيحيين للمهانة والإذلال الكبيرين وقد أدرك فرسان مالطا عظمة هذه القوة الجديدة فكفوا عن الهجوم أو حتى مجرد التفكير بالغزو المباشر لها، وحين فكروا في العودة نزلوا في بقعة ساحلية عند «زوارة» واكتفوا بتشجيع الحركة الثورية والأعمال التخريبية في طرابلس وجربة.

وتقول بعض المصادر أنَّ «**قلج علي**» قد خلف درغوت باشا في قيادة الأسطول العثماني لأنه كان أحد أكبر القادة العثمانيين المعدودين في القيادة والحنكة البحرية بل وكان له الفضل في إنقاذ الأسطول العثماني من الكارثة التي كادت أن تحل به في معركة «**لبانتو**» الشهيرة ولم يسجل التاريخ «**لقلج علي**» أية مكرمات أو آثار على المدينة سواء أنه أكمل دار البارود التي بدأ العمل فيها درغوت باشا، وقد كان لحصار مالطا، وهزيمة لبانتو، وحملة تونس أثر قوي لما صرف على هذه الحملات والأحداث من مال ممّا أثر على الناحية الاقتصادية والتجارية على المدينة وبالتالي الحد من النشاط العمراني الذي كان يبذله بعض القادة والولاة، وانصرف الجهد إلى إعادة بناء الأسطول البحري الذي كان مصدر المال للمدينة.

وبعد «**قلج علي**» حكم المدينة كثير من الولاة والدايات كانوا أقل وزنا، وأضعف شأنا من الولاة العظام الذين سبقوهم إلى الحكم وقد واجه هؤلاء العديد من الثورات الداخلية، والقلاقل المستمرة نتيجة ما اقترفوه من مغالاة في إلزام الأهالي بدفع الضرائب، ونهب للأموال الأمر الذي دفع بالأهالي إلى كره الحكم العثماني والوقوف ضده بجميع الوسائل الثورية، والانتفاضات الداخلية مما دفع هؤلاء الولاة إلى تجريد العديد من الحملات العسكرية ضدهم لإخماد هذه الثورات والقضاء عليها.

وفي عام 1584م تولى المدينة الوالي مصطفى باشا وتعرض إلى حصار من أحد أبناء المدينة الثائر «**يَحْيَى السويدي**» الذي أغلق جميع المنافذ البرية على طرابلس مما أدى بالوالي العثماني إلى الاعتماد على المنافذ البحرية لكي يتمكن سكانها من العيش فاضطرت إلى جلب التموين من جربة التي كانت تابعة لها في تلك الفترة، واستمرت حالة الحصار حتى سنة 1586م حيث دعت الآستانة الوالي إلى تهدئة غضب الثوار الذين اتصلوا بفرسان مالطا وتلقوا منهم وعودًا بالمساعدة إلا أن سفن السلطان العثماني قد سبقت بالوصول قبل مساعدة فرسان مالطا حيث فكت الحصار عن المدينة والقلعة وتعقبت القوات العثمانية يحيي السويدي وغيره من الثوار المحاصرين للمدينة وألقي القبض عليه وقتل وسلخ جلده وأرسل إلى القسطنطينية، وقد وصف لنا هذه الأحداث الرحالة المغربي « **أبو الحسن علي ابن محمد الجزولي التمجروتي** » في رحلتـــه المعروفة باســـم « **النفحة المسكية في السفارة العثمانية** » نلخصها في الآتي قال:

« أرسينا بميناء طرابلس ضحى يوم السبت 26 من ذو القعدة من العام المذكور، فوجدنا في المرسى نحو ستين سفينة وردت من القسطنطينية وفيها الباشا القبطان المتولي أمر البحر وأمر أفريقيا وكلها بيده، جاء هذا الباشا بمن معه من الجند بسبب قائم قام في بلاد طرابلس فعاث فيها وأفسد أوطانها وأضرم فيها نار الحرب، واجتمعت عليه العرب وحشدها فاستولى على ما سوى المدينة من القوى والبادية والأوطان كلها وجبى خراجها وجمع أموالها وزحف إلى المدينة وحاصرها فقتل كل من خرج إليه وأفناهم، قتل من أهل طرابلس في يوم واحد ثمانية عشر مائة نفس «أي 1800 شخص» هذا سوى من قتلهم من غير ذلك اليوم في وقائعه وغاراته، فصار له صيت عظيم، وهابه الناس وتقربوا منه فأغرى بناتهم، وهتك أعراض أشرافهم وأقام له ملك في بلادهم.

ويصف هذا الثائر بقوله: «إنه فظ غليظ القلب متهاون بالشرع وحدود الله، سفاك للدماء فأوجب ذلك نفور الناس منه وابتعادهم عنه بعد أن كذب عليهم حين وعدهم عند قدومه بأنه سيقيم العدل ويحارب مناكر العثمانيين والأوغاد الذين جاءوا قبله وغير ذلك من الأكاذيب التي كان يطلقها قبل وصوله للرئاسة والجاه، وقد جار الترك

الأوغاد على أهل البلاد كثيرا وأفسدوها وضيقوا على أهلها في أرضهم وديارهم وأموالهم وأعراضهم حتى استباحوا حريم المسلمين واغتصبوا بناتهم ونساءهم دون أن يستطيع أحد منعهم إلى غير ذلك من الذل والإهانة، وقد فعلوا ذلك مع أهل افريقية كلهم فأوجب ذلك استماعهم إلى كل ناعق واتباعهم لكل قائم رجاء أن يجدوا الفرج معه».

ويستطرد الرحالة التمجروتي القول: ثم إن هذا القبطان قد خرج بما معه من جيش اسطنبول وما اجتمع عنده من جند الجزائر الذي معنا في عدة سفن كما جاء جند تونس من البر وتتبعوا المتمرد الذي يدعى «القائم» في الصحراء أياما فوقف لهم وقاتلهم أياما ثم انهزم وفر منهم إلى الصحراء مع العرب، ورجع القبطان بالجيش إلى المدينة بعد أن قتل من ظفر بهم من العرب اتباعه، ثم إن العرب اختلفوا على القائم اختلافا كبيرا تسبب في قتله وسلخ جلده وحشوه بالتبن وأرسل إلى إسطنبول مع قاتليه فنصبت في الأسواق والهدايا والعطايا الجزيلة لقاتليه.

وقد أقام الرحالة في طرابلس شهرا واثني عشر يوما وصف فيها مدينة طرابلس فقال :-

وجدناها ضعيفة جدا بتوالي الفتن عليها، وهي مبسوطة الأرض شبيهة بالصحراء ومنشرحة الأوطان مسورة حصينة، في قراها نخيل كثير وفواكه كتاجوراء وجنزور وغيرها، ولقينا فيها من ينتسب إلى العلم والدين والصلاح، وفقيهها وخطيبها السيد «**أبو عبدالله المكني**» وهو من صفاقس هاجر إلى طرابلس وأصبح مفتيها، لعلمه و وقاره وحسن عشرته.

ويعتبر وصف هذا الرحالة لطرابلس وأحوالها في تلك الفترة الغامضة وثيقة من أندر الوثائق من تاريخ طرابلس لم تشر إليها المراجع والمصادر الأخرى العربية والأجنبية، وفي نهاية القرن السادس عشر أخذت بوادر الضيق والإستياء تظهر على سكان طرابلس من الحكم العثماني الجائر كما برزت نزعة قوية وواضحة للاستقلال بالحكم سرت في جنود الانكشارية الذين كانوا يرفضون الخضوع للولاة الذين ترسلهم القسطنطينية ويفضلون

الإنصياع لعناصر منهم ينتخبوها أو يتحكمون فيها وقد جربوا هذا الحكم الجديد في تونس والجزائر وهو ما عرف «**بحكم الداي والديوان**».

ويبدو أن المدينة قد نعمت بحياة أحسن خلال الفترة من 1595م إلى 1612م حيث ساد الهدوء النسبي وازدهرت الحركة التجارية مع المناطق الجنوبية والموانئ الأوروبية ولم يدم ذلك طويلا حيث تدخل الطموح الشخصي فأفسد هذا النظام وابتلاه بالانشقاق والفتن فعادت الاضطرابات والانقسامات وتعرضت المدينة لهزات عنيفة عصفت بها، ثم توالى حكم الدايات على المدينة فتولى عليها «**صفر داي**» الذي كان أول داي على طرابلس فتولى فيها الأمر سنة 1611م وتصرف فيها كما يتولى الحاكم الفرد فشجع الغزوات البحرية رغم ضعف البحرية الطرابلسية فشيد معتقل خاص لإيواء الأسرى الذين تزايد عددهم قرب قصر درغوت وقد عرف باسم **الحمام القديم**.

حكم الدايات:-

وفي سنة 1610م قام صفر داي بترميم الجامع الأعظم «**جامع الناقة**» وهو موجود بشارع الفنيدقة بالمدينة القديمة، كما قام أيضا بإصلاح باب البحر، وانتهى هذا الداي نهاية سيئة إذ اشتكاه الأهالي إلى السلطان بالقسطنطينية فأرسل في الحال أسطولا إلى طرابلس حيث اعتقل قادته صفر داي وأعدموه بعد أن طافوا به في شوارع المدينة، ثم أعقبه سليمان باشا الذي شهد عهده حالة من الهدوء والانتعاش وازدهرت فيها البحرية الطرابلسية التي استطاعت بعدد من السفن محدود أن تأسر عددًا كبيرًا من المسيحيين وفي هذه الفترة استقبلت المدينة عددًا كبيرًا من الجنود الإنكشارية الذين قاموا سنة 1622م بالثورة ضد السلطان «**عثمان**» وتسربت عناصر منهم إلى الديوان فكانوا مصدر شغب وقلق وقد استغل هذا الظرف المضطرب الداي الثاني «**مصطفى الشريف**» سنة 1624م فأخذ يغذي الاضطرابات والقلاقل تحقيقا لطموحه ونيته في القفز إلى سدّة الحكم فدخل إلى الديوان كمستشار، وما فتيء أن جمع الجيش والشعب معًا وطلب منهما البيعة والمناداة به «دايًا» على طرابلس وكان له ما أراد بعد أن أنفق أموالا طائلة دفعها كرشًى للجند والأهالي.

وكأي (الداي) سبقه في الحكم كان في بداية ولايته، قام بزيادة تحصين القلعة، كما عمل على تحسين حصن المنارة وإصلاحه (1627 -1628م) وكان هذا الحصن المنيع يسيطر على المدينة والقلعة مزودة بصهريج خاص يحتوي على عدد من المدافع للحماية وله جسر عند المدخل يتصل ببرج درغوت بواسطة السور الذي يحمى مدينة طرابلس من الشمال ودامت هذه الإصلاحات والترميم مدة 4 سنوات في هذا البرج الذي أطلق عليه اسم برج الشريف غير أن الثوار والمنشقين عليه اتخذوه قاعدة لإطلاق مدافعهم على القلعة التي تحصن بها، وقد وقع نفس الصنيع **لعثمان الساقزلي باشا** سنة 1672م ولذا عمل الولاة الذين أعقبوهم على تجريد ذلك الحصن من المدافع حتى لا تستغلها العناصر الثائرة عليهم ومن المشاهد المعتادة في حكم الدايات في تاريخ المدينة أن تقوم الحرب بين القلعة والحصون إذ يكفي أن تستغل العناصر الثائرة بعض الحصون فتقصف القلعة بوابل من نيرانها فتلزم الداي بالتخلي عن الحكم كما حدث للداي **مصطفى الشريف** الذي تحصن بالقلعة ووفر لنفسه التموين والحراسة اللازمين للصمود ولم يتمكن من ذلك.

ولا يتحدث التاريخ عن أي انجاز قام به الداي **رمضان** الذي جاء بعد **مصطفى الشريف** بل وصف بالضعف وقلة الحيلة فسلم حكم المدينة إلى صهره **محمد الساقزلي** الذي كان من المغامرين الكبار، وتعرفنا المصادر التاريخية بأصله وتقول أنه ولد في جزيرة «**كيوس**» من أبوين «**يونانيين مسيحيين**» استغل التجارة كمهنة له فأخذ يجوب البحار على مركب خاص به ويقال أنه شحن مركبه بشتى أنواع المواد التجارية وقصد الجزائر لبيعها، وحدث أن تشاجر مع أحد العثمانيين فقتله وتم حكم الإعدام عليه، وعند تنفيذ الحكم عليه خيّره القاضي بين الإعدام أو دخول الإسلام فاختار الحل الثاني وأطلق عليه اسم «**محمد**» وبعد نجاته من الموت قصد طرابلس ليجرب حظه فيها فوجد من أعجب بمواهبه وشجاعته البحرية الفائقة وقد كانت البحرية في هذا الوقت تمثل أقصى سلّم المد والظهور كما كان لرجال البحر مكانة مرموقة في مناصب الدولة، ولم يلبث محمد الساقزلي أن كسب حُظْوة «**مصطفى داي**» فقربه إليه بعد أن اكتسب شهرة عظيمة ومكانا بارزًا بين قراصنة البحر الأبيض المتوسط مكنته من ثقة «**رمضان داي**» الذي زوجه ابنته وتخلى له عن الحكم .

وهنا تبرز لنا حقيقة مفادها أن أهل البلاد لم يكن لهم شيء من الأمر في أسلوب الحكم وطريقة الوصول إليه، فشكل الديوان، وأشخاص «الدايات» كان بيد فئة مستبدة كان بيد من الإنكشارية والعناصر الطارئة على الإسلام، فكان يكفي لأي مغامر يظهر نبوغه في أساليب الوصول والإنتهازية أو يبرز في مجال الحروب البرية والبحرية حتى يصل إلى التحكم في مصير البلاد والعباد، وخير مثال على ذلك تلك الفئة من الدايات والباشوات الطارئين والمغامرين من أمثال **محمد الساقزلي وعثمان باشا الساقزلي** اللذيْنِ اتسم عهدهما بالقوة والتوسع والهجوم فعمل الأول على توسيع رقعة ولايته في الداخل فشملت برقة ومناطق الجنوب وتطلع بطموحه إلى السيطرة على البلدان المجاورة كما اهتم بتطوير بحريته وضاعفت من نشاطها البحري، وقد سار الثاني خلفه على نفس السيرة بما أُتيح له من طول فترة الحكم ما مكنه فعلا من أن يقوي من مركز مدينة طرابلس وهيبتها في البحر الأبيض المتوسط كما تمكن من مسك زمام الأمر في الداخل بقوة وحزم فحافظ بذلك على قوة الدولة وهيبتها ولكن الهيبة البحرية التي تحققت لمدينة طرابلس في عهود **مراد آغا ودرغوت، ومحمد، وعثمان الساقزلي** قد أخذت في الضعف في عهد الدايات الذين جاؤوا بعد عثمان الساقزلي إذ انشغلوا بأنفسهم وما يكسبونه من أموال ففقدوا احترام الجند والأهالي لهم فانعدمت بينهم الثقة والسيطرة على الموقف، وانشغلوا بصراعاتهم من أجل الحكم والكسب، فتفتت الوضع الداخلي وثارت المقاطعات الداخلية كما ضعفت وزن البحرية في الخارج مما أطمع فيهم القوى الأجنبية المعادية.

في سنة 1658م أرسلت انجلترا الأميرال **ستوكس** في القوة بحرية ألزم بها **عثمان باشا** بالقبول بمعاهدة صلح، وفي 15 يوليو من نفس العام ظهر الفرنسي **(الكافاليير بول)** وأفلح بإطلاق سراح 400 أسير فرسي، وفي عام 1662م جاء إلى طرابلس الأميرال الهولندي **رويتر** لإبرام اتفاقيات مماثلة للإتفاقيات التي أبرمت مع الجزائر وتونس وبمجرد أن شعر الفرنجة بضعف الأسطول الطرابلسي حتى بدؤوا يفرضون شروطهم المجحفة على الدايات من ضمنها إطلاق سراح أسراهم وإلزام الوالي بالموافقة على إعادة توقيع المعاهدات التي فرضها عليهم الدايات من قبل وبالشروط التي يحددونها ملوحين

باستعمال القوة في حال رفض الداي لشروطهم بل منهم من قصف المدينة واقتحم الميناء في 24 يناير 1676م كما فعل السير **جون نايو** قائد الأسطول الإنجليزي.

وتتوالى بعد ذلك أحداث القصف والتهديد، وتزداد عنفا وتصاعدا ولا تقتصر على مجرد ملاحقته بحريتهم للقطع البحرية الطرابلسية فقط بل تتجه إلى المدينة حيث قام الأميرال «**دوكينة**» والمارشال **دي إستري** سنة 1683 إلى 1685 بضرب مدينة طرابلس بعنف شديد كان له أشد الأثر على نفوس الأهالي ومعنوياتهم وأجبر الوالي على المهادنة للشروط التي فرضوها، ويصور المؤرخ «**ابن غلبون**» هذا الوضع تصويرا دقيقا بقوله : **فمن يومئذ تقوى أمر الفرنج في البلد وعلا شأنهم واشترطوا في صلحهم ذلك أمورا لا يرضى بها مؤمن يوقن بلقاء الله ووعده، منها دخول طاغيتهم على مَلك البلاد بنعله، ومشى كبيرهم شاهرا سلاحه بين يدي الملك، كما منعوا على المسلمين محاكمة أي مسلم بالشريعة الإسلامية المطهرة وإنما تكون المحكمة بدار كبيرهم.**

وقد استطاع الوالي «**محمد باشا الإمام**» 1687-1701 أن يقيم في هذه الفترة علاقات حسنة مع بعض الدول الأوروبية وخاصة فرنسا تعتمد على احترام المواثيق المبرمة بين طرابلس وفرنسا مما ضمن بذلك للمدينة فترة الهدوء، كما استطاع بما توفر له من حنكة ودهاء ومكر أن يمسك بخيوط الحكم والإدارة بقوة وحزم مما جعل منه بالفعل أحد الولاة البارزين بسيرته الحسنة وتوقيره للعلماء وقد خلف أثرا معماريا متمثلا في مسجده الذي بناه بسوق الترك سنة 1110 هجري (1698- 1699) كما جدد السوقين المجاورين بمسجده وهما سوق الترك وسوق الحرير.

وفي هذا الوقت نلتقي بوثيقة سجلها شاهد عيان هو الرحالة المغربي «**أبو العباس سيدي أحمد بن محمد بن ناصر الدّرعي**» في رحلته التي قام بها إلى الحج سنة 1119 هجري وقد صادف وصوله إلى طرابلس في حجته الأولى سنة 1096 هجري مهاجمة الأسطول الفرنسي وقصفه لمواقعها وما تبعها من ذعر انتاب الأهالي من هذه الغارة العنيفة وما خلفته من دمار للمدينة ومنشآتها، فوصف هذه الغارة بالهول العظيم، والنكد

الجسيم والعناء الشديد لما أحيط به أهل طرابلس من غم أصابهم من هؤلاء الكفار كما وصفهم، والواقع فإنها وثيقة طويلة لا يمكن سردها ونكتفي منها بما أوردناه في مقدمتها، وتتفق هذه الصورة التاريخية مع الواقع الذي ضبطته وقائع العصر سواء من الجانب الوطني أو الجانب الأجنبي وكان ذلك في عهد «**الحاج عبد الله داي**» كما يتفق هذا الموقف الذي سجله هذا الرحالة للعلماء الطرابلسيين مع موقف الذي سجله العالم «**ابن غلبون**» الذي تقدم في حديث سابق.

وتمضي الأعوام وتتوالى الأيام في جملة من الأحداث، والانقسامات والصراعات والثورات المتعاقبة بين الدايات ورجال الحكم لم تعرف المدينة خلالها أي نوع من أنواع الهدوء والاستقرار الذي يجعلنا نبحث عن الآثار المعمارية أو الإصلاحات في الحكم بل استمرت هذه الدوامة حتى انتهت بوصول **أحمد القرمانلي** رأس الأسرة القرمانلية إلى الحكم.

بداية حكم الأسرة القرمانلية لطرابلس:-

كان **أحمد باشا** شخصية قوية تتوفر فيها العديد من المميزات ساعدته في التغلب على كثير من المصاعب التي واجهت إقامة حكمه الذاتي المستقل واستطاع بهذه الشخصية أن يقضي على الفتن والثورات وكان له أثرٌ على الحركة العمرانية تجلت في المسجد الجميل الذي لا يزال يحمل اسمه وفي بعض الأعمال الأخرى التي سجلها المؤرخ «**ابن غلبون**» مثل تأييده للإسلام وتقريب العلماء إليه، وأمر بوقف العديد من الأوقاف على سور البلد، وحفر قنوات الماء ليصل إلى المدينة لينتفع بها أهلها وبنى بالقلعة بيوتا ومقاصير أنيقة، وجدد ما آل إلى السقوط منها وفتح الأسواق، وجدد الباب الغربي للخندق الواقع بين سوق الخضرة وسوق الحدادين وبنى الفسقية ليتزود بالماء أهل السفن على البحر وينتفع بها الناس الآخرون وعديد من الأعمال التي تفيد الناس وفعل ذلك كله رغم ضيق ذات اليد عنده وكثرت شكاوى الفقراء إليه فتجده يقوم بهذا وذاك، وقد عمل أحمد باشا بعد أن هدأت الأوضاع واستقر له الحكم، وازدهرت الحركة التجارية وازدهر الاقتصاد قام على العناية بتجميل المدينة، وإزالة الآثار التي نتجت عن القصف الفرنسي

لها سنة 1728م وأنشأ العديد من المرافق والمنشآت، وقد كان بحق واحد من خمسة ولات تعاقبوا على حكم طرابلس وخلفوا آثارا لازالت تذكرهم حتى اليوم، وهم **مراد آغا ودرغوت باشا** في الحكم العثماني الأول، **ومحمد الساقزلي وعثمان الساقزلي، ومحمد الإمام** المعروف «**بشائب العين**» في العهد العثماني الثاني، **وأحمد باشا القرمانلي**.

ومن العبث أن نمر على العهد العثماني الأول، والثاني، وعصر الدايات حتى الحكم القرمانلي ولا نتطرق إلى الحياة العلمية والثقافية اللتين كانتا شبه معدومتين لا سيما في العهد العثماني الأول وهي المرحلة التي استردت فيها طرابلس من حكم الإسبان وفرسان مالطا من 1551م ولغاية حكم الأسرة القرمانلية 1711م ولا تحدثنا كتب التاريخ عن هذه الفترة بما يؤكد قيام أي نشاط ثقافي أو علمي بهذه المدينة، وقد كان هذا الطابع السائد في الحكم العثماني في كافة البلدان التي وضع يده عليها، فقد كانت طبقة الحكام نفسها لا صلة لها بالعلم والتنوير بل كانوا فئة من المغامرين والبحارة الممتازين الذين أدركوا بمهاراتهم العالية في البحرية مكانة عالية في مراكز السلطة واتخاذ القرار، وبالطبع لم يكن ينتظر في مثل هذه البيئة أن تزدهر الثقافة أو تعلو راية العلم، وقد أدّى إهمال شأن العلم والعلماء إلى انحطاط مستوى التفكير عند الفرد وبالتالي انتشار الجهل بين الأهالي سكان المدينة الذين سيطرت عليهم «**عقلية الخرافة**» ومالوا للإعتقاد في كل من ادّعى التصوف والولاية بحق وغير حق حتى بلغ بعضهم من النفوذ والقوة بما أصبح يشكل في بعض الأحيان نوعا من القوة المضادة أو المعارضة التجأ الناس إليهم للتخفيف من ظلم الحكام وجبروتهم، وهذا سر ما نلاحظه من كثرة الأولياء والأسياد الذين وجدوا في هذه الفترة حتى كاد أن يصبح لكل قبيلة، بل لكل أسرة ولي يحميها ويرد عنها جور الطغاة وكيد الأعداء، ومهما قيل في هذه الظاهرة وما أحاط بها من ظروف في مقدمتها جهل الفرد وأميته وعدم اهتمام الحكام بالعلم وتعليم الفرد وتنويره لأنهم أنفسهم يفتقدون هذه الميزة، فمن الحق أن يقال لبعض الأولياء البارزين الصادقين من رجالها دور تاريخي هام في كبح جماح حكام ذلك العصر وكسر شوكتهم مما دفع هؤلاء الجائرين إلى الاعتراف لهم بشيء من الحصانة وحق الحماية، وتتوفر لنا عن هذا العهد عدة وثائق وتقارير هامة كتبها المبعوثون، والقناصل والجواسيس والرحالة وبعض العناصر التي أتيح لها الإقامة

في المدينة نختار بعضا هاماً منها تصف المدينة وسكانها والميناء وصناعة السفن والسور والقلعة وما أضافه بعض الولاة من إصلاحات وتحصينات لحماية المدينة وبالتالي لحماية أنفسهم وحماية أصحاب السلطة فقدم إلينا «**الناصري**» صورة عن المدينة في سنة 1675م.

يصف المدينة بقوله:- أما المدينة، فهي غير مستقيمة الطرق ولكنها صالحة للسير والشوارع الرئيسية فيها تعتبر مريحة جدا، منازلهم في عمومها ذات شكل مربع أو مستطيل وتستمد الضوء من فناء داخلي تحيط به بواكي وممرات مسقوفة تنفتح عليها الحجرات المحيطة بالفناء أما من الخارج فهم لا يستغلون الشرفات الضيقة الصغيرة المحمية بمشربيات وسقوفهم مسطحة ومغطاة بالطين الذي يمنع عنها تسرب المياه التي يستفيدون منها بتخزينها في صهاريج، وفي المدينة كنيستان إحداهما كاثوليكية، والأخرى إغريقية أرثوذوكسية والقساوسة القائمون عليها يحظون باحترام العثمانيين، أما مساجدهم فذات هندسة بسيطة ما عدا مسجد الباشا الذي زينت جدرانه الخارجية والداخلية بالقيشاني وبثلاث قباب جميلة جدا كما يقدم لنا هذا التقرير صورة عن وضع «قوس ماركوس اوريليوس» الأثر التاريخي الذي تركه الرومان في العصر القديم وتتحدث الوثيقة على أنظمة الحكم، والحاشية التي تغلب عليها جانب العثمانيين والمستجدون في الإسلام ممن يستخدمهم الوالي ويرفع من مكانتهم بحسب ما يقدمونه من ولاء وطاعة له.

أما الوثيقة الأخرى فهي الرسالة التي كتبها «**أغُسطين**» بلاتو الذي شغل منصب القنصل في طرابلس لمدينة البندقية بتاريخ 1777م والمحفوظة بمحفوظات «**مدينة فينيسيا**» والواقع أن هذه والوثيقة السابقة لها تشكلان مصدرا هاما من المصادر التاريخية عن العهدين العثماني والقرمانلي وتقدمان لنا صورة عنهما وعن أوضاعه العامة من خلال وجهة النظر الخارجية ويرتبط ما أشرنا له من وثائق بعهد علي باشا القرمانلي وهو الحاكم الثالث من الأسرة القرمانلية الذي بقي في الحكم أربعين سنة (1754-1793م) اتسم خلالها عهده بشيء من الهدوء النسبي في المدينة، وتجنب الاصطدام بالدول البحرية الكبيرة التي هددته تارة ومدت إليه يدها لتوقيع معاهدات التفاهم وعدم الاعتداء تارة أخرى بعد أن بعثت إليه فرنسا أسطولها لتهديد المدينة.

ومن الأحداث الجسام التي مرت بطرابلس في عهده تفشي **مرض الطاعون** الذي انتشر في اقليم طرابلس وأثر تأثير كبيرا ومباشرا في شتى مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى لاحظ قنصل فرنسا أن الحـــالة الاقتصـــادية كـــانت في انهيار تام حوالي سنة 1786م بسبب المجاعة والطاعون ولعل ما زاد الطين بلة كما يقول المثل الأحداث التي وافقت تفكك الأسرة القرمانلية بسبب النزاع الذي شب بين الأخوين **حسن ويوسف القرمانلي** والذي أدى إلى مقتل الأول على يد أخيه يوسف ودخول عنصر آخر وهو «**علي برغل**» الذي غزا طرابلس واحتلها وطرد الأسرة القرمانلية منها وما صحب ذلك من صراع من أجل عودة هذه الأسرة إلى الحكم وطرد المغامر الغازي، وتتوفر لنا عن طريق هذا وثائق هامة أيضا لعل أبرزها وأهمها «**المس تُوللي**» في كتابها المعروف «**عشرة سنوات في بلاط طرابلس**» التي صورت فيه الحياة العامة في المدينة تصويرا تاريخيا يعتمد على المعاينة والمشاهدة في هذه الفترة، وتجدر الإشارة أن هذه المؤلفة قد أقامت بطرابلس فترة من الزمن وسجلت انطباعاتها في كتابها المذكور الذي اعتبر من أهم المصادر التي سجلت في عهد الأسرة القرمانلية وعن الفترة الأخيرة من عهد **علي باشا القرمانلي، والمس توللّي** سيدة إنجليزية ربطتها صلة قرابة بالقنصل الإنجليزي في طرابلس حينذاك.

وبعد وصفها للمدينة (سبقها غيرها من الرحالة والجغرافيين) من حيث الحصون والقلعة وبعض المآثر العمرانية تقول :-

ومدينة طرابلس غير مستوية السطح نتيجة لركام المزابل والنفايات وكثيرا ما يبني المواطنون دورهم فوقه دون إزالته حتى أن عتبات الأبواب المؤدية إلى الشارع من بعض المنازل قد تكون أعلى من سقوف المنازل الأخرى القريبة منها ومن أسطحها، والشوارع في المدينة ضيقة ولكنها ضعف الشوارع الموجودة في تونس والجزائر على وجه التقريب ويتم نقل البضائع والحاجيات على ظهور الجمال والبغال ولما كانت المدينة غير ممهدة فإن الغبار الذي تثيره أخفاف هذه الحيوانات في المدينة القديمة الرملية والجبلية لهو شيء لا يطاق، والتجار هنا لا يعرضون بضائعهم في مخازن كبيرة ومنظمة وإنما في حوانيت وسقائف ورغم أن المحتويات المعروضة تتألف من اللآلئ والذهب والجواهر غالية الثمن

والعطور النادرة، وتشير الكاتبة إلى **سوق الرباع** وهو السوق الكبير فتصفه بأنه بازار أو سوق كبير بجانبه آخر أصغر منه يطلق عليه أهل طرابلس «**سوق اللفة**» فتقول أنه مبنى مسقوف على شكل أربع صفوف وبسطات متراصة تحوي مختلف أنواع السلع والبضائع ولها في الوسط طريق يمر منه الناس يشترون ويتفرجون وهناك أجزاء منه معتمة تقريبا تعبق منه رائحة البخور القوية النفاذة تجعل الزائر يتمنى ألا يخرج منه.

أما البازار الثاني فهو أصغر من الآخر وليس به دكاكين وإنما كان سوق يباع فيه العبيد السود والبيض والعلج «**سوق النخاسة**» ثم تعرج الكتابة على وصف **جامع أحمد باشا القرمانلي** وبابه الخارجي حيث تدفن العائلة موتاهم وهو لطيف وجميل للغاية ويفوق جميع أبواب المساجد العثمانية في هذه المدينة يرى الناظر آيات من القرآن الكريم منقوشة ومدهونة، وتتحدث عن **مسجد شائب العين** فتقول إنه قريب من هذه المساجد وله باب هو آية في الغرابة من حيث صناعة الحفر على الخشب عند المغاربة وقد توقفنا لنتفرج عليه لكننا لم نتمكن من دخوله إذ كان الوقت وقت صلاة.

وتتحدث عن بازار البن الذي لا يباع فيه سوى القهوة وهو ملتقى للأتراك الأسياد يؤمونه ليجلسوا على مقاعده الرخامية التي تظللها عرائش خضراء ومزودة بسجادات وحصر ثمينة يجلس عليها الوجهاء العثمانيين فقط يتحدثون عن الأخبار اليومية والتجارة والشؤون العامة، والحق يقال لم تترك الكاتبة توللي شيء في المدينة إلا وتحدثت عنه ووصفته وصفا دقيقا موسعا فوصفت منازل المدينة بقولها.... وسواء كان المنزل صغيرا أو كبيرا في المدينة أو القرية فإن تصميم البناء لا يختلف كثيراً حيث يستخدم الفناء لعقد اجتماعات النساء اللواتي تدعوهن ربة البيت في المناسبات مثل الزواج أو العيد الكبير أو في مناسبات الموت أوحلقات ندب الميت قبل نقل جثمانه إلى الجبانة وفي مثل هذه المناسبات تفترش الأرضية بالبسط والحصر وتظلل من حرارة الشمس المحرقة بساتر يستر الفناء بكامله، ومن العادة أن توضع وسائد حريرية ثمينة حول الفناء بينما تجلل الجدران بالسجاجيد والطنافس وتتحول تلك الساحة إلى بهو بديع، وتتحدث الكاتبة عن بعض الإنشاءات المعمارية كان في مقدمتها ذلك الخان أو الفندق الذي بنته **زوجة علي باشا القرمانلي** على حسابها الخاص !.

ثم تحدثت بدقة عن **حمامات المدينة** وكيف النساء يمتلئن بها فيغتسلن ويتزيّن كل واحدة عن طريق جواريها اللاتي يتبعنها وغير ذلك من أمور النساء، وتعود المؤلفة للحديث عن **المنشية** الجميلة ومنازلها الريفية فتقول..... وقد بدت لنا حدائق العرب في هذا المكان فإذا هي بساتين من أشجار البرتقال وكروم من شجر الزيتون ومغارس النخل ومن شأن هذه جميعا أن تخلع على المدينة منظرا مغايرا لما يجده المشاهد حيث يقترب من عاصمة أوربية حين يلطف جو اللورين والحجرات المفصلة في المنازل الريفية أحيانا بطريقة طريفة هي إسالة الماء في قناة رخامية تكون في وسط الحجرة وتكون أرضية الحجرة مكسوة بالعوارض الخشبية الملونة وسقفها منقوشا ومزينا بالفسيفساء، وتعرج المؤلفة على الوباء الذي حل بالمدينة والقحط والمجاعة اللتان انتشرا بها فتقول.... هاجم الوباء المدينة منذ شهرين فأزهق ما يقارب من ثلاثة آلاف نفس وارتهم جبانات طرابلس في التراب وكاد هذا العدد يبلغ ربع السكان ومع ذلك فإن نقمة الوباء على طرابلس تزيد الوفيات وترتفع أعدادها، وتقدم لنا هذه الكاتبة صورة بليغة موحشة على مدى ما خلفه الوباء فيها وتستطرد فيه الوصف للجثث التي بقيت في البيوت ولم تجد من يدفنها ويذرف عليها دمعة رحمة، وفي منازل أخرى بقيت جثث الضحايا ودفنت حتى أن المدينة بقيت مُقْفِرة من السكان، وأصبحت الكلاب الضالة والقطط المشردة تملؤها حتى أنك لا تجد شخصيْن يسيران مع بعضهما؛ بل حتى المتاجر والمقاهي أقفلت، وكثير من السكان هاجروا إلى تونس خوفًا من الموت والجوع والوباء اللذين كانا وحدهما موجودان في هذه المدينة، والدولة عاجزة عن فعل أي شيء ينقذ الأهالي من هذا البلاء، وكانت ضريبة هذا الجوع والوباء تدمير الوضع الاقتصادي في العهد القرمانلي الذي برزت أسباب انهياره والتعجيل بنهايته بعد أن تداخلت عدة أسباب أخرى لعلّ أبرزها الصراع على السلطة بين أفراد البيت القرمانلي وتظافر القوى الأوروبية في القضاء على عمليات الغزو البحري للأسرة القرمانلية وقوتها وهو الذي كان أهم المصادر المالية التي كان يعتمد عليها دخل الدولة كله.

وقد شهدت مدينة طرابلس خلال هذه المرحلة نوعًا جديدًا من النشاط الكشفي وحركة الرحلات الأجنبية لاكتشاف العوالم المجهولة في أفريقيا وما تحويه في بطونها من مواد خام كالذهب، والفضة، وغيرها مما يساعد أوروبا التي خرجت من ظلامها؛ وبدأت ثورتها الصناعية التي تحتاج إلى المواد الخام المدفونة في أراضي أفريقيا، وآسيا، وهو ما دفع أوروبا إلى استعمار هذه الدول ونهب خيراتها إلى حد بعيد وكان في مقدمة هذه الدول الغربية بريطانيا وفرنسا.

بداية العهد العثماني الثاني 1835-1911م :-

في سنة 1835م وبينما كان **علي باشا القرمانلي الثاني (ابن يوسف)** مقيما في قصره بالقلعة فوجئ الأهالي بالأسطول العثماني يلقي بمراسي سفنه في البحر، وظن علي باشا أن الأسطول جاء لنجدته وتثبيته في الحكم فخرج للترحيب بقائد الأسطول الذي قبض عليه وأخذه في زورق صغير وأحل محله «**مصطفى نجيب باشا**» حيث امتطى صهوة جواده واستعرض حرس الشرف ووصل إلى القلعة تحت قصف المدافع واحتفاء بتعيينه من قبل السلطان العثماني والياً على طرابلس بعد أن تلا إمام الديوان الذي جُمع أعضاءه خصيصا لهذا الغرض، وبتعيين هذا الوالي الجديد هلّ العهد العثماني الثاني، وانتهى حكم الأسرة القرمانلية بالكامل في سنة 1835م.

بعد أن شهد ميناء طرابلس في يوم 2 يونيو 1835م سفينة حربية عثمانية تقلع بعلي باشا القرمانلي وجمعًا من حاشيته إلى الآستانة، وفي 5 يوليو من نفس السنة دخل أحد ثوار الكبار الذين حاربوا الأسرة القرمانلية وثاروا عليها ليعلن طاعته للحكومة الجديدة ويقدم ولاءه وخدماته للدولة العثمانية من أجل تأكيد سيادتها ولكن الوالي العثماني لم يطمئن إلى موقف «**غومة**» المساند فقبض عليه وأودعه في السجن مما أثار حفيظة غومة على هذا الوالي الجديد فأثار ذلك في نفسه رغبة الثورة والعصيان والخروج على الحكومة التي لم تثق في عروضه وبقي في السجن حتى أفرج عنه الوالي «**محمد رائف باشا**» الذي أدرك خطأ الإجراء المتبع في حق غومة خلال سلطة الوالي السابق.

وقد بدأت أولى حركات القمع ضد الأهالي في المناطق المجاورة لمدينة طرابلس حين رفض الأهالي بالساحل تسديد الضرائب وأظهروا التمسك بالحكم الذاتي الذي كان قائما قبل عودة العثمانيين الذين جردوا حملة قوية ضد سكان تاجوراء الذين تعرضوا لأقسى أنواع القمع والإرهاب وأرغموا على الاستسلام ودفع مبالغ باهظة، وقد كان لمذابح تاجوراء أثرها في اخضاع بقية المناطق المجاورة، وقد سيطر على المدينة في هذه الأثناء جو حربي عسكري صارم تمثل في سياسة القوة التي انتهجتها الحكومة العثمانية إلى أبعد حد ممكن معبرة عن تصميمها الكامل على بسط السيادة على كامل التراب في ولاية طرابلس.

ولكن المجاعة والوباء لم يعينا الحكومة العثمانية على بسط هذا النفوذ فقد اجتاحا مدينة طرابلس سنة 1836-1837م فكان يموت في كل يوم بين 30 إلى 40 فردا من الأهالي كذلك هجر القناصل وبعض أفراد الجالية الأجنبية طرابلس إلى مالطا وإيطاليا مما اضطر «**طاهر باشا**» إلى نقل حوالى 5700 جندي إلى غريان خوفا عليهم من وباء طرابلس متظاهرًا بإخضاع تلك المنطقة، وقد كانت علاقة هذا الوالي فظة غليظة بالقناصل الأجانب في المدينة، كانت تصرفاته من الأسباب التي عجلت برحيله نتيجة الضغط الذي مارسته فرنسا على العاصمة العثمانية فغادر البلاد يوم 5 يونيو يرافقه الوالي الأسبق **محمد رائف**، وخلفه في الحكم «**حسن باشا**» رابع والي عثماني على طرابلس اتسم حكمه باللين، والتسامح، والمهادنة، والسعي لتخفيف وطأة الحكم على الأهالي وقد شعرت المدينة بشي من الراحة والإطمئنان النسبي وحاولت بشكل محدود تجاوز ظروف الوباء والمجاعة والقمع والإرهاب الذين كانوا منهج الولاة الذين سبقوه، ولم يكن هذا الوالي يجنح إلى السكون عن ضعف، ولكنه كان ينفذ خطة عثمانية ترمي إلى استمالة الأهالي واسترضاء زعماء الدواخل وتحقيق السيطرة بالطرق السلمية ويتأكد ذلك من التزام الوالي «**عشقر باشا**» الذي أعقبه بهذه الخطة السلمية في بداية عهده حيث تابع سياسة المهادنة فاتفق مع **غومة وعبد الجليل** وعمل على استغلال فرصة المهادنة بتوسيع رقعة الاحتلال والتوغل نحو القبلة حيث استولى على «**مزدة**» ولكنه فشل في معالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية وسوء التصرف في الأموال العامة فتأثرت الحالة التجارية

بالرسوم التي فرضها على البضائع مما أساء إلى العلاقة بينه وبين القناصل الأجانب ولم يلبث هذا الوالي أن واجه ثورة جديدة تزعمها **عبد الجليل سيف النصر** الذي اتفق مع **غومة المحمودي، وأحمد المريض** على تكوين جبهة موحدة ضد السلطة العثمانية، فنشطت عمليات الغزو والإغارة على المناطق المجاورة للمدينة فتعطلت حركة التجارة من الدواخل وفي سنة 1840م كانت طرابلس كلها في ثورة شاملة حاول «**عشقر باشا**» إخمادها ولكن تدخل المريض وغومة لصالح عبد الجليل أفشل جهود عشقر باشا وتمكن «**غومة المحمودي**» من الانتصار على القوات العثمانية وقتل منها ما يقارب من 400 محارب وشهدت المدينة مقتل سبعة من شيعة عبد الجليل وأقاربه انتقاما لمقتل «**عقيد عثماني**» الذي أسره سيف النصر أثناء زحفه على بني وليد ومصراته، وهكذا سجلت سياسة المهادنة فشلها ودخلت البلاد في فترة جديدة من الاضطرابات كان لها أسوأ الأثر على أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية، فتصاعدت إثر ذلك جبهة المقاومة وقتل عدد آخر من الزعماء الوطنيين وأمكن للعثمانيين بعد سبع سنوات من حكمهم الجديد السيطرة على بعض المناطق الداخلية والاستيلاء على فزان، ولكن لم يمكن هذا الاستقرار النسبي من تحقيق أي شكل من الرخاء الاقتصادي للمدينة لان الولاة المتعاقبين لم يهتموا بهذا الامر بقدر اهتمامهم بما يجنونه من أموال لمصالحهم الشخصية وما يجنونه من ضرائب من الجمارك و القوافل وتجارها وغير ذلك مما قام به أسلافهم.

ثورة الجبل الغربي[1]

وفي 15 يوليو 1842م حل بطرابلس الوالي الجديد «**محمد أمين باشا**» الذي أظهر تسامحًا في مستهل عهده حيث أطلق سراح المعتقلين، واستقدم غومة بواسطة **مصطفى قرجي** (عثماني آخر) وأكرمه ومنحه لقب «**قبوجي باشا**» وولاه عضوا بمجلس الإدارة وزاد في إكرامه وساعده في الاستيطان في طرابلس بأهله وحضر إلى طرابلس في 17 اغسطس 1842م، ولكنه مالبث أن اعتقل من جديد بأوامر من الآستانة حيث

1 لمزيد من التفاصيل عن هذه الثورة ينظر: محمد امحمد الطوير ثورة غومة المحمودي.

نقل إليها على ظهر سفينة ومنها إلى منفاه إلى طرابزون بالبحر الأسود، وتمشيا مع السياسة الصارمة التي انتهجها العثمانيون من بسط نفوذهم على المناطق خارج المدينة تحركت في 1843م، منتصف مارس قوة عثمانية قوامها ستة آلاف جندي غير نظامي و3 آلاف جندي نظامي نحو الجبل الغربي الذي شهد خلال هذه الفترة عمليات حربية وإرهاب وتقتيل وسلب واسعة النطاق لم يعرف لها الجيل مثيلاً من قبل حيث غالى في قمعهم للأهالي والعدوان عليهم فنقلوا إلى المدينة قوافل الأسلاب والغنائم والأسرى والسّبايا من الأرامل والأطفال وتمكن قائد الحملة **أحمد باشا** الذي فعل ذلك في هذه الأثناء من احتلال مدينة غدامس في يوليو من نفس العام.

ويقول المؤرخ النائب أن **أحمد باشا** القائد لهذه الحملة قد اكتسب بما ظفر به في هذه الحملة نفوذا بين الأهالي لم يبق للوالي معه إلا الاسم فقط، وقد طالت مدة ولاية أمين باشا وقائده أحمد مدة طويلة أنهاها الصراع على السلطة الذي وقع بينهما مما اضطر السلطان العثماني نقلها إلى الآستانة وإرسال والٍ جديد هو «**محمد راغب باشا**» الذي لم يبق في الحكم سوى عامٍ واحد كان حافلا بالقلاقل والاضطرابات التي نشأت عن سوء الحكم والإدارة مما أدى إلى انتشار الثورة، وقيام الوالي بتوجيه حملة جديدة بقيادة «**بكر باشا**» تتكون من اثنى عشر ألف جندي غير نظامي وأربعة آلاف جندي نظامي، وثلاثة آلاف وخمسمائة مشاة، وخمسمائة فارس تسندهم بطاريات مدفعية وتحركت هذه الحملة الكبيرة من مدينة طرابلس يوم 22 ديسمبر نحو غريان والمناطق الجبلية.

وقد وجدت هذه القوات صلابة من الثوار في الجولات الأولى مما أغضب القوة العثمانية فلجأت إلى التخريب والتدمير والسلب والاغتصاب وإعادة تطبيق الأسلوب الهمجي الذي نفذه في السابق صنوه أحمد باشا حتى اضطر الناس إلى النزوح إلى تونس هربًا من بطش الجند وجورهم.

وقد زار خلال هذه الفترة المدينة الرحالة الألماني الشهير «**بارت**» حيث سجل انطباعاته عنها ركز فيها القول على أهمية هذه المدينة كنقطة انطلاق لأقصر طريق نحو أوسط أفريقيا التي كانت موضع اهتمام الكشف الأوروبي في ذلك الحين، تحدث في

رحلته على موقعها الجميل، وعدم وجود الأعمال العمرانية البارزة ماعدا المسجد الذي بناه أحمد باشا القرمانلي وتحدث عن التجارة التي تربط هذه المدينة بتجارة القوافل بينها وبين أواسط أفريقيا كما تحدث عن عدد السكان فيها بما في ذلك اليهود الذين يبلغ عددهم من ثلاثة عشر ألفا إلى أربعة عشر ألف وهم ينصرفون للتجارة وصناعة الذهب والفضة وذكر من الآثار القديمة قوس ماركوس اوريليوس وبعض الانطباعات الأخرى ليست محل اهتمامنا.

وفي عام 1848م وصل إلى طرابلس الوالي الجديد «**أحمد عزت باشا**» الذي تميز عهده بمعارضة التغلغل الأوروبي والوقوف في وجه المطامع الأوروبية، لكنه نقل هو الآخر بعد اصطداماته المتتالية مع القناصل الأوروبيين الذين كانت لهم مطامع في البلاد وخاصة قنصل فرنسا «**دي بالبير**».

وفي عام 1851م وصل أسطول فرنسي من تسع بواخر بحرية بقيادة نائب الأميرال **دي لاسوس** أحاطت بطرابلس ولم يخضع **خالد باشا** قائد الأسطول العثماني ومعه الأهالي والدواخل واستعدوا لحربهم، ولكن الباب العالي اضطر إلى ترضية فرنسا بعزل **أحمد عزت باشا والدّفتردار أمين أفندي**.

وفي هذا الوقت وفي شهر سبتمبر من نفس السنة تعرضت المدينة إلى وباء الكوليرا بعد وباء الطاعون السابق ذهب بأرواح عدد ثمانمائة شخص من مدينة طرابلس وحدها التي كان لا يزيد عدد سكانها في تلك الفترة عن خمسة آلاف نسمة فقط بعد الهجرة إلى تونس ومالطا من قبل السكان في الوباء الأول، وفي 14 يوليو 1855م وردت الأنباء تحمل هزيمة العثمانيين من قبل قوات غومة المحمودي وأنصاره بمنطقة (**الرومية**) حيث باغتوا القوات العثمانية وهاجموها حتى ولت الأدبار وغنم غومة جميع مدفعيتهم العثمانية وذخائرهم وخزينة الحملة وأسر قائد الحملة «**اسماعيل بك**» الذي كان قوام جنوده ثمانية آلاف رجل وقد عانت السلطات العثمانية من ألم الهزيمة التي كان الموقف الحاسم فيها لورشفانة التي انقلبت على الجند في مؤخرة الحملة، واضطر الوالي الجديد «**مصطفى نوري باشا**» أن يجرد حملة قوية ضد ورشفانة لمعاقبتها على غاراتها وغزواتها وموقفها من

الحملة في الرومية وخرجت الحملة التي تتكون من 4000 جندي يوم 22 سبتمبر عام 1855م، وتوجهت إلى جنزور حيث جرت المعركة في نفس اليوم وانتصر فيها العثمانيون وتمكنت من السيطرة على الشريط الساحلي حتى زوارة ولم تفلح نجدة غومة في صد هذه الحملة.

حسم الصراع مع غومة المحمودي ووفاته:

كان **غومة** منفيا في طرابزون على البحر الأسود واستطاع الفرار والالتجاء إلى تونس ومنها دخل إلى جبل نفوسة حيث أعاد إشعال الثورة، وفي أكتوبر 1855م وصل إلى طرابلس الوالي الجديد عثمان باشا وكانت الثورة قد شملت ورفلة ولم تعد تحت سيطرة الوالي سوى المنطقة الساحلية الغربية وقسم من الجفارة، درس هذا الوالي الجديد أحوال البلاد والثورة المستعرة فيها ولم ينس الثائر الكبير غومة المحمودي وما ألحقه بالسلطة العثمانية من هزائم متلاحقة ولا سيما الهزيمة المنكرة التي ألحقها بالجيش في الرومية أو في دعمه للثورات التي يقوم بها الزعماء المحليين بالسلاح والمؤن للوقوف ضد جبروت وظلم الولاة الذين ألحقوا بالقوة الوطنية القتل والتنكيل والغزو بجميع المناطق الداخلية للبلاد، كما لم ينس غومة من قبل الفظائع التي ارتكبها الجند بأهل الدواخل في الجبل الغربي، وتاجوراء، وورشفانة من مذابح وسلب ونهب وسبي للنساء والأطفال والشيوخ فعقد الوالي العزم على انتهاج السياسة للمهادنة التي هدفها «فرق تسد» بين زعماء القبائل واستخدم سلاح الفتنة لاستمالة بعضهم للانشقاق عن غومة المحمودي والعمل على الظفر به وقد ساعد هذا الوالي الحالة التي كانت تسود البلاد نتيجة الحروب المستمرة وما صاحبها من عمليات قمعية وجوع وأوبئة مما أدّى بالفعل إلى نجاحه في تخلي الكثير من الزعماء عن غومة ونفض اليد منه والخضوع للسلطة العثمانية.

وقد سمح لغومة بالإقامة في تونس شريطة الامتناع عن التدخل في شؤون طرابلس الغرب، ولكن غومة لم يحافظ على عهوده فلجأ إلى الجنوب التونسي وأخذ يجند الأعوان لخلق المتاعب للسلطة العثمانية وقد ظل يفعل ذلك طوال سنتين (1856-1857) الأمر الذي اضطر باي تونس **محمد الصادق** إلى إصدار تعليماته بملاحقته وطرده من

التراب التونسي فاتجه من جديد إلى إثارة أهالي جبل نفوسة وظهر قرب نالوت 1858م بأربعمائة من رجاله، ولكن الوالي **عثمان باشا** قرر حسم الصراع مع غومة بعد أن علم بسوء حالته العسكرية فوجه له في 4 مارس 1858م حملة تتكون من ثلاثة آلاف مسلح بين نظامي وغير نظامي بقيادة «**أحمد أدغم**» لاغا مصراتة حيث تمكن من مفاجأته والقضاء عليه عند منطقة (أوال) في مارس 1858م.

وقد سجل موت غومة نهاية لمرحلة من الزمن استمرت ما يقرب من عشرين عاما من النضال الوطني والكفاح المسلح من أبطال وطنيين دافعوا عن وطنهم وعرضهم وأهلهم ضد فساد وهيمنة سعت إلى استغلال موارد البلاد وسرقتها عن طريق الولاة الذين أُرسلوا لحكم البلاد فأثروا وسرقوا ونهبوا، وقتلوا أهلها، ولم يتركوا فيها سوى الخراب والدمار.

ثم نقل «**عثمان باشا**» إلى الآستانة بعد أن نفذ مهمة من أصعب المهام التي كافأه عليها السلطان العثماني بسيف مرصع بالجواهر من جانبيه، يقدر ثمنه بعشرين ألف ليرة من الذهب الخالص، كما دُوِّن.

وحل محله «**الحاج أحمد عزت**» الذي كان معروفا بروحه الدينية حيث وصفه المؤرخ النائب «بأنه كان عالما نبيها صافي السريرة متوشحًا بالصبر»، ولكن الوثائق القنصلية تصفه بالتزمت الجامد وتذكر الوثائق بأنه كان سيء الإدارة وأن التجارة قد أصيبت بالشلل خلال ولايته كما كان للإجراءات القمعية التي اتخذها لاستيفاء الجبايات المتأخرة في برقة أثرها في اشعال الثورة ضده مما كان له مع زيادة التذمر من الأهالي أسوأ الأثر على حكمه مما اضطر الآستانة إلى عزله وتعيين «**محمود نديم**» بدله في أغسطس 1860م.

ويذكر النائب أن من أعماله إنشاء البريد، وطالت مدة هذا الوالي سبع سنوات شهدت البلاد خلالها فترة من الهدوء والأمن والاستقرار وحسن الإدارة أشاد وفد الأهالي بسيرته لما أظهر من اهتمام بتطوير الاوضاع العامة في البلاد من أهمها الاهتمام بزراعة

الزيتون في الدواخل وإنشاء المحاكم المدنية، الجنائية والتجارية، وإنشاء مطبعة كما صدرت في عهده أول جريدة بطرابلس باسم «**طرابلس الغرب**» التي كانت تصدر باللغتين العثمانية والعربية 1866م، وفي عهده شهدت المدينة احتراق مخزن البارود، وفتح باب جديد للثغر من الجهة الغربية لتعمير تلك الجهة وتسهيل المواصلات بين سكان المدينة وأهل المنشية والقرى المجاورة لها، كما حارب بعض العادات السيئة التي كان بعض السكان يقومون بها في عاشوراء حيث كانوا يحملون شبه رأس الجمل ويدورون به في أزقة البلاد وحواريها وهو ما سماه أهل البلاد فيما بعد «بالجمل قطع قياده الجمل خش لعلها الحمادة» بعد أن يدورون على الدكاكين والأسواق «**بالشيشباني**» نهارا ويخرجون **برأس الجمل** ليلا.

وقد أشاد بشخصية هذا الوالي أهل البلاد والبعثات الدبلوماسية على حد سواء نظرًا لما كان عليه من تسامح وبعد نظر في معاملة أهل البلاد وغيرهم من الأجانب وقد استدعته الآستانة ليرقى إلى عضو في أحد المجالس السياسية فغادر طرابلس في 30 يوليو 1867م.

وحل محله الوالي الفريق «**علي رضا باشا**» الذي جمع بين الولاية والقيادة وسار في الحكم على نهج سلفه فاهتم بتطوير الولاية وتحسين أحوالها فاهتم بتسوية الطرق والمعابر في داخل المدينة وخارجها، ونظم البريد ومد أسلاك التلغراف برًا من مركز الولاية إلى منطقة الخمس، ومصمّمًا على إيصاله إلى الحدود التونسية، وشجع الأهالي على حفر الآبار الإرتوازية فأخرج عينا للماء سماها «**سبيل**» وأسس سوق العزيزية والحديقة العمومية وأنشأ الساعة التي لازالت قائمة حتى الآن بميدان الساعة أمام سوق الترك وتعتبر من المعالم الأثرية الجميلة في طرابلس، وقد كان لهذا الوالي جميل الأثر على الحركة العمرانية بالمدينة.

طرابلس كما وصفها الرحالة في العهد العثماني الثاني:

زار العديد من الرحالة طرابلس في هذه الفترة ففي عهد **عثمان باشا** خص الرحالة الألماني الشهير «**نختيجال**» طرابلس بزيارة وشيء من الوصف قال فيه: إن اهتمامه كله موجّه نحو «بورنو والمواقع الوسطي من أفريقيا» التي كان يقصدها، ولكنه كغيره من الرحالين الذين أخذوا بمنظر المدينة الجميل الذي تتألق فيه أشعة شمس الصباح فتغمر قلعتها ومآذنها وقبابها، وجدران منازلها البيضاء وأشجار نخيلها الباسقة المنتشرة هنا وهناك فتضفي عليها مزيدًا من البهجة والسرور، غير أنه يعود لينبه الزائر الوافد إلى مثل هذه المدن الشرقية بأنه سيصاب بخيبة أمل عند دخوله إلى بعض شوارعها حيث يصادف القذارة، والدّمار، والخراب لا تمثل في رأيه مدينة طرابلس استثناء عن المدن التي مثلها وفي البلدان الأخرى.

ويصف الرحالة (باب البحر) والحياة النشطة التي تقوم حوله بمقاهيه المتعددة، وألوانه المختلفة ويقول إن مظاهر الحياة الاجتماعية في طرابلس تتمثل في هذا الحي المليء بالحركة والنشاط فهناك المقاهي بروادها من مختلف الأجناس، ودكاكين الحلاقين، ومتاجر المالطيين الصاخبة، ونشاط التجارة البحرية حيث يتفرع من باب البحر شارعان كبيران أحداهما يحاذي الشاطئ حيث تقع أجمل المباني على امتداده، ويسكنها التجار والقناصل ويعني به شارع درغوت وأما الشارع الآخر فيعبر وسط المدينة، ويقول أن هذين الشارعين نظيفان ومرصوفان وخاليان من الأوساخ والمهملات.

ويصف شارع درغوت بأنه مطل على البحر حيث يتخذ الوجهاء والأعيان مجالسهم لتمضية أوقات الفراغ والتطلع إلى حركة الأسواق والمتاجر القريبة كما يصف ميدان الساعة بأنه يمر عبر طريقين متوازيين إلى البابين الجنوبيين، باب الخندق ويعني به قرب القلعة، وباب المنشية ويعني به مواجهة ميدان سيدي حموده (ميدان الشهداء حاليا).

ويتحدث عن القلعة، فيصفها بالحصن الحصين رغم تعاقب الزمن عليها وتقوم في ساحتها الداخلية بعض المباني المخصصة للوالي وحاشيته، والشوارع التي تؤدي إلى باب المنشية يوجد بها باعة الخضروات والمصنوعات التقليدية اليدوية بالقرب منها تباع المنسوجات الصوفية والأردية الوطنية والأغطية الملونة والبرانيس المستوردة من تونس وبلد الجريد وجربة حيث استقر الكثير من أبناء هذه الجزيرة بطرابلس واستوطنوها كما يصف سوق الترك بأنه من أنظف الأسواق وأكثرها ترفا حيث يبيع التجار العرب والعثمانيين بضائعهم في متاجر صغيرة ويتحدث عن سوق التارزية وسوق الحرارة حيث يقوم اليهود بخياطة وبيع الأنسجة المختلفة فيه، ويشير إلى أن المترفين من سكان المدينة يقيمون في هذا القسم من المدينة في بيوت تشبه إلى حد بعيد بيوت تونس من حيث التصميم، ومن هذا الحي ينطلق إلى حومة غريان ومنها إلى الباب الجديد وهو الباب الوحيد الذي يؤدي إلى الدواخل، وإلى الشرق منه يقع الحي اليهودي «الحارة الصغيرة» التي يتفق هذا الرحالة مع غيره من الرحالين الذين زاروا هذا المكان في التنديد بهذا الحي وضجيجه، وقذارته، وروائحه النتنة، وشوارعه الضيقة، وإلى جانب الحارة يمتد الحي الإسلامي «باب البحر» حيث تقيم الجالية المالطية التي تركت طابعها واضحا على جيرانها وقد توفر هذا العنصر بكثرة في مدن الساحل الشمالي الأفريقي وهم مرتبطون بأوثق الوشائج مع المسلمين حتى أن النظرة إليهم بأنهم كانوا مسلمين أفسدهم الدم المسيحي.

ويستطرد «**نختيجال**» القول في وصفه للمدينة بأن ليس بالمدينة شوارع واسعة بينما لها أزقة عديدة وشوارع ضيقة ذات أقواس، ويقدر هو وغيره من المصادر الموثوقة عدد السكان بعشرين ألفا، ويقول بأنه إزاء تزايد عدد المسيحيين في المدينة فضل السكان الإنسحاب إلى المنشية وشكلوا فيها منطقة خاصة بهم، ويتحدث عن السروال الليبي الذي كان يسمى «**بالفارسي**» ولم يعجبه، وفضل عليه السِّروال التونسي الفضفاض القصير، وتحدث عن «**الحولي**» ويقول وإن أحسن أنواعه «**الجريدي**» الذي يتقن أهل الجريد في تونس صنعه.

ويتحدث عن اليهود فيقول:- إنهم يقاربون ربع سكان المدينة وينتقد محل سكناهم وقذاراتهم ويشيد بنظافة يهود تونس عليهم ويقول إن يهود طرابلس لا يختلفون عن بني ملتهم في تونس من حيث تضامنهم ومساندتهم لبعضهم بعضًا، ويتحدث عن العنصر الأسود في المدينة فيقول إنه أكثر مما في تونس، وتحدث عن الجالية المسيحية التي أغلبها من العنصر المالطي الذي يمثل أشد العناصر إيمانا وتعلقا وحماسا للبعثة الكاثوليكية.

ويضيف بأن المالطيين يفدون على بلدان الشمال الأفريقي فقراء وما يلبثون إلا سنوات قليلة حتى يفلحوا في جمع ثروات طائلة بسبب نشاطهم وجديتهم وذكائهم حيث يختصون بمزاولة التجارة، والزراعة، والملاحة البحرية، وتربية الماشية كما يشتهرون بكثرة إنجاب الأطفال ويمثلون الطبقة الراقية الأوروبية في المدينة.

ويلتقي رحالتنا «**نختيجال**» برحالة ألماني آخر يدعى «**رولفس**» الذي كان مقيما في أحد بساتين المنشية ويحيط به مجموعة من الحمير التي كان يستخدمها في تنقلاته نظرًا لقلة الخيول أما العربات فكانت شائعة في ذلك الوقت حتى قامت شركة مالطية باستيراد بعض المركبات التي تجرها الدواب لاستعمالها في الأغراض الرسمية واسمها «**الكاليص**»، وبيوت المنشية كما يصفها الرحالة بأنها فخمة وتشبه البيوت التي تزين منطقة الضواحي في الجزائر ومنطقة منوبة بالمرسى بتونس.

ويتحدث الرحالة عن شخصية «**علي القرقني**» شيخ البلاد وسيطرته على الحياة السياسية والاقتصادية وما يتحدث به الناس عن نفوذه الواسع وابتزازه وخوف الناس منه وكراهيتهم له، وتشكل شهادة «**نختيجال**» وثيقة هامة في ملف شخصية «**القرقني**» التي هيمنت على مصير المدينة نتيجة حماية الوالي «**علي رضا باشا**» له مما أتاح له أن يكون من أكبر الملاك بها إذ كان يملك عدة بواخر خاصة به تعمل بين طرابلس ومالطا تحمل كل عام الهدايا إلى كبار رجال الآستانة كرشاوي للمسؤولين بها حتى أنه لم يحدث أن ابتز شيخ المحلة رئيس بلدية طرابلس 1870م بلاده بمثل هذه الطريقة مما ألب الناس عليه وزادهم حقدًا عليه وعلى الموظفين والقضاة الذين كانوا له عملاء وصنائع.

وحيث أن ما نكتبه في هذا البحث مصدره الوثائق التي كتبها مجموعة من الرحالة الذين زاروا طرابلس للإنطلاق منها إلى أواسط أفريقيا فأقاموا بطرابلس وكتبوا عن حياتها في مختلف الأطياف نجد أنفسنا مضطرين أن نذكر بعضهم على الترتيب الزمني.

فالرحالة «**س. هـ. ديكسون**» الذي اتخذ من طرابلس نقطة انطلاقة نحو (**غدامس**) والمناطق الجنوبية، ثم الرحلة التي قام بها الراحلون الثلاثة «**رشارسون، واورفيج، وبارث**» في بداية 1850م، ثم الرحلة التكميلية التي قام بها الرحالة الألماني «**فوجل**» سنة 1852م ثم رحلة البعثة الفرنسية سنة 1862م ثم رحلة الرحالة الألماني «**بارث**» إلى طرابلس في ديسمبر 1864م وعودته إليها سنة 1865 ثم رحلة «**نختيجال**» الألماني 1869م ثم رحلة الهولندية «**ألكسندرا**»، ثم رحلة «**البارون أتريكو فون ملتزان**» 1869م وقد أمضى فترة محدودة في مدينة طرابلس وجمع معلومات وافرة عنها ثم رحلة الدكتور «**ارفن فون**» سنة 1875م وفي سنة 1880م، وصل إلى مدينة طرابلس الرحالة الإيطالي «**كمبيرو**» صاحب مجلة (**المستكشف**) الإيطالية التي تصدر بميلانو ومؤسس جمعية الاكتشافات التجارية في أفريقيا (**مانفريدو**) مواصلا الحلقة التي بدأها بعض بني جلدته في أوائل القرن والتي انقطعت حلقاتها لمدة ستين عاما ليكمل مشوار ما جمعوه من معلومات عن المدينة حيث بدأت إيطاليا تضع الخطوط العريضة لاستعمار ليبيا، وقد كان هذا الرحالة من غلاة الدعاة إلى الاستعمار الجديد.

بإلى طرابلس لينطلقوا منها إلى أواسط أفريقيا أو ليطلعوا على الحياة فيها ويسجلوها ليس من أجل عيون شمسها الدافئة أو كيف يعيش شعبها وإنما لتحقيق أهداف دولهم في الاستعمار ووضع اليد والاستعباد الجديد للشعوب الجاهلة الفقيرة التي تملك أرضها الذهب والفضة والمواد الخام التي تحتاجها مصانعهم لاسيما وأنهم قد بدأوا يخططون لهذه البلدان بشتى الوسائل والطرق تمهيدا للقفز عليها واصطيادها فاستعملوا هؤلاء الرحالة كما استغلوا البعثات المسيحية التبشيرية لتنصير هذه البلاد وإن كانوا قد فشلوا في تنصير الدول الإسلامية التي رفض أهلها التخلي عن دينهم ورغم كل المغريات واضطهاد الحكام المسلمين لهم وحمى الله المسلمين من كيدهم.

وصف هذا الرحالة الاستعماري طرابلس فاعترف بنظافة شوارعها وقال إنها أنظف من شوارع تونس والقاهرة اللتين زارهما من قبل حلوله بطرابلس، ووصف مقر القنصلية الإيطالية بباب البحر القريب من الكنيسة بأنه بائس لأنه ليس على واجهة البحر مثل مقرات قناصل فرنسا بريطانيا واسبانيا، ومن الجدير بالتنويه أن منطقة باب البحر تمثل الحي الدبلوماسي لدول العالم ودليل ذلك أن أسماء الشوارع به لازالت حتى الآن تحمل أسماء قنصليات الدول الأوروبية.

وقد قام الرحالة الاستعماري بزيارة النادي اليهودي الذي يرأسه أحد تجار اليهود الكبار ويدعى «**أربيب**» وهو مركز لتجمع الطبقة الرأسمالية من اليهود والأجانب وموظفي القنصليات الدبلوماسية فيقول:- ان العناصر اليهودية الذين أغلبهم من رعايا إيطاليا هم الغالبون فيه، ويرى أن إقامة نادٍ أكبر يمكن أن يستوعب اليهود والعرب والمسيحيين الذين هم في حالة عداء دائم هو أمر يؤثر تأثيرا خطيرا على تطور التجارة والصناعة وفقدان روح التعاون والتضامن بين هذه الفئات المتعادية ونكشف من خلال أحاديثه الكثيرة عن العناصر اليهودية البارزة وذلك الدور اللّاأخلاقي والخطير الذي لعبته هذه الفئة اليهودية في التمهيد لحركة الاستعمار الإيطالي لليبيا فقد اهتم اليهودي «**أربيب**» بتزويد هذا الرحالة بما يملكه من معلومات موسعة على حياة الليبيين والعثمانيين من كافة النواحي كما أن التكريم الذي قدمه اليهودي (رئيس النادي) والتسهيلات التي وفرها له منقطعة النظير في علم الجوسسة والخيانة التي عرف بها اليهود في العالم كلّهِ.

وجملة القول أن مهمة الرحالة «**كامبيرو**» كانت تقتصر على كتابة التقارير التي تفيد الجهات الإيطالية الأمنية والسياسية عن طرابلس.

وعاد «**علي باشا**» إلى ولاية البلاد عام 1872م بعد أن حكمها من قبل بين عامي 1867- 1870م وأجرى فيها العديد من الإصلاحات السياسية والاقتصادية آنذاك ولكنه لم يلبث فيها سوى عام واحد ورحل ليخلفه في الحكم «**مصطفى عاصم باشا**» الذي ألقى البحر في عهده على شاطئ الهنشير حوتا عظيما طوله ستين ذراعا وعرضه عشرة أذرع لم تمكنه المياه من العودة للبحر فهرعت إليه الناس من كل مكان

فقطعوه وأخذوا منه كل ما يلزمهم ثم إن الوالي أمر بجمع عظامه وأرسلت إلى الآستانة.

وقد جاء بعده الوالي «**محمد حالت باشا**» فواجه على الفور ثورة الأهالي ضد «**علي القرقني**» كما واجه حالة الجذب والمجاعة التي حلت بالبلاد نتيجة إمساك الغيث ونقص في الأموال والثمرات فارتفعت أسعار الحبوب فعجز الناس على الحصول على القوت فتفشى فيهم المرض والموت ولم يحصلوا على ما يأكلونه سوى «الجزر» السفناري وعرف ذلك العام بعام الجزر لأن أغلب قوتهم منه.

ثم عاد إلى الولاية الحاج « **أحمد عزت باشا** » فعمل على تشجيع العمران في المدينة واهتم بتطويرها وأنشأ بعض المعالم البارزة بها مكتب الفنون والصنائع، ومستشفى الغرباء، كما أصلح ما تهدم من الحصون والقلاع، وأسس سوق الحميدية (هو شارع 24 ديسمبر الآن).

وخلفه «**محمد نظيف باشا**» الذي اهتم بإنشاء بعض الاستحكامات في الأماكن المهمة ورمم الحصون كبرج التراب وسانية الباشا ووضع فيها بعض المدافع الجديدة التي وردت من الآستانة.

وجاء الوالي «**أحمد راسم باشا**» الذي صرف جل اهتمامه بالتعرض إلى الإستيطان الاستعماري في المناطق الزراعية المحيطة بالمدينة ودواخلها، ولابد هنا من الوقوف عند عهد هذا الوالي الممتاز الذي كان من أبرز الولاة العثمانيين الذين تعاقبوا على البلاد وفعل من الانجازات ما عجز عنه الكثيرون من السابقين له بحكم كفاءته وإخلاصه ومؤهلاته بحكم الفترة الطويلة التي أتيح له أن يقيمها في الولاية والتي مثلت في ذاتها ظاهرة فريدة في تاريخ الولاة حيث مثلث خرقا للسنة التي كانت تقضي بتغيرهم في فترة قصيرة، وقد واجه هذا الوالي منذ بداية حكمه ظروفا صعبة تمثلت في تلك الأوضاع الناتجة عن احتلال فرنسا لتونس وإنجلترا لمصر وانشغال المواطنين الليبيين بهذين الحدثين الخطيرين وما كان وراءهما من نذر تنبئ باحتلال البقية الباقية من الرقعة الإسلامية في الشمال الأفريقي، وقد أحسن الشعب استقبال إخوانه التونسيين النازحين هروبا من وطأة الاستعمار الفرنسي

وقدم لهم العون للاستمرار في الكفاح ضد المستعمر الغاشم الجديد كما اتخذ موقفا من السلطة العثمانية الغاشمة التي عملت على إعادة هؤلاء النازحين إلى بلادهم.

وفي هذه الأثناء نشطت الحركات الاستعمارية وتكاثرت أطماع الدول الأجنبية وازدادت حركة القناصل المعنيين بهذه البلاد مما اضطر الوالي «**أحمد راسم باشا**» إلى الوقوف في وجههم والحد من تصرفاتهم التي تجاوزت الحدود، وقد كان قنصل، إيطاليا الذي اتضحت نواياه تضامنا مع بلاده التي أعلنت عن أطماعها في ليبيا بعد سقوط تونس من أكثر القناصل تحرشا بحكومة الولاية سعيا لخلق المشاكل لها لكي يبرر تدخل دولته لحماية حقها المزعوم في هذه البلاد، وفي هذه الأثناء بدأت المصالح الاستعمارية الإيطالية تشجع الهجرة وتشجع بعض العناصر الإيطالية تمهيدا لإنشاء شبكة من المصالح الاقتصادية التي تمهد لهم سبل التدخل السلمي والحربي في المستقبل.

وقد عمل «**أحمد راسم باشا**» على تفويت الفرصة على الأطماع الاستعمارية وخاصة الإيطالية منها التي كانت تتذرع بالعمل على وقف تجارة الرقيق التي كانت تشكل عنصرا من تجارة القوافل القادمة من أفريقيا عبر طرابلس فعمل الوالي على إصدار مرسوما يحرم هذه التجارة وشدد على معاقبة من يزاولها بل ومعاقبته بأقسى العقوبات المادية التي ترقى إلى السجن بعد أن كانت مشجعة من قبل السلطات العثمانية التي كانت تجني منها الأموال الكثيرة وذلك لكي يقطع خط الرجعة على ذرائع القوى الاستعمارية وفي مقدمتها إيطاليا التي تهدد بالتدخل لقطع دابر هذه التجارة اللا إنسانية والتي حرمتها أوروبا وبعض الدول الأخرى نظرا لبشاعتها ومناهضتها لحقوق الإنسان.

وإزاء ذلك شهدت المدينة حماسا زائدًا في الدعوة إلى تحصين البلاد، وتجهيزها ضد الأخطار الأجنبية المتوقعة، وقد اهتم الوالي «**أحمد راسم باشا**» بهذه الناحية بمساعدة الفريق «**زكي باشا**» الذي عين خصيصا لتحسين الأوضاع الدفاعية وانشاء استحكامات في نقاط مناسبة بداخل المدينة وخارجها، وقد شارك الأهالي عن طيب خاطر في هذا العمل الذي يحمي بلادهم وأسرهم بل تطوعوا في نوبات للغفارة وحراسة هذه الاستحكامات.

كما شهدت ولاية «**أحمد راسم باشا**» اهتماما بنمو المدينة وتطويرها وتحسين أوضاعها فبدأ البناء خارج أسوار المدينة القديمة التي كانت أرضا بورا لا بناء فيها سوى سوقي العزيزية والحميدية وكلما حل الاطمئنان والراحة والرقي واتساع التجارة اتسعت رقعة بناء المنازل والمتاجر وما تابعها من خدمات تفيد الأهالي.

يقول المؤرخ النائب أن الوالي قد أمر بتبليط شوارع المدينة وأزقتها وأنشأ مجار للمياه تحت هذا البلاط تصب الزائد عن الحاجة الأهالي في البحر، ومن أهم مشاريع هذا الوالي أيضا توصيل مياه أبومليانة لتيسير وصول المياه إلى الناس فأمر بزيادة حفر هذه البئر وتنظيفها وإتقان بنائها من الداخل وتعميق مياهها ثم أوصى بجلب آلة رفع المياه منها من أوروبا وأمر بصنع خزان كبير لحفظ المياه، ومدَّ من الأنابيب ما يقارب 2500 مترا جيء بها من أوروبا أيضا ومدت منها المواسير حتى وصلت لمحاذاة القلعة بين الخندق وباب المنشية.

كما أنشأ هذا الوالي مستشفى للغرباء عام 1883م فوق أساس فندق قديم قرب باب البحر وبناه على ثلاث طبقات وبه مئة وخمسون سريرا ولا زال أثره موجوداً حتى الآن بالقرب من الزاوية الصغيرة (سيدي يعقوب)، وبني مستشفى آخر في عهد «**نامق باشا**» في شارع ميزران أصبح الآن مدرسة علي حيدر الساعاتي.

كما تم في عهد «**أحمد راسم باشا**» بناء الرصيف الذي عرف باسم (رصيف سوق الثلاثاء) وهو حاجز من الإسمنت المسلح يمتد من تحت سور البلدة إلى مرسى الحلفاء (**سقالة الحلفاء**) وطوله 755 متراً ويبدو أن موقعه يطابق الكورنيش الحالي وكان الغرض منه حماية هذه المنطقة وأسواقها ومتاجرها من هيجان البحر، كما أنشأ برج الساعة بالمدينة.

وعلى العموم فإن الأثر العمراني الذي خلفه أحمد راسم باشا على المدينة كان واضحًا في كثير من المشروعات الهامة والمفيدة، ولا شك أن إنجازاته هذه تضعه ضمن الولاة الكبار الذين تقدموه في العهود السابقة أمثال «**مراد آغا**»، و«**درغوت باشا**»،

و«**محمد وعثمان الساقزلي**»، و«**محمد شائب العين**»، و « **أحمد باشا القرمانلي**» ممن خلفوا طابعهم الخاص في الحياة الخاصة والعمرانية مع اهتمامهم بالمرافق والشؤون الزراعية، والإقتصادية والمالية والإدارية والتعليم الذي شهد في عصره قفزة نوعية ونشاطًا ملحوظا يتجلى أثره في التصدي للثقافة الأجنبية التي ازدادت قوة وانتشارًا وتمهيدًا للاحتلال الأجنبي الذي بدأ يلقي بظلاله على البلاد.

يمكننا القول أن عهد هذا الوالي كان عهد صراع للتيارات والمطامع الأجنبية والمشاكل الداخلية، وانبعاث لليقظة القومية بين صفوف الشعب مع قيام بعض الحركات السياسية التي شغلت الرأي العام الذي كان يتابع بحذر ويقظة ما كان يجري في بلد الجوار من مطامع أجنبية، وخاصة بعد احتلال فرنسا لتونس وإنجلترا لمصر.

وقد زار طرابلس أحد الرحالة التونسيين يدعى (**الحشائشي**) فأعطى لمحة عن طرابلس في زمن الوالي «**أحمد راسم باشا**» فاختار منها ما لم يأت عليه غيره من الرحالة السابقين من وصف فقال:-

طباع أهل طرابلس تميل إلى البداوة أكثر منها إلى الحضارة لكنهم على كمال بشري في أنفسهم وأغلبهم يميلون إلى العمل بالتجارة ولهم متاجرة كبيرة مع السودان، وبرنو، ووداي، والشاد، وغات وغير ذلك وهم لا يميلون للغرباء في أول الأمر ثم تحققت بعد ذلك أنهم إذا عاشروا الغريب أكرموه واعتبروه كأنفسهم.

أما العلوم والمعارف العصرية فلا توجد عندهم بل لا يشمون لها رائحة ولا يوجد عندهم علماء أعلام من فقهاء الإسلام ما عدا عالم واحد اشتهرت به المدينة هو الفقيه «**أبي الحسن بن موسى ابن معمر الهواري الطرابلسي**».

ويقول في عام 1313 هجري 1895 ميلادي دخلت جامع السوق داخل البلد ويصف الجامع فيقول:-

إنه جامع بهيج عليه رونق عظيم فوجدت كثيرا من أعيان الترك من ضباط وغيرهم جاثين على ركبهم في خشوع وتؤدة ووقار يسمعون في كلام رب العالمين من قارئ

مصري له صوت حسن من مزامير آل داود، وفي أحد أركان الجامع من الجهة الشرقية وعلى مصطبة عالية يجلس عليها الشيخ « **محمد بن مصطفى باشا** » مفتي السادة الحنفية ويقرأ متن الشفاء للقاضي عياض وعليه حلقة من الأعيان وغيرهم من العثمانيين فقط يسمعون إلى درسه قبل صلاة المغرب بساعة، وفي مدة إقامتي بهذه المدينة رأيت «أوباش» البلد لهم مخالطة مع الجنس الطلياني وغالبهم يتكلمون معهم باللغة الإيطالية وأكثر الأوربيين بها من الطليان.

والبلد القديم ويقصد المدينة القديمة فبناؤه على الشكل العربي المعروف عندنا بتونس إلا أماكن الافرنج فإنها على الشكل الأوروباوي.

ويتحدث عن هواء البلاد العليل غير أن الحمّى توجد به في الصيف، وتحدث أيضا عن خضراوات البلد وفواكهها ولحومها فيقول:-

إنها طيبة ورخيصة ويذكر من الفواكه كبر الدلاع «البطيخ الأخضر» حتى أن الجمل لا يمكنه سوى حمل دلاعتين فقط بمشقة وهو في غاية الحلاوة من حيث الذوق واللذة، وتحدث عن التجارة فخص بها المالطيين واليهود.

ويضيف بأنه في وقت زيارته لا توجد بالمدينة (بانكة) أي مصرف ولا طرق للسكة الحديد، ولا معامل أوروبية نارية (أسلحة) ولا قهاوي منظمة على الشكل الأوروبي.

ويقسم الجانب العسكري في المدينة إلى قسمين فأما من كان في رتبة شاويش إلى رتبة أمير:-

- أمراء فإنهم يعيشون في أكمل حال يأكلون الطيبات ويسكنون البيوت الرفيعة، ومرتباتهم جارية وعيالهم كُثُر يلبسون اللباس الفاخر ويتنزهون في الحدائق مثل الأوربيين وحريمهم في غاية التستر ولا ترى من جسم المرأة شيئًا وغالبهم يتكلمون الفرنسية.

- أما القسم الثاني فهم العساكر العاديين وحالتهم دون ذلك ولكنهم أحسن حال من أبناء البلد وعدد العساكر يناهز الثمانية آلاف عسكري عثماني.

أما مرسى البلد فهو مرسى طبيعي تقف فيه السفن قريبة من البر وإذا اشتد البحر يصعب النزول من السفن، إلى أن يهدأ.

ويوفر لنا الرحالة «**كوبر**» الذي زار طرابلس أثناء رحلته عام 1895 -1896م العديد من المعلومات إذ لاحظ في بداية زيارته أن هذه البلاد لا تحظى سوى بالقليل من الاهتمام حتى من أولئك الذين يهتمون بتجارة البحر الأبيض المتوسط أو يبحثون عن المتعة، ثم تحدث عن موقع المدينة وما شاهده في نواحيها الأربعة في بحر وسواحل الامتداد الأرضي الذي يحفل بالنخيل، وقال إن المدينة مبنية على أرض مرتفعة ولا نرى البحر والفنار الذي يقع في برج التراب يمثل مركز الجهة، وتحدث من القلعة وموقع المدينة قبل الفتح الإسلامي الذي يعتقد بأنها بنيت فوق كتلة صخرية ناتئة من البحر ولعل هذه الصخرة وغيرها من الصخور كانت في وقت تابعة للبر ثم غمرها البحر بعدئذ.

ويرى بعض المؤرخين أن المعسكر الذي تواجد عنده الفاتحون العرب هو مرتفع «الظهرة» وليس المرتفع الذي يقوم عليه القلعة كما ظن «كوبر» تذكر النصوص العربية أن «**عمرو**» قد عسكر بجنوده على قمة مرتفع يقع إلى الشرق من طرابلس وقد ظل وصف هذا المرتفع يتردد حتى في الوثائق التالية ويمثل مركزه خطرا على المدينة وقد أشارت الوثائق المالطية والإسبانية أن العثمانيين قد استخدموه في هجومهم لاحتلال مدينة طرابلس.

أما «كوبر» فيقول:-

أن المرتفع الذي عسكر عنده **عمرو** هو المرتفع التي تقوم عليه القلعة حاليا حيث كان يتسنى لعمرو رؤية جنوده السبعة الذين تسللوا من الثغرة إلى المدينة من حومة باب البحر حاليًا، ويؤكد الرحالة كوبر أن لا أحد يكتب على طرابلس الغرب دون أن يتطرق إلى المسيحيين فيها الذين لا يقلون أهمية عن بقية السكان، وبالرغم من وجود الإيطاليين واليونانيين وحتى بعض السوريين، فالمالطيون يشكلون السواد الأعظم منهم وهم الوحيدون الذين يستحقون الذكر من بين المسيحيين ويسكن هؤلاء في الجزء الشرقي من المدينة ويحدد منطقتهم من الشمال والجنوب بشارعين هما قهوة دحمان وأربع عرصات، أما من

الغرب فتحدها حارة اليهود وفي هذه المساحة نجد أيضا القنصليات الإنجليزية والإيطالية، والفرنسية والكنيسة، والميدان أو الوسعاية.

والمالطيون في طرابلس لا يختلفون عن المالطيين في أي مكان آخر فهم نشطون مقتصدون، متباينون، متنازعون، قذرون، وترتدي نساؤهم لباس الرأس (**الفالديتا**) وهن بشعات كما هو مألوف فيهن دائما وهم موجودون بأعداد كبيرة بقيت كمخلفات من أيام فرسان القديس يوحنا وأن عددا كبيرا منهم ولدوا في طرابلس لا أعتقد بأنهم يفضلون العودة إلى جزيرتهم يومًا، ويمكنني القول أن السوق المالطية تقع في الشارع الذي يمر بالقنصلية الانجليزية، والقوس الرومانية بباب البحر حتى يسمى «**حوش قنصل الإنجليز**» ويقدر الرحالة عدد المالطيين آنذلك بثلاثة آلاف، والإيطاليين بألف نسمة وباقي المسيحيين لا يزيدون عن مئتين، على أن أهم الشهادات التاريخية التي تسجل من هذا الرحالة لمدينة طرابلس هي شهادته بالتسامح الديني بين سكان المدينة جميعا وهي شهادة تضاف إلى شهادة ما سبق وأن ما سجلته «**المس توللى**» في يومياتها في عهد الحكم القرمانلي في هذا الصدد.

وإذا أراد المرء أن يعرف ويطلع عن التسامح الديني بين المسلمين والمسيحيين على مختلف مللهم أن يزور طرابلس في أعياد الفصح أعياد المسيحيين حيث تتحول المدينة شعلة ملتهبة بالألعاب النارية يشارك فيها المسلمون بهذه المناسبة ويقولون أن هذه العادة قد نشأت من عادة تحية الباشا الذي كان يزور الأسقف رسميا حين كان يمثل البابا فكان الباشا والموظفون الحكوميون من العثمانيين يتقربون ويقومون بزيارة القناصل الأوروبيين في هذه المناسبة فأين هو التعصب الديني العثماني الذي يتحدث به المغرضون؟ فهل تسمح بريطانيا مثلا أو دول الغرب للمسلمين باستعراض عاداتهم في ميادينهم؟ ما أظن ذلك!!

القلعة وما حولها ...

يقول «كوبر» كان العرب شعبًا بريًا فقد رأوا أن القلعة أكثر أهمية من الميناء لذلك قاموا بتحصين المرتفع الذي كان شديد النفع لهم، وأصبح هذا الحصن نواة لمدينة إسلامية سرعان ما ارتبطت بالمدينة القديمة، وهكذا نرى الجامع الكبير، والأسواق، والأحياء المسلمة حول هذا الحصن حتى يومنا هذا (ويقصد به 1895م).

شكل مدينة طرابلس وأسوارها ...

يصف «**كوبر**» المدينة بأنها على شكل مثمن، والجهة التي تقابل البحر إلى الشمال الشرقي تمثل أطول الأضلاع يشتمل على بروزي القصر وقلعة المندريك، ويبلغ طول المدينة شمالا وجنوبا 1130 ياردة مقاسة بالخطوات وعرضها 870 ياردة وطرابلس محاطة بأسوار عالية ولكنها آخذة في التآكل والتداعي كما هو الأمر في كل مدينة عثمانية، ولها أربع بوابات، وفيها ستة حصون كبيرة وأربعة صغيرة بالإضافة إلى برج المندريك وبرج القلعة، فإذا انطلقنا من الشمال الشرقي وجدنا باب البحر، وبالقرب منه رصيف صغير ودائرة الجمارك وسوق السمك وعلى هذا الباب يوجد التاريخ الهجري 1022 ويشير ذلك إلى أن هذا الباب كان قد شيد أو أعيد ترميمه قبل 290 سنة تقريبا وهناك مربع صغير من الميناء يشتمل على سوق السمك حيث تجد فيه أغرب أنواع السمك، وهناك بين هذه المنطقة والحصن الشمالي وبداية رأس الأرض المشتمل على قلعة المندريك سلسلة من المقاهي والأبنية الأخرى المشيدة على يسار الجدار بينما تقع على الساحل قوارب الإسفنج التي تحتاج إلى الإصلاح.

برج أبي ليلة والبياضة:

ويصف الرحالة هذه المنطقة من البحر بأنها نوع من الخيال فصفاء المياه ونظافتها والصخور التي تغطيها النباتات البحرية في قاع البحر وتنوع الألوان التي يصادفون في هذه البياضة أو كما أطلق عليه الجنة الكامنة تحت الماء حين تنعكس عليها الشمس الساطعة كل هذا مضافًا إلى صاحب الزورق الذي يتنقل بين الصخور والنتوءات نحو برج أبي ليلة حيث تسمع صوت الأمواج الصاعدة والهابطة وكأنها همسات وآهات حوريات البحر.

حصن باب الجديد:

الحصن الثاني مثمن الأضلاع ويقع وسط الناحية الغربية مشتملا على الباب الجديد الذي لابد أن تكون قبله بوابة في مكانه باستمرار، أو منذ أن اتخذت المدينة شكلها الجديد، ويظن أن البوابة قد أعيد بناؤها لأنه بالقرب من القلعة الشرقية بعض الآثار التي تدل على وجود بوابة في ذلك المكان.

الشوارع:

إن الذين يألفون المدن العربية وخاصة مدن المغرب يدهشهم أن يروا العدد الكبير من الشوارع التي تتصف بالاستقامة بل إن قسماً واحداً فقط من المدينة يسمى «**الحارة**» حيث يعيش فيه اليهود ويتصف بتشابك الطرق والتوائها وتعدد الزقاق وانحراف طرقاتها.

أحياء المدينة:

وتنقسم المدينة إلى أربعة أحياء تسمى (**حومات**) ويطلق عليها بالتعاقب حومة باب البحر، وحومة البلدية، وحومة كوشة الصفار، وحومة غريان.

والحومة الأولى باب البحر هي القسم الشمالي الغربي من المدينة.

وتحتل حومة البلدية المرتبة الثانية القسم الشرقي من باب البحر.

وتحتل حومة كوشة الصفار القسم الغربي وهي تخلو من المباني الكبيرة وأغلب سكانها مسلمون.

كما تحتل حومة غريان القسم الجنوبي من المدينة ممتدة من الحارة الكبيرة إلى القلعة الجنوبية وقسم منها يتصل بالباب الجديد ويسمى الحارة الصغيرة ويسكنها اليهود وسنتحدث عن هذه الأحياء وما تحويه من كتاتيب وزوايا صوفية وأولياء وعادات وتقاليد حين نتحدث عن أحياء المدينة القديمة.

سكان المدينة:

يقول رحالتنا «**كوبر**»: أن العرب يؤلفون العنصر الأكثر أهمية في المدينة بالرغم من عدم اتقانهم الصناعات اليدوية التي يتقنها اليهود والمالطيون، واليونانيون إلا أن العرب يمثلون الشخصية الاعتبارية في النبل والاحترام فتجد شوارعهم نظيفة خالية من العفونة كما هي أحياء اليهود والمالطيين.

الأجناس:

نجد في طرابلس الغرب المؤمنين من أصحاب الأردية البيضاء يقصد (الحوالي) وُجُوهًا تنطق بالأصل البربري، ووجوها تنطق بالأصل العربي من بني مكة ويقصد بهم القبائل العربية الذين جاؤوا مع الفتح العربي ثم إن حياة المدينة تتشبع بسلالات المرتفعات وفزان كما نشأ جنس مختلط بالزواج من بين أبناء السودان والعرب وهكذا نجد في طرابلس أجناس وفروع من كل لون من الطوارق، الفزانيون البدو ، ويتميز أبناء الصحراء بسهولة عن غيرهم بملابسهم الملفعة المقنعة البيضاء، ومشيتهم المتحدية وعصيهم الطويلة حيت يلفتون النظر لكل من يصادفهم في الطريق معجبا باختيالهم وزهوهم ومظاهر الوحشية والعنف المحيطة بهم.

الجنود المحتلين الأتراك:

يقول الرحالة أن طرابلس تعجُّ بالجنود المحتلين العثمانيين وهم يشكلون منظرًا غريبًا حقا فهم قذرون لم يغتسلوا منذ زمن ولم يمشطوا شعورهم وملابسهم ممزقه قذرة، وأقدامهم في أحذية متشققة ونعال بالية، يتمددون حول بوابة المدينة كأنهم رمز حقيقي لإمبراطورتيهم المتداعية بالرغم من حالتهم هذه ورواتبهم القليلة وملابسهم المهملة يبدون سعداء مغتبطين بما ينعمون به من اغتصاب لأهل البلد، يضحكون وهم يتصارعون كصبيان المدارس أو يتجولون متشابكي الأيدي في البساتين وكأنهم ورثوها من أجدادهم وهم في الواقع مثيرون للشفقة.

الجوامع الرئيسية:

تحدث عن هذه الجوامع فأحصاها عددًا بعشرة هي:-

جامع أحمد باشا، جامع شائب بالعين، وجامع درغوت باشا، وجامع محمود باشا، جامع قرجي باشا، وجامع الناقة، وجامع الخروبة، مدرسه عثمان باشا، جامع سيدي سالم، جامع الدروج، وقال إن المظاهر الهندسية فيها قليلة فالمآذن القليقة تبرز من متاهات السطوح البيضاء متعددة الزوايا أو مستديرة ولا ترى فيها زخارف مثل الذي تراها في القاهرة أو الألوان الساطعة التي تراها في تونس والمغرب.

سوق الترك:

يقول« **كوبر** » عن هذا السوق بأنها مستقيمة يستطيع المرء أن يشتري منها كل شيء وبها دكاكين ذات واجهات زجاجية غير أن طبيعتها شرقية، وأغلب المعروضات بها أوروبية الصنع ومن يريد أن يشاهد سوقا شرقية فعليه أن يصل إلى نهايتها الجنوبية ليجد نفسه في سوق الربع أو السوق المسقوفة المحيطة بالجامع الكبير حيث يجلس الباعة العرب في زواياها الصغير يبيعون الحوالي والبرانس والأزياء الوطنية، وترى الحاكة الطرابلسيين يحملون بضاعتهم بالجملة، وحين يجري المزاد العلني يكون مثيرا للاهتمام إذ يركض النساجون وهم يحملون الحوالي على أكتافهم ويصرخون معلنين آخر العطاءات سبعة وأربعون، وأربعة وستون قرشا إلى غير ذلك، وتنقسم السوق إلى قسمين سوق الربع القديم وسوق الربع الجديد.

أما بقية الأسواق فهي:-

1. سوق الخرداجية أو البقالة قرب فم الباب.
2. سوق الحلقة حيث يصنع المسلمون الأردية.
3. سوق الفنيدقه حيث تنسج الأردية النسائية.
4. سوق الحرير وفيه تنسج الأردية الحريرية.

5. سوق الحرارة وتباع فيه الأقمشة والمنسوجات.
6. سوق القزدارة وتصنع فيه الأواني النحاسية.
7. سوق الحدادة.
8. سوق النجارة.
9. سوق الخبز.
10. سوق الخضرة.
11. سوق البنادق.
12. سوق النعال «البلاغجية».
13. سوق الصياغة وتباع وتشتري فيه المصوغات الذهبية والفضية.

هذا بالإضافة إلى السوق الأسبوعية التي يطلق عليها سوق الثلاثاء.

وختم (**كوبر**) رحلته إلى طرابلس بإعطائه انطباعًا عامًا عن هذه المدينة الجميلة فيقول: إن طرابلس بين مدن الشرق وهي تحت حكم معتدل طيب وأهلها قانعون راضون وقد تكون التجارة رديئة والنقود قليلة ولكن المناخ مناسب والشمس مشرقة دئما والناس فيها طيبون راضون بحياتهم الحالمة الوادعة غير متأثرين بالأمور التي تقلق حضارة القرن التاسع عشر فلماذا نعكر عليهم صفوهم؟ إن طرابلس ومدينتها الجميلة وشوارعها الشرقية الزاهية لهي أحسن ألف مرة من الناحية العاطفية من المدن الأخرى المزيفة كالقاهرة وبيروت وتونس التي تقوم فيها الشوارع الحديثة، والفيلات الأوروبية، وصالونات القمار التي تزاحم الأسواق الشرقية الأصيلة.

وجاء بعد «**أحمد راسم باشا**» الوالي «**نامق باشا**» الذي استمر في الاهتمام بالتجهيزات العسكرية ووجد صعوبة في فرض التجنيد الإجباري على بعض الجهات غير أنه نجح في برامجه الخاصة بالتدريب العسكري، ومن الإنشاءات الهامة التي تمت في عهده تأسيس مدرسة الفنون والصنائع التي أسهم المواطنون بتبرعاتهم في بنائها كما اهتم بالموارد المائية في المدينة التي شهدت في عهده ازدهارًا يحسب له.

وفي عهد الوالي «**حافظ باشا**» تصاعدت المواجهة للمخططات الاستعمارية الإيطالية بالسعي لكسب ود الأهالي وقطع الطريق على التدخل الإيطالي فعمد على التطوير الإداري والعناية بالتعليم فأسس دارًا للمعلمين ومدرستين كبيرتين ووسع مدرسة البنات، و أسس مدارس ابتدائية في الدواخل وأكمل بناء مدرسة الفنون والصنائع وألحق بها مدرسة أخرى للبنات وجلب لها الخبيرات لتعليم صناعة السجاد، وفي عهد هذا الوالي حصل سنة 1900 في مدينة طرابلس كسوف كلي للشمس خرج الأهالي والجنود العثمانيين على ضوئه إلى الشوارع ظانين بأن أمرا قد حدث.

وقد زار خلال هذه الفترة 1901-1902م وفي عهد الوالي «**حافظ باشا**» الصحفي الاستعماري الإيطالي «**جوستيانو روسي**» الذي ألف كتابا بعنوان (**تونس وطرابلس اليوم**) وقد فضل قبل أن يغادر السواحل الأفريقية زيارة طرابلس التي تتجه إليه إيطاليا بمطامعها الاستعمارية بعد إخفاقها في الإستيلاء على تونس فقرع هذا الزائر البغيض طبول التحذير من ضياع هذه الفرصة على بلاده وخشي أن تضيع نداءاته وغيره من أمثاله في متاهات النسيان فأخذ يصف المدينة وشوارعها الضيقة، وزقاقها الملتوية وتحدَّث سلبًا وايجابًا كما تحدَّث الذين زاروها من قبله مادحًا تارةً، وذامًا تارة أخرى فوصف كل شيء فيها.

وركز في رحلته القصيرة على دراسة الأوضاع الدفاعية وعدد السكان الذين قدرهم بحوالي ثلاثين ألف نسمة منهم عشرين ألف نسمة من العرب وستة آلاف من اليهود والبقية من جنسيات مختلفة أما إذا أضيف إليهم سكان الضواحي فيصل العدد إلى خمسين ألف نسمة وتحتل الجالية الإيطالية والمالطية المرتبة الأولى بين الجاليات الأجنبية ثم تأتي الجالية اليونانية، فالإسبانية فالفرنسية القليلة، وتأتي إيطاليا الأولى في عدد المدارس والمعاهد التي ينتمي إليه الإيطاليون، والمالطيون واليهود وقلة من المسلمين (العثمانيين) و يشير إلى المزاحمة الفرنسية التي أسست مدرستين بالرغم من عدم وجود جالية لها سوى البعثة القنصلية ولاحظ التسامح الديني الكبير الذي كان يبديه العرب لدرجة أنه يستغرب صفة التعصب الديني التي ألحقها بهم بعض الكتاب الفرنسيين، ويذكر أن

بالمدينة كنيسة واحدة وأخرى في الريف وأن برج الكنيسة الموجودة بالمدينة تعلو جميع مآذن المساجد الأمر الذي كان يثير مشاعر الضيق والتبرم عند الأهالي الذين لا يطيقون أن تكون برج الكنيسة أعلى من مآذنهم ومع ذلك فهم متسامحون، وتجري ممارسة الطقوس الدينية خارج الكنيسة دون مضايقة كما يقوم المسلمون أيضا بممارسة عاداتهم الدينية دونما اعتبارٍ لأحد.

ويشير «**روسي**» إلى أن الروح السائدة في طرابلس هي رفض الإحتلال من قبل العثمانين وتمنى ألّا تستمر تحت السيادة العثمانية الغاشمة والتي تمثل الركود والجمود والجهل والفقر والاستعباد أسباب التقدم الذي حرم منه الشعب الليبي، ويحبذ سكانها الاستفادة من الاحتلال الاوروبي التقدمي الإنساني كما يزعم ويسجل أن المدينة قد شهدت خلال الأعوام الأخيرة نوعاً من التوسع خرجت به عن أسوار المدينة القديمة حيث فُتِحَ شارعان متقاطعان جديدان واسعان بدأت تحف بهما بعض العمارات من الطراز الأوروبي، والنادي العسكري، و مقر إقامة قائد الجيش وينتهي الشارعان بحديقة صغيرة عامة تسمى (**جنان الفريق**) يتنزه فيها الطرابلسيون !!! وتعزف بها في العادة بعد القطع الموسيقية وتعرض البضائع الكبيرة في هذين الشارعيين اللذين يقع قربهما سوق الثلاثاء، كما أعطى الكثير من الإنطباعات عن الحياة العامة في مدينة طرابلس في مطلع القرن العشرين.

وننتقل بعد ذلك إلى كتاب « **أسرار طرابلس**» الذي ألفته «**مابل تود**» زوجة رئيس البعثة الأمريكية في طرابلس بين العام 1900 و 1905م وقدمت فيه صورة من أجمل الصور الفنية والشعرية عن الحياة في المدينة، وصفت فيها بدقة جمال المدينة وسورها الخلاب وعادات وتقاليد سكانها حيث شغفت بمدينة طرابلس واستراحت إلى أهلها واستطابت الإقامة فيها، فدارت في أنحائها بعين لاقطة وذاكرة حافظة سعادتها على أن تقدم إلينا لوحة فنية شاعرية زاخرة بأدق المعلومات عن العادات والتقاليد الطرابلسية لعل أبرزها ما يتعلق بالعرس الطرابلسي نؤثر أن نصطحبها في بعض ما جاء في رحلتنا هذه.

فقد كان الدافع لكتابة انطباعاتها عن مدينة طرابلس وقوع الغزو الإيطالي في سنة 1911م الذي كان يضربة قاصمة على هذه المدينة التي وصفتها بقولها «أن حظها منذ بدء التاريخ عبارة عن تجارب متنوعة لأنها واحدة من أقدم المدن في العالم» وآثرت أن تنشر هذه المذكرات مشفوعة بانطباعاتها التي سجلتها خلال فترة وجودها في هذه المدينة منذ سنه 1900م لغاية 1905م.

قالت:-

إنه منذ وصولها إلى ميناء طرابلس المتلألأ في الصباح الباكر كان مشهدًا رائعًا لسفن أجنبية ترفع أعلام اليونان، تركيا، وفرنسا ولقوارب صغيرة محلية لصيادي الأسماك وغواصي الإسفنج ولكل الحياة المثيرة للفضول في مجتمع متميز غير أوروبي.

وأضافت إن وصف مؤلفين عرب لهذه المدينة القديمة كما تبدو للقادم إليها من البحر بكل ثروة الخيال وجودة التمثيل الذين عرفوها جيداً هو مشهد لا يمكن أن يكونوا قد بالغوا فيه.

فالسوق القديم، وقلعة الباشا، والمساجد الرائعة المستديرة والعدد الكبير من المآذن التي تعلوها قباب مذهبة، والنخيل الكثيف والحزام الأخضر الفاصل بين البحر طوال النهار وكثبان الرمل والصحراء، والضريحين الواقعين جانبًا على رأس صغير، كل هذه كونت مشهدًا ذا جمال خلاق.

وقسمت انطباعاتها الكلي للوصول إلى هذه المدينة إلى أجزاء مكونة من: قوارب الاسفنج اليونانية المشدودة إلى أعلى في حافة الشاطئ معدة إلى التصليح، باب البحر المفتوح طول النهار الموظفون العثمانيين الكسالى الذين يدخنون فوق المقاعد باستمرار، البحارة اليونانيون الذين يستحبون الأراجيل، العرب الذين يرشفون فناجين القهوة في زوايا متفرقة، معها تناقضات حادة ملأت مدينة الرسول الأجنبية هذه.

وتصف الحياة في الشوارع والأسواق فتقول:-

تفاجئك وأنت في الشارع السوق كلمة «**بالك، بالك**» ويقفز الإنسان جانباً بسبب الصرخة المفاجئة الجافة ويمر بك حمار نحيل مثقل ومتأنِّيًا لا وقع لحوافره الصغيرة على الشارع الرملي الأبيض تتبعه أعداد لا حصر لها من هذه الحيوانات الحزينة رازحة بشكل عام تحت سلالٍ من القش تضم جرار ماء فخارية، وغالبا ما تحمل خروفا أو حملا ربما حملت صاحبها بالإضافة إلى ذلك جالسا بلا رحمة فوق الحيوان، هذا إذا لم يمش خلفه ليتسنى له همزه.

أما الباعة فكانت جوقة أصواتهم تختلف من واحد إلى الآخر فبائع البطاطا له صوت خاص وبائع البيض له صوت يختلف وكان يوافق كل سلعة صوت خاص ونغمة خاصة، ولهجة خاصة.

ويقرأ العرب الأتقياء القرآن أمام متاجرهم، والإستغراق بادٍ عليهم، إنهم لم يكونوا أبدًا بمنأى عن شؤون الحياة وكأنما يريدون على كل حال نسيان زيادة الأسعار التي خصوا بها المسيحيين ويسحب الخبازون دون انذار مجارفهم الكبيرة من أفرانهم مليئة بالأرغفة الصفر لتبرهن مقابضها الطويلة أنها حجر عثرة مفاجئ لغير اليقظين، وكانت كل الأعمال تتم على الطريق الضيقة الشبيهة بالأنفاق على مرأى من الجمهور أما الشوارع فكانت تسقف بالحصر أو العرائش لتلافي أشعة الشمس المحرقة، وتتم أعمال النسيج بالأنوال البدائية في شارع واحد ذلك أن لكل حرفة حيُّها الخاص بها حيث تكرس كل الحوانيت والبيوت لحرفة معينة.

النافورة العثمانية...

وكان هذا الينبوع العثماني نقطة تجمع كبرى في المدينة، على شرف الباشا السابق ويظل محاطا دائماً بحشود مختلفة من كافه الأطياف في كل وقت ويمر به المرء في كل النزهات والجولات عبر الحارات الموحلة المسورة التي تفضي إلى الصحراء الكبرى.

أسوار المدينة...

ولقد سورت المدينة تسويراً هائلاً سنة 1900م وكانت البوابات الثقيلة تغلق عند الساعة السادسة وتوصد في وجه المقيمين خارج المدينة ولا أحد يستطيع الدخول إليها أو يخرج منها حتى الصباح.

شارع البحر..

كانت قوارب الإسفنج ترسو أحيانا في المارينا حيث كنا نتناول القهوة بعد الظهر في بعض الأوقات وكان الرجال المسنون يجلسون في الزوايا يصنعون السلال الخشبية، وكانت جبال من جرار الماء مختلفة الأحجام مكومة هناك، وكان سوق السمك مملوء بالعديد من ألوان وأشكال السمك أحمر، وأزرق لامع، ورأيت في هذا المكان درويشاً ورعاً ذا رأس ودقن غزيرين بشعر أجعد نظرته ذات انجذاب غريب، كما يمر شيوخ الطرق الصوفية والأتقياء بين الحين والآخر فتمتد إليهم الأيدي بالإحترام.

القلعة سنه 1900م..

هذه القلعة التي هي مقر للحاكم تضاهي مدينة صغيرة قائمة بذاتها تقريبًا وقد أقيمت بها دوائر الدولة الرئيسية، والمحاكم، والسجون، والمخازن والمستودعات العسكرية وكان يعقد نوع من المجلس البلدي المعين من قبل الوالي فيها.

إضاءة المدينة:

لم تكن الإضاءة مسألة معقدة غير عادية، فقد كانت توضع قناديل شاحبة تعمل بالنفط في الزوايا المظلمة هنا وهناك.

المنازل:

كانت كثيرة من باحات الحريم مرصوفة جيدًا، وكان غطاء الجدران من ملاط جميل وكان هناك ينبوع في الوسط أو شجرة جميلة.

البساتين...

وكانت الحارات والطرق التي تقود إلى البساتين خارج المدينة جذابة بلا حدود ومتجددة البهجة كلما خرجنا أو عدنا منها فهي رملية وتكلل الأسوار (الطوابي) بأشجار الصبار الكثيرة القديمة والتي غالبا ما تكون أشجاراً وهي كثيرًا ما التفّتْ من الأسوار التي تتمازج فوقها أشجار الزيتون، وكانت الخيل العظيمة المزينة ببذخ بالفضة والجلد وتنساب منها ذيول غزيرة تقل جماعات من العرب والترك.

سوق الثلاثاء:

ويجتمع في هذا اليوم على الشاطيء الأبيض ما يقارب العشرة آلاف من الأهالي من أجل البيع والمبادلة منهم من البدو المختالون المتكبرون والذين كثيرا ما يكونوا أغنياء لايصرفون على حياتهم اليومية ما يصرفه أفقر رجل أوروبي، وليس في هذا السوق سلع تجذب إليها الأجانب الموسرين وكان يتلطف العربي ذو الملابس البيضاء ليتزود من هنا ويعود إلى بيته في الواحات البعيدة في الصحراء على حصان أصيل أحيانا مغطى بالجلود المبهجة وزخارف النحاس والفضة وثيابه البيضاء تتطاير مع الرياح وتمتد بندقيته عشرة أمتار ووراءهُ حمار محمل بأنواع كثيرة من السلع والحاجيات لأهله.

سوق الخبز...

ومن الأحياء البهيجة في المدينة الميدان الذي يستخدم في أيام معينة كسوق الخبز حيث يقبع مئات من العرب في الشمس اللاهبة تحت حواليهم الصوفية البيضاء ويحرسون أرغفة صفراء زاهية ذات تجاويف فنية وإن كانت «غير صحية».

عودة القافلة...

لا يسمع التجار الأغنياء الذين يرسلون السلع إلى أعماق الصحراء شيئا عن قوافلهم أشهرًا وفي بعض الأحيان حتى سنين، ولكن عندما تشاهد قافلة عائدة بجمالها المنهكة ورجالها الجياع العطاشى تخرج طرابلس عن بكرة أبيها من بواباتها للترحيب بالقافلة ورجالها وعلى الرغم من أن طرابلس لازالت نقطة انطلاق إلى مثل هذه القوافل فإنها قلت كثيرا عن ذي قبل.

مركز طرابلس...

طرابلس تبدو حلقة الوصل الطبيعية بين أوروبا وأفريقيا، وكانت البضائع الأوروبية تخزن في طرابلس في الماضي حتى يحين موعد سفر القوافل إلى السودان وغيرها كما كانت البضائع الأفريقية تخزن أيضا في طرابلس إلى أن يحين موعد نقلها عبر البحر الأبيض المتوسط وتتكون هذه البضائع من ريش النعام وسن الفيل، والجلود، وحتى الذهب والفضة الواردة من أفريقيا لمقايضتها بأقمشة مانشستر، وأواني فينيتسيا الزجاجية، وبضائع جنوب فرنسا.

المنفيون المعارضون...

قالت الكاتبة... ولما كانت طرابلس نوعًا من المستعمرة للمشبوهين المعارضين السياسيين فإن عددًا كبيرًا منهم عاش في هذه المدينة البيضاء جالبين معهم جو الآستانة الحقيقي، الأناقة ورغد العيش اللذين لم يستطع النفي أنْ يخفيهما.

طرابلس المستقبل...

وتقول الكاتبة في ختام انطباعاتها، والآن لقد قصفت طرابلس بالقناديل تقصد قنابل الإستعمار الإيطالي الذي دك المدينة وأنزل جنوده على شواطئها، إن غزاة طرابلس قد تغيروا مرة أخرى في قصة التقلبات التي مرت بها هذه المنارة البيضاء، وكل الحياة الناعمة هرعت من نومها لتنزع التربة الخصبة المتراصة دائما تحت الرمال المعتدية المنتظرة فقط الماء لتتفجر بالزهر والتمر، وستترك الآبار المتداعية التي لم تتغير منذ أيام قرطاجنة مكانها للخزانات الحديثة، وستحتل الأنابيب محلا قرب الماعز، ستقوم الآلات بعمل الأبقار الصابرة الكادحة كقوة حسيرة وستتقدم المدينة بعد أزمتها على الطرق الحديثة، وسيكون هنالك في يوم من الأيام حتى هواتف و كهرباء، و شوارع معبدة، وسيارات، ولكن يكون مستطاعًا قهر الصحراء مرة واحدة، ولا الطوارق الذين يجتازون فلواتها الغامضة وسيظل هناك دائما أميال غريبة من الرمل الذهبي حيث تترصد اللانهاية... وإن كل قذارة تبدو مغسولة في امتداداتها الموحشة لابد أن تجلب الشمس الواهبة للحياة،

والهواء المتوهج يطير فرحاً، و وأن يشرق الصبح المتلهف، والمدى المتلألئ وأسماك المساء ستظل تحكي قصة رائعة وإن كان يشوبها الغموض، ستبقى طرابلس تلك، مهما كانت قرارات الدول الكبرى... ومهما كانت طرابلس فإنها مدينة سحر بيضاء كأحلام الجنة مزركشة بحواش من النخيل والزيتون، وذات جذور عميقة في ذكريات القرون.

وقد وصف المؤرخ المحقق في التاريخ خليفة التليسي ما كتبته الكاتبة «مابل تود» وعن انطباعاتها عن طرابلس بقوله:-

إنها امرأة شاعرة وقفت أمام زاوية، وكل ركن وقفة شاعرية ولم يحدث أن كتب أحد عن هذه المدينة بهذا العشق الذي يحاول أن يكتشف كل النادر، والمميز والبارز في كل شيء تقع عليه العين... حتى الجدران الصامتة (فلو تتكلم الجدران الصامتة، فستكشف عن سنوات من التاريخ غير المكتوب وغير المحفوظ المليء بالعاطفة والبطولة والقسوة وخيانة الحياة).

وقد زار بعد «**تود**» طرابلس رحالة فرنسي يدعى «**ماتجزيو**» عدة مرات وكتب في رحلاته عدة انطباعات نشرها في المجالات العلمية التاريخية والجغرافية ورغم إقامته التي طالت في البلاد فانه لم يقدم لنا من كتابه إلا قليل من الملاحظات العامة منها:-

أنه التقى خلال جولته في المدينة بأحد المثقفين الذي يحسن اللغة الإيطالية ويتكلم الفرنسية أظهر حقده على الأوروبيين لأنهم كانوا سببًا في كل ما حل بالإسلام والمسلمين من نكبات وهو أمر يمثل الاقتناع العام للمثقفين.

وقد لاحظ صدور العديد من الصحف التي صدرت خلال هذه الفترة بعد إعلان دستور 1908م فقد صدرت في ذلك الوقت ثماني صحف (**الترقي**) التي كان يصدرها **محمد البوصيري** وهي جريدة سياسية تهتم بالمصالح الوطنية ولها فروع في مختلف أنحاء البلاد، وقد منعت السلطات الفرنسية دخولها إلى تونس نتيجة مواقفها المعادية للإستعمار ويذكر من الصحف **المرصاد، والعصر الجديد، والكشاف، والرقيب، و أبو قشة ثم جريدة طرابلس الغرب التي تعتبر الرسمية ثم (تعميم حريات)** وكانت تصدر بالعثمانية

ويسجل من مواقفها هجومها الدائم على قناصل إيطاليا وإنجلترا وفرنسا وجميع الأجانب وتدعوا إلى إجلائهم من طرابلس كما كانت تنادي بإلغاء المحاكم القنصلية.

وتحدث عن البحارة العرب أحفاد رجال البحرية الإسلامية القديمة وما يتميزون به من قدرة وجرأة على ركوب الأخطار بعكس البحارة اليونانيين والمالطيين الذين يملأون الدنيا بضجيجهم وصخبهم وارتيادهم للحانات ويندد بفقرهم وقذارتهم وأمراضهم الناشئة من هذه القذارة، وينتهي الكاتب بسرد هذه الانطباعات البسيطة دون الالتفات إلى وصف المدينة وأسوارها وبياضها كما فعل الراحلون من قبله لأن رحلته كانت اقتصادية واجتماعية لا دور للوصف فيها.

وفي إطار الحملة الكبرى التي مهدت للغزو الإيطالي وعملت على إثارة الرأي العام الإيطالي ودغدغة مشاعره الوطنية بأحلام وهمية في أرض موعودة قام عدد من السياسيين والصحفيين الإيطاليين بزيارة ليبيا وخاصة خلال السنتين الأخيرتين من العهد العثماني البغيض، وقد كان من بين هؤلاء الزوار السياسي الإيطالي المعروف **«هنريكو كورديني»** زعيم الحزب الوطني المتطرف الذي قاد الحملة الإعلامية لتحريض الرأي العام الإيطالي على المبادرة إلى احتلال ليبيا.

وقد كان هذا الرجل من غلاة الاستعماريين الإيطاليين ومن أكبر ممثلي الفكر الاستعماري الحديث وعمل على الترويج لها في خطبه الحزبية ومقالاته الصحفية وقام من أجلها في يوليو 1911م أي قبل أشهر قليلة من الغزو حيث زار مدينة طرابلس (آخر العواصم الإسلامية المستعمرة من قبل عثمانيا بالشمال الأفريقي، تلك المدينة البيضاء التي تفتح ذراعيها للقادم من أوروبا إنها المدينة البيضاء المتوجة بأشجار النخيل وعندما حل بها قال إنها ليست مدينة بل هي قرية عربية كبيرة ليس لها سمة أوروبية و يمكن أن تصبح من أجمل المدن على ضفاف البحر الأبيض المتوسط البحر ويشترك البحر والصحراء في رسم ملامحها).

ويضيف إنني أكتب هذا عن طرابلس من أجل أهداف إنسانية تتوجب على إيطاليا، نحن نقول أن إيطاليا ينتظرها واجب إحتلال هذه البقعة من أجل أسباب

ومبررات خاصة بها تتعلق بمصالحها وضروراتها في البحر المتوسط و لكنني اكتب لأبين الحالة التي وجدت عليها طرابلس الغرب في يوليو 1911م.

وفي إطار الحملة الإعلامية وتهيئة الرأي العام الإيطالي تدخل أيضا انطباعات الصحفي «**جو سيبني بياتزا**» صاحب الكتاب المعروف باسم «**الأرض الموعودة**» الذي جمع فيه مقالاته التي نشرها في صحيفة «**لاستامبا**» المعروفة الذي التي تصدر في تورينو وقد كان هذا الصحفي من الأقلام التي أداها المؤرخون الإيطاليون المنصفون بتهمة تضليل الرأي العام الإيطالي وتحريضه على العدوان، وإغرائه للطليان بأحلام خيالية ما لبثت أن تكسرت على صخرة الواقع سواء بمبالغته في تصوير الاستعداد المزعوم للشعب الليبي لاستقبال الاحتلال أو تضخيمه للإمكانيات الإقتصادية التي تمتلكها هذه البلاد، ويهمنا من مقالاته بعض الانطباعات المتفرقة التي رصدت بعض مشاهد الحياة العامة في المدينة حيث يستوقفنا وصفه للحركة الصحفية التي شهدتها طرابلس أخيرًا و في المرحلة الأخيرة من العهد العثماني الثاني وإقبال الناس على الصحف فيقول:-

(إن من الدلائل الكبيرة على قدرة استيعاب هذا الشعب على تشرب المدنية الحديثة تتمثل في تلك العلاقة القائمة بينه وبين الصحافة التي تصدر عن الكتاب والصحفيين يشبه اللعنة، فقد كانت الورقة المطبوعة حتى لو كانت مما يستعمل في تغليف الجبن عرضة للمصادرة من أيدي المواطنين وكل كتاب وكل ورقة تتحدث عن العثمانيين المحتلين في ظل حكمهم الاستبدادي تحرق أو تمزق، وخلال ثلاثة أعوام توجد بطرابلس ثماني جرائد تصدر بصفة منتظمة، اثنتان منهما باللغة العثمانية المسلطة على الشعب بالقوة (**طرابلس الغرب، وتعميم حريات**) وثلاثة عربيات (**الترقي، والمرصاد، وأبوقشة**) وواحدة عبرية وإثنان إيطاليتان (**صدى طرابلس والإقتصادي**) وتصدر جميعها أسبوعيا وإذا أخذنا في الاعتبار عدد السكان في المدينة ونسبة المتعلمين تبين لنا أن هذا العدد من الجرائد هائل حقا، وإخراجها ليس متطوراً عدا **الترقي** وهي أرصن الجرائد العربية ولها مطبعتها الخاصة ولا يبلغ عدد السحب منها عشرة آلاف ولكن الحماس لها شديد.

وقد ذكر بأن صاحب جريدة «**أبو قشة**» قد باع منزله من أجل تواصل جريدته صدورها، وأضاف بأن هذه الجرائد هامة ولا يمكن إغفال تأثيرها على الرأي العام كوسيلة للتمدين وحتى لو كان القراء قلة فإن كل قارئ لجريدة تحيط به جماعة كبيرة من الأصدقاء والمستمعين يتحلقون حوله ينصتون لقراءته بصوت عال سواء في الدكاكين أو في المقاهي العثمانية أو حتى فوق الحصر في الشوارع الكل يسمع إلى الأخبار ويعلق عليها ونقتصر هنا على رحلته التي عنى الإيطاليون بترجمتها لحاجاتهم للمعلومات التي تضمنتها عن الأوضاع العامة للبلاد.

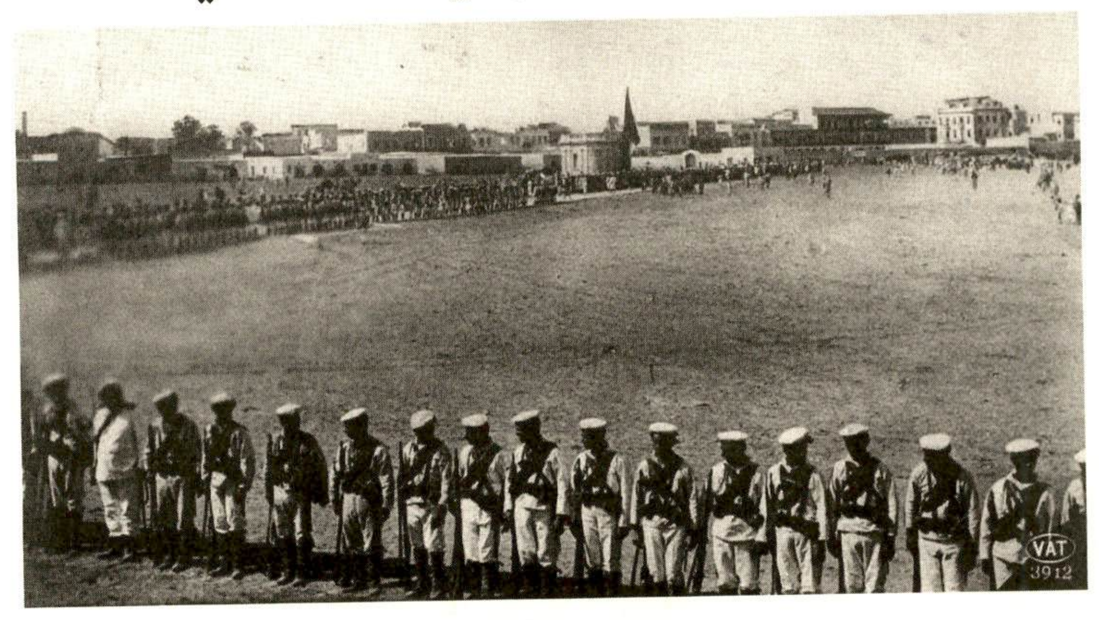
وقد وصل هذا الرجل في 23 أبريل 1901م لطرابلس و للوهلة الأولى شعر بالراحة والاطمئنان لبلوغه أخيرا ما أطلق عليه (الوكر العتيد للقرصنة في الشمال الأفريقي الذي احتفظ بأصالته الموروثة منذ العصور الوسطى) وتحدث منذ وصوله على صوت المؤذن الذي يرتفع بآذان الفجر وأشاد بالمشهد الرائع للمآذن والقباب وسطوع المنازل البيضاء، كما تحدث عن صعوبة حصوله على تصريح زيارة المدينة وموقف رجال الجمارك منه وتفتيش حقائبه بدقة متناهية كما تحدث عن العديد من المواقف التي واجهته في هذه الرحلة وغيرها من الرحلات لهذه المدينة بالرغم من الصعوبات التي وقع فيها فإنه قد تحدث عن المدينة وسكانها وأشاد بالتسامح الديني بينهم كما أخذ بالأجناس المتعددة التي تقيم في منطقه باب البحر وتعيش كوحدة واحدة لا انفصام بينها الكل يعمل فيها كما تحدث كغيره من الزوار الرحالة الذين سبقوه في الحديث عن كل شيء في هذه المدينة.

وفي عهد «**رجب باشا**» قام السياسي والصحفي الإيطالي «**تومياتي**» برحلة إلى ليبيا زار خلالها طرابلس وضواحيها كما زار بنغازي أيضا وسجل انطباعاته عنها في كتاب جعل عنوانه (**طرابلس الغرب**) وتدخل رحلات هذا الصحفي في إطار الرحلات السياسية الذي حرص عدد من الساسة والصحفيين على القيام بها خلال الفترة التي سبقت الإحتلال الإيطالي وذلك من أجل دراسة الأوضاع العامة والتعرف عليها عن كثب؛ ولذا أغلب هذه الرحلات ذات اتجاه السياسي الذي كان يمثله هؤلاء الرحالة.

وفي الثالث والعشرين من فبراير 1911 م حل بالمدينة «**الكونت اسكانيو ميكيل سفوزا**» السياسي الإيطالي المعروف الذي ربطته صلات ودية ببعض الشخصيات الوطنية وهو غير الكونت «**بيفن سفوررزا**» صاحب المشروع الذي شغل وزارة الخارجية في إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية وكانت له مواقف متسمية في محاولة استرجاع ليبيا أو أي جزء منها تحت سيادة روما.

وكان «**سفوررزا**» رجل سياسة واقتصاد حضر في مهمة واضحة ومحددة وهي القيام بدراسة شاملة عن الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية بحجة البحث عن المعادن وقد اعتقل أثناء الحرب ولم يفرج عنه إلا بعد ذلك، ولا نتوقع من إنسان هذا شأنه أن يقدم إلينا صورة متكاملة عن الحياة العامة على النحو الذي نجده عند الرحالة والزائرين الكبار ومع ذلك لا بد أن نلاحظ للوهلة الأولى روح الإعجاب والإحترام الذي يحملها هذا الكاتب للإسلام والتقاليد الإسلامية دون أن نعثر لديه على الإستهانة التي اعتمدها بعض الكتاب الأجانب الآخرين في كتاباتهم عن الإسلام والمسلمين، وبالرغم من ذلك فقد كانت رحلة «**سفوررزا**» إلى طرابلس بتمويل من «**بنك روما**» لكي يجري العديد من الإتصالات وإعداد الأرض بمزيد من التغلغل الإيطالي السلمي لرعايا إيطاليا وما كان للسلطات العثمانية إلا أن تقف منه هذا الموقف المتشدد مع ذلك فقد أذن له الوالي بالتجول في البلاد نظرا لمركزه العائلي الكبير.

صورة جوية لطرابلس في العهد الملكي



منظر عام لساحل طرابلس في بداية الاحتلال
الايطالي لها عام 1911



منظر عام لمدينة القديمة ويظهر برج الساعة
في الوسط، اواخر العهد الايطالي

منظر عام لميناء طرابلس في بداية اربعينيات
القرن الماضي



السراي المدخل الشرقي



باب البحر ويظهر شارع الاكواش المؤدي لقوس ماركوس
بباب البحر في المدينة القديمة أثناء الاحتلال الايطالي

باب المنشية



القنصلية الأمريكية (حوش الشجرة)

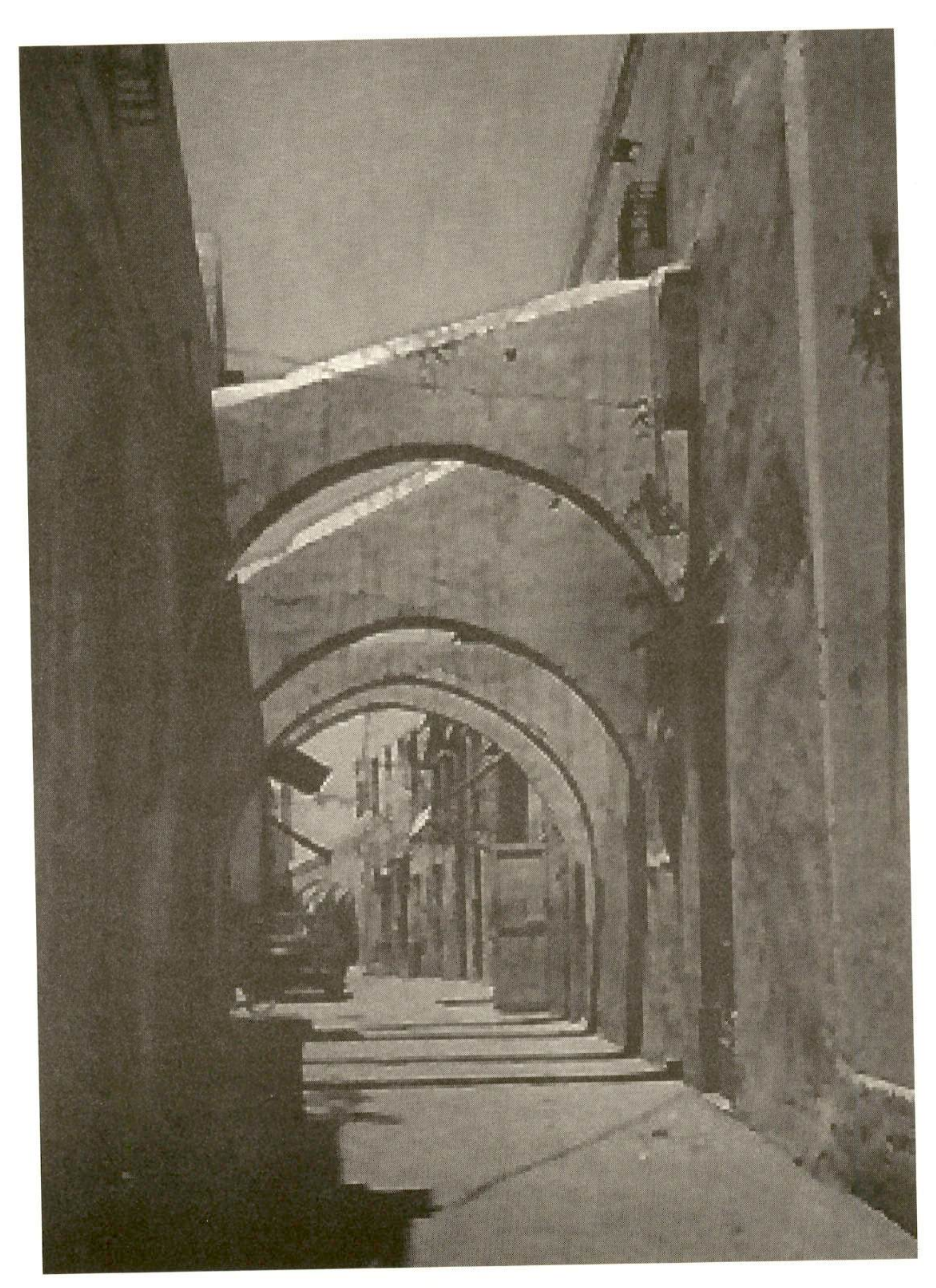


برج الساعة



حسن يوسف الدويش

الفصل الثاني



زقاق بالمدينة القديمة

تاريخ بلدية طرابلس والإحصاء السكاني بها

كانت مدينة طرابلس قبل سنة 1870م (يديرها شيخ البلد الذي يتولى تسيير الأمور داخل المدينة ولم تعرف النظام البلدي إلا خلال ولاية الوالي **علي باشا الجزائري** إذ أُنشئتْ البلدية بتاريخ 1870/12/7م، بهدف إجراء الإحصاء اللازم والكامل للسكان غير أن هذا الفرمان لم يفعل ولم تفعل البلدية شيء في هذا الخصوص إلا بعد دخول الإستعمار الإيطالي بسنتين حيث أصدر الحاكم العسكري الإيطالي سنة 1913م مرسوما بتحرك العمل ببلدية طرابلس بشأن الأحوال المدنية ومشروع إقامة نظام إداري وتنظيمي للبناء داخل مدينة طرابلس وضواحيها، خارج أسوار المدينة القديمة التي لم تعد تستوعب الزيادة في عدد السكان الذين توافدوا عليها من الضواحي طلبًا للعيش والرزق.

وأوصى المرسوم الملكي الإيطالي الحاكم العسكري لطرابلس أن يسارع في تكثيف الجهود والمسارعة في التخطيط لبناء الوحدات السكنية، وتخطيط طرابلس على النمط الإيطالي من تخطيط شوارع ورصفها ومد أنابيب الصرف الصحي، وأنابيب المياه إلى الوحدات السكنية الجديدة وتزويد الشوارع والبيوت بالطاقة الكهربائية حتى إذا ما وصلت العائلات الإيطالية الوافدة إلى طرابلس للإقامة والإعمار سوف يجدون السكن والعمل متوفرين وكأنهم في إحدى مقاطعات إيطاليا التي ربما عقدوا العزم على البقاء فيها إلى الأبد.

لذلك سخرت الحكومة الإيطالية جميع إمكانياتها المالية، والفنية العلمية، والعملية لبناء مدينة طرابلس على النمط الأوروبي الذي يتفق مع ذلك العصر بعد أن وجدوها شبه خالية من المباني ما عدا بعض المباني الهشة التي تضمها المدينة القديمة داخل أسوارها أو بعض المنازل التي بنيت على الطراز العثماني للباشوات وأركان السلطان داخل شوارع المدينة القديمة قرب قصر وحمام «**درغوت باشا**» والتي لازالت آثارها موجودة في شارع الأربع عرصات حتى الآن.

أما باقي أرجاء المدينة فقد كان عبارة عن أكوام من الرمل والقاذورات تذروها الرياح مما دفع بالحاكم العسكري الإيطالي فتح الباب للقادرين من المواطنين الليبيين الموالين لهم والعاملين معهم الراغبين في البناء خارج المخطط الذي رسموه لشوارع وساحات مدينة طرابلس الحديثة أن يتقدموا بطلباتهم ليتم تزويدهم بمساحات من الأراضي والسماح لهم باستغلالها في البناء القانوني سكنا وتجارة وقد استفاد من هذه الهبة القانونية المخطط لها أصلا الكثير من الأغنياء اليهود الذين كانت لهم اليد الطولى في التمهيد لدخول الإستعمار الايطالي إلى ليبيا وذلك بالعمل الاستخباراتي واللوجستي اللذين قاما بهما عن طريق النادي اليهودي الذي يؤمه كبار التجار، والصحفيين، والجواسيس اليهود والطليان وعديد من أصحاب الجنسيات الأخرى الذين عملوا بالتعاون مع الوكالة اليهودية العالمية ضد الحكم العثماني في آخر أيامه.

ومن الضروري أن نشير إلى الإحصاء السكاني المبدئي الذي أجرته الحكومة الإيطالية في 23 من يوليو عام 1913م وأسفر على أن عدد اليهود الإجمالي في ليبيا بلغ 14282 نسمة يعيش منهم 8729 في مدينة طرابلس منهم 4292 ذكور و4317 إناث أغلبهم يقيمون بمنطقه العمروص في سوق الجمعة.

وقامت الحكومة الإيطالية بتعداد آخر سنة 1920م سجل كثافةً تقدر بـ 65355، منهم 30000 مسلما و14882 يهوديا و16150 إيطاليا و4723 أربعة آلاف أغلبهم من المالطيين.

وبلغ عدد سكان طرابلس عام 1924 ميلادي حسب تقرير بلدية طرابلس 60000 ما عدا عدد العثمانيين الذين خلفهم العهد العثماني، وغيرهم من المقيمين إلى 11190 أوروبي و30000 مسلم و13260 يهوديا وقد بلغت نسبه الأوروبيين الإيطاليين 87 % تقريبا كما بلغ عدد الجاليات 12 جالية.

وبالمقارنة بين إحصائي 1921و1928م نلاحظ زيادة بواقع 12355 نسمة نوردها على النحو التالي:-

إحصاء بلدية طرابلس في عام 1870-1970م 7447 إيطالي و2320 يهودي، و1223 ألف أجنبيا، و375 ليبيا، كما ارتفع نمو اليهود السكاني من 13708 في 1929/1/31م إلى 14314 عند نهاية شهر ديسمبر1930م، وقد حافظت هذه الكثافة السكانية على المستوى الكمي طوال سنوات ثلاث من1930 – 1933م.

وخلال الفترة الممتدة من 1951م لنهاية 1952 إبان استقلال ليبيا نزح عن ليبيا نحو 22000 يهودي نقلتهم السفن الإسرائيلية من ميناء طرابلس إلى فلسطين، ويؤكد العديد من الباحثين بأن هجرة هؤلاء اليهود قد تمت بالتعاون بين الحكومة البريطانية التي كانت وصية على طرابلس وبرقة قبل الإستقلال و الوكالة اليهودية ولم يبق في ليبيا سوى عدد 4000 يهودي زاد عددهم بعد عام 1952 إلى 6500 نسمة منهم 6200 عاشوا في طرابلس و200 نسمة في بنغازي و100 في المدن الأخرى.

ومن خلال الدراسة المتأنية لهذه الاحصائيات يتضح لنا ما يلي:-

1. أن ليبيا ومدنها الكبيرة سواء كانوا عواصم أو محافظات أو ولايات كان سكانُها خليطًا من أجناس مختلفة وإن كان العنصر العربي أكثرها عددًا.

2. لقد أثر الفتح الإسلامي وما تبعه من إقامة للمهاجرين والمجاهدين الفاتحين من جعل ليبيا كلها بلداً إسلاميًا يدين بالإسلام عملا، وسلوكًا وعقيدة ولاسيما في المناطق خارج المدن الكبيرة كضواحي ليبيا حيث تشكلت القبائل بعشائرها وبطونها وأعرافها وفي المقدمة دينها الذي تمسكت به وعضت عليه بالنواجد للمحافظة عليه كما أدت هذه القبائل دورها بفاعلية خلال عهد الحكم العثماني حيث قاموا بالعديد من الثورات والانتفاضات ضد حكم الولاة والدايات الذين حكموا ليبيا.

3. أن العهد العثماني الذي بسط نفوذه على ليبيا لم يعير هذه البلاد أية أهمية تذكر من حيث البناء والعمران خارج أسوار المدينة القديمة إلا في سنواته الأخيرة حيث نشأت بعض الأحياء خارج أسوار المدينة القديمة كحي بلخير وميزران وغيرهما بل اكتفوا بتحصين أنفسهم ولاسيما منهم الولاة وأتباعهم بالقلعة التي جعلوا منها مقرا

لحكمهم ودواوينهم وسكناهم وتركوا المدينة القديمة لسكن صغار الموظفين والضباط العثمانيين وبعض الدواوين والمكاتب المتعلقة بقضاء مصالحهم كما أقامت البعثات الأجنبية قنصلياتها وبعثاتها الدبلوماسية في منطقه باب البحر القريبة من ميناء طرابلس أمام «قوس ماركوس أوريليوس» أحد الآثار الرومانية المرموقة التي خلفتها روما القديمة عند استعمارها.

وأخيرا فإن الواقع يفرض علينا القول أن مدينة طرابلس وليبيا بأقاليمها الثلاث وإن كان حظ منطقة الجنوب دائما قليلًا فإن البناء والتخطيط العمراني وإنشاء المدن،وتعبيد الطرق وإنشاء الصرف الصحي ومد أنابيب المياه والإنارة بأسلوب حضاري وما تبعه من إنشاءات حولت ليبيا من بلد كان يعيش في القرون الوسطى إلى بلد يقفز إلى مصاف عالم القرن المرتقب القرن «العشرين» الذي انقضى منذ سنوات قليلة، وحتى لو كانت إيطاليا دولة استعمارية جاءت لليبيا بهدف التوسع والبقاء فإن ما قامت به من بناء وتشييد ليس للشعب الليبي بل لأبنائها وحلمهم الذي راودهم في التخلص من العثمانيين وتكون ليبيا إحدى مقاطعات إيطاليا، غير أن الله تعالى شاء غير ذلك فأعاد ليبيا لأهلها باستقلالها التام عام 1951م، بلدًا مستقلًا وعضوًا بارزًا في الأمم المتحدة بعد أن مرت بأحداث جسام مدة ستين عامًا توجت بثورة شعبية أطاحت الديكتاتورية وحكم الفرد الذي استمر اثنان وأربعون عاما عانى فيها الشعب الليبي الأمرين من الظلم وكبت الحريات.

حدود محلات المدينة القديمة:-

قسمت المدينة إلى ست محلات كان لكل منها حدودها الإدارية المعروفة وفيما يلي تبيانُها:

أولاً: محلة باب البحر وحدودها الإدارية:

1. شمالًا: طريق ساحل باب البحر ابتداء من الميناء شرقًا حتى محطة توليد الكهرباء سابقا (فندق كورنثيا حاليًا)، غربًا مارًّا بشمال القبة خزان المياه الآن وضريح سيدي الهدار[1] الذي أزيل في عهد حكم الطاغية المقبور.

1 ضريح سيدي الهدار كان في مرتفع القبة المطلة على منطقة البياضة بباب البحر.

2. شرقًا: طريق ساحل البحر ابتداءًا من الميناء شمالًا وحتى سيدي درغوت جنوبًا مارًّا أمام سوق الحوت ونادي المدينة الرياضي السابق.

3. جنوبًا: شارع مدرسة عثمان باشا ابتدأء من طريق ساحل البحر شرقًا، مرورا بميدان السيدة مريم وجامع محمود حتى وسعاية أبو راس والقوس المؤدي إلى محطة توليد الكهرباء[1].

4. غربًا: الطريق الكائن أمام محطة الكهرباء ابتدأء من البحر شمالا وحتى مدخل محطة توليد الكهرباء جنوبًا.

ثانيًا- محلة حومة البلدية وحدودها الإدارية:

1. شمالًا: شارع مدرسة عثمان باشا ابتداء من طريق ساحل البحر شرقًا مارًّا في اتجاه الغرب بميدان السيدة مريم عند مدرسة الأربع عرصات.

2. شرقاً: طريق ساحل البحر ابتداءًا من جامع سيدي درغوت شمالًا وحتى ميدان السراي الحمراء (القلعة) مارا أمام مصرف ليبيا المركزي.

3. جنوبًا: شارع عمر المختار ابتداء من ساحل البحر شرق ميدان السراي إلى أمام المتجر الأزرق.

4. غربًا: طريق سيدي عطيه وقوس الصرارعي من جانب المتجر الأزرق وحتى مدرسة الأربع عرصات.

ثالثًا: محله كوشة الصفار وحدودها الإدارية:

1. شمالًا: شارع الأربع عرصات إبتداء من المدرسة شرقًا حتى شارع جامع محمود وسيدي الحطاب غربًا.

2. شرقًا: طريق جامع سيدي عطية وقوس الصرارعي وجامع الدروج ابتداءً من أمام

---

1 محطة الكهرباء الرئيسية لمدينة طرابلس غرب طريق البحر بالقرب من باب الجديد وقد أزيلت وبنى في مكانها فندق كورنثيا.

المتجر الأزرق[1] وحتى ميدان السيدة مريم شرق مدرسة الأربع عرصات.

3. جنوبًا: من شارع عمر المختار ابتداءً من أمام المتجر الأزرق وحتى والمصرف الزراعي[2] (شارع الرشيد).

4. غربًا: شارع جامع محمود نقطة تلاقيه من شارع الأربع عرصات في اتجاه الجنوب حتى شارع عمر المختار عند المصرف الزراعي.

رابعًا: محلة حومة غريان وحدودها الإدارية:-

1. شمالًا: شارع جامع محمود ووسعاية أبو راس ابتداء إلى أن يلتقي بالطريق الواقع أمام محطة توليد الكهرباء.

2. شرقًا: طريق جامع محمود من نقطه تلاقيه مع جامع الدروج ابتداء من أمام الأربع عرصات متجهًا نحو الجنوب حتى المصرف الزراعي بشارع عمر المختار.

3. جنوبًا: من شارع عمر المختار ابتداء من أمام المصرف الزراعي مارًا غربًا أمام معرض طرابلس الدولي حتى ميدان التحرير بباب قرقارش ومجمع الحدائق.

4. غربًا: من مدخل محطة توليد الكهرباء ومصنع التبغ الحكومي السابق (الريجية) مرورًا بخلف سوق الثلاثاء القديم والمصيف البلدي وخلف معهد ابن منظور للمعلمين السابق إلى ميدان التحرير ومجمع الحدائق.

في ظل عهد الانتداب البريطاني على ليبيا 1943-1951م بلغ عدد الأحزاب السياسية ذات الأهداف والسياسات، والمصالح، والمبادئ، والعقيدة الواحدة ما يقارب سبعة أحزاب وقد فشلت في استمرارية وجودها لسببين:-

أولهما:- الأمية العامة المتفشية في الشعب وثانيهما: عدم انتهاج هذه الأحزاب تطبيق روح الديمقراطية تحت ما يشبه الإحتلال البريطاني وهذه الأحزاب هي:-

1 المتجر الأزرق: كان مقره بباب الحرية يبيع المواد التموينية.

2 المصرف الزراعي: كان مقره خلف عمارة سيدي حمودة التي أمر النظام السابق بإزالتها لينشأ الساحة الخضراء.

حزب العمال:

تأسس عام 1947 برئاسة «**بشير بن حمزة**» و «**محمد عبد العزيز**» بعد انفصاله عن حزب الكتلة، وقد نادى بقيام ليبيا متحدة تحت العلم السنوسي.

الحزب الوطني:

تشكل تحت قيادة «**أحمد الفقيه حسن**» واعترفت به رسميًا الإدارة العسكرية البريطانية يوم 18 ابريل 1946م وحدثت خلافات بين المؤسسين والأعضاء الآخرين أدت إلى انسحاب المؤسس وتقلد الرئاسة بعده «**مصطفى ميزران**» الذي غير مبادئ الحزب وفي مقدمتها عدم الاعتراف بإمارة «**إدريس السنوسي**».

حزب الأحرار:

برئاسة«**الصادق بن زراع**» تأسس هذا الحزب في 11 مارس 1948م وكان «**علي دربيكة**» سكرتير الحزب بالإتفاق مع رئيس الحزب انفصلا عن الحزب الوطني ليشكلا حزب الأحرار.

حزب الوطنية الحرة[1]:

شكل هذا الحزب أحمد الفقيه حسن يوم 30 مايو 1946 وضمت أسرته السّاسة **علي الفقيه حسن ومحمد المبروك، ومحمد فرنكة، وقنابه، والعيساوي، ومحمد البوسيفي، وبشير بن حمزة، ويوسف مشيرقي، ومصطفى حسن بك، وعبد الرحمن دقدق** .

حزب الاتحاد المصري الطرابلسي:

أسسه **علي رجب، ويوسف المشيرقي** في 16 ديسمبر 1946م بعد انسحابهما من حزب الكتلة.

1 ذكريات الهادي المشيرقي ص183-185.

زقاق وآبار ومواقع بالمدينة القديمة

البياضة.... موقع صغير، داخل البحر في الجانب الشمالى من أسوار المدينة القديمة مقابلا للقبة التي كان بها برج التراب، واشتهر هذا الموقع باسم البياضة بسبب خلوه من الحشائش البحرية وبياض عمقه.

البوغاز.... وهو مقر ميناء مدينة طرابلس وموقعه في الناحية الشمالية الشرقية من المدينة.

زنقة بن قلاو... زقاق نافذ داخل المدينة القديمة ويتفرع من زنقة دحمان ويرتبط مع شارع الربى نسيم.

زنقة بن محمود.... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع جامع الدروج.

زنقة بزيو.... زقاق غير نافذ بداخل أسوار المدينة القديمة يتفرع من شارع كوشة الصفار باتجاه الناحية الغربية.

زنقة البلدية.. زقاق نافذ بداخل أسوار المدينة القديمة، يتفرع من شارع قوس الصرارعي، باتجاه الناحية الغربية إلى أن يتصل بشارع كوشة الصفار واشتهر هذا الزقاق باسم «زنقه البلدية».

حومة البلدية... هو تقسيم إداري يقع داخل أسوار المدينة القديمة ويشمل منطقة الأسواق وشارع قوس الصرارعي، وشارع جامع الدروج وشارع الأربع عرصات وسميت بحومة البلدية بسبب وجود مقر البلدية فيها خلال العهد العثماني الثاني وبلغ تعداد سكانها خلال عام 1917م (1252) نسمة.

زنقة البيليك... زقاق نافذ داخل أسوار المدينة القديمة ويتفرع من شارع اسبانول ـ مقر القنصلية الإسبانية ـ إلى أن يصل بشارع جامع محمود.

زنقة الباز... زقاق نافذ بداخل أسوار المدينة القديمة ويتفرع من شارع سيدي عمران باتجاه الناحية الشمالية إلى أن تصل بزنقة سيدي القمودي.

زنقة بي بنغازي (الأولى)... زقاق نافذ يتفرع من شارع كوشة الصفار باتجاه الناحية الشمالية الشرقية إلى أن يتصل بزنقة سيدي عمورة، واشتهر هذا الزقاق باسم بي بنغازي نظرا لسكن عائلة بي بنغازي المتفرعة من الأسرة القرمانلية التي حكمت طرابلس من 1711-1835م.

زنقة بي بنغازي (الثانية)... زقاق نافذ يتفرع من شارع بير الشامي «سوق الحرارة» باتجاه الناحية الشرقية إلى أن يتصل بزنقة بي بنغازي الأولى حيث يوجد جامع الصقلاني[1].

محلة باب البحر... تقسيم إداري يقع داخل أسوار المدينة القديمة ويشمل منطقة باب البحر قلب المدينة، وقد جاء اسم باب البحر نسبة إلى باب يتخلل السور ويؤدي إلى الميناء، وقد بلغ عدد سكان هذه المحلة، خلال عام 1917م (2262) نسمة.

شارع باب البحر...طريق نافذ بداخل أسوار المدينة القديمة يمتد من منفذ زنقة «الريح» إلى موضع باب البحر ويمتد جنوب إلى السراي الحمراء، وسوق المشير.

زنقة بن موسى... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع جامع الدروج باتجاه الناحية الشمالية الشرقية.

زنقة بيت المال... زقاق نافذ، ويتفرع من شارع جامع الدروج باتجاه الناحية الشمالية الشرقية إلى أن يتصل بسوق الترك، وما يسمى باسم «زنقة بيت المال» بسبب وجود البيوت التي تخص عائلة الحاج محمد شالابي بيت المال الذي كان يعمل كاتبا ثم رئيسا لديوان الرسائل ثم ناظرًا لبيت «المال» إلى أن أصبح الوزير الأكبر في عهد يوسف القرمانلي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر[2].

زنقة بن سعيدان... زقاق صغير غير نافذ به بيتان أحدهما لابن سعيدان، والآخر يدعى حوش الرملي يتفرع من زنقة سيدي عموره القرمانلي.

---

1 كتاب سكان ليبيا – تعريب خليفة محمد التليسي ص 77 وص 63،67،68.
كتاب اليوميات اللّيبية— حسن الفقيه حسن.
خريطة طرابلس الغرب _فهمي بك 1910 م.
2 كتاب تعريب خليفة التليسي ص 78.
كتاب سكان ليبيا تعريب خليفة التليسي ص 68.
كتاب أعلام ليبيا للطاهر أحمد الزاوي ص 320.

زنقة بريون... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع كوشة الصفار باتجاه الناحية الغربية، وتعرف أيضا «بزنقة المجر».

زنقة البقار... زقاق نافذ يتفرع من شارع قوس الصرارعي باتجاه الناحية الشمالية الشرقية إلى أن يتصل بسوق الترك.

زنقة البدوي.... زقاق نافذ يتفرع من سوق النجارة باتجاه الناحية الغربية إلى أن يتصل بسوق الترك.

زنقة بن زكري.... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع سيدي سالم المشاط باتجاه الناحية الشمالية للمدينة واشتهر هذا الزقاق بهذا الاسم بسبب سكن عائلة بن زكري الذي كان منها الشاعر المعروف «مصطفى بن زكرى».

زنقة البريكشي... زقاق نافذ يتفرع من شارع حومة غريان بالناحية الشمالية إلى أن يتصل بشارع جامع محمود.

زنقة باش آغا.... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع الأربع عرصات باتجاه الناحية الغربية للمدينة القديمة.

زنقة بعيرة.... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع قوس الصرارعي باتجاه الناحية الغربية.

شارع بير الشامي... طريق نافذ داخل أسوار المدينة القديمة يتمدد من مركز تقاطع طرق حومة غريان مع كوشة الصفار باتجاه الناحية الشمالية الشرقية إلى أن يتصل بسوق الحرارة وقد اشتهر هذا الشارع باسم «بير الشامي» بسبب وجود بئر ماء بالزاوية الشمالية الشرقية من مركز التقاطع كما يوجد بهذا الشارع «الحمام الكبير» الذي بناها الوالي عثمان باشا الساقزلي (1649-1672) كما يوجد به جامع «الصقلاني»، وجامع «ابن طبيب».

ويوجد به أيضا سوق الحرارة الذي كان التجار يبيعون فيه الأقمشة الحريرية وقد غلب اسم السوق على اسم الشارع فسمي سوق الحرارة بدل اسم بئر الشامي، وكان فيه «مكتب العرفان» يلتقي فيها الوطنيون الأحرار المناوئين للإحتلال الإيطالي فاتخذت

السلطات الإيطالية قرارا بقفله بعد أن أصبح يشكل بؤرة خطورة عليها.

شارع الأكواش... يقع في منطقة باب البحر بالقرب من الأثر الروماني «ماركوس اوريليوس» وهو نافذ إلى الجهة الغربية للمدينة وسمي بهذا نظرا لتعدد «الأكواش» القديمة التقليدية فيه كما كان أغلب سكانه من الليبيين واليهود والمالطيين ويمتد ليصل إلى شارع الحارة الكبيرة.

شارع الحارة الصغيرة... وموقعه من بداية سوق الحرارة غربًا إلى ما قبل الباب الجديد حيث المنعطف يمينًا إلى شارع ضيق به معبد يهودي هناك تجد الجزارين والباعة لكل شيء لتجار اليهود، وما يلفت النظر في هذا الشارع كثرة الخمارات وفقراء اليهود والقذارة المفرطة من المخلفات.

الحارة الوسطى... وهي لا تبعد كثيرا عن الحارة الصغيرة بل تقع في الوسط بين الحارتين الصغيرة والكبيرة التي تقع بالقرب من باب البحر، وهناك العديد من الشوارع والزقاق داخل أسوار المدينة القديمة شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا يصعب على المرء إحصائها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر بداية من قوس البسطي بحومة غريان نزولا إلى شارع سيدي عمران.

زنقة البزنطي... وهو زقاق غير نافذ من عدة منازل.

زنقة الحقة... طريق غير نافذ يتفرع من شارع كوشة الصفار باتجاه الناحية الغربية.

زنقة حواء علجية... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع كوشة الصفار من الناحية الغربية ويقال أنه سمى بهذا الاسم لأن سيدة من «العلجيات» اللاتي أتى بهن الأسطول العثماني، تزوجها الباشا أحمد القرمانلي وسكن بهذا الزقاق سنة (1711-1745م)[1] «العلجية» المرأة ذات البياض الناصع.

زنقة الحماص... زقاق نافذ يتفرع من وسعاية أبو راس.

زنقة الحوات... زقاق غير نافذ يتفرع من زنقة قوس البسطي باتجاه الناحية الغربية.

زنقة الحديدة ... زقاق يتفرع من الحارة الكبيرة باتجاه الناحية الجنوبية.

1 كتاب معجم البلدان الليبية – الطاهر أحمد الزاوي ص119.

زنقة الحمام الكبير ... زقاق نافذ يتفرع من زنقة بير الشامي «سوق الحرارة» إلى الناحية الشمالية ويمتد باتجاه الناحية الشمالية الشرقية إلى أن يتصل بشارع الأربع عرصات ويعرف هذا الزقاق بزنقة «الكلهان»[1] و«الكلهان» نفق صغير تحمى من خلالها النار التي تزود بها الكوشة.

زنقة الحمام الصغير (وقف السور) نافذ يتفرع من زنقة جامع درغوت باشا باتجاه الناحية الشرقية إلى أن يتصل بتقاطع سوق الترك مع «زنقة مدرسة الكاتب» المعروفة (بزنقة الريح) ويوجد في هذا الزقاق الحمام الصغير المسمى «بحمام درغوت باشا» بسبب وجوده خلف جامع درغوت باشا ويحتمل أن يكون قد شيده اسكندر باشا سنة 1604.

زنقة حمام النسي... زقاق نافذ يتفرع من طريق الحلقة باتجاه الناحية الشمالية الغربية إلى أن يتصل بشارع قوس الصرارعي ويوجد بهذا الزقاق حمام النسي الذي يعرف أيضا «بحمام الشيخ» أو كان من أملاك شيخ البلاد «علي القرقني»[2].

شارع حسّان... طريق نافذ يعرف حاليا بشارع كوشة الصفار ويمتد من مدخل الزاوية الكبيرة باتجاه الناحية الشمالية إلى أن يتصل بكوشة الصفار القريبة من الولي سيدي الصفار، ويبدو أن هذه التسمية قد جاءت بسبب وجود أحد منازل « مادي حسان» الذي كان يعمل حلاقا ليوسف باشا القرمانلي حاكم طرابلس (1795-1832م)، ورأي آخر يقول أن هذه التسمية جاءت بسبب وجود أحد الأطباء العثمانيين يسمى «عريف حسان» ويقع بجانب زنقة حواء علجية.[3]

زنقة الحنش... زقاق نافذ بعد زنقة المكني المتفرع من شارع كوشة الصفار إلى أن يتصل بزنقة أبو دبرة من الناحية الغربية، وقد عرف هذا الزقاق بتعرجاته الكثيرة كما اشتهر هذا الزقاق أيضا باسم زنقة «زعطوط «وكذلك باسم زنقة «السبع لوصات»[4].

زنقة الخمري... زقاق نافذ يتفرع من زنقة جامع درغوت باشا باتجاه الناحية الشمالية

1 كتاب الحوليات اللّيبية – شارك فيرو ص 285.
2 كتاب طرابلس تحت أسرة القرمانلي – رودولفو ميكاكي.
3 سجلات أوقاف طرابلس.
4 خريطة طرابلس غرب– فهمي بك 1910 م.

ثم يتجه إلى الناحية الشمالية الشرقية إلى أن يتصل بالواجهة البحرية للمدينة، وكان يوجد بهذا الزقاق أقدم مسرح عرف في ليبيا كما يوجد به مبنى يعرف بفندق بعيشو ملاصق لفندق آخر يعرف بفندق القرمانلي أو فندق الرمانة الذي استعمل مقرا لقنصلية البندقية إبان العهد القرمانلي.

زنقة الدباغ... زقاق نافذ متفرع من شارع الزاوية الكبيرة باتجاه الناحية الجنوبية إلى أن يتصل بباب العدالة (الحرية) اشتهر هذا الزقاق باسم «زنقة الدباغ» بسبب وجود مسجد الدباغ الذي أسسه الكاهية محمد الدباغ ويحتمل ان تكون هذه التسمية قد جاءت بسبب وجود عدد من مدابغ الجلد بها.

زنقة دريبيكة... زقاق غير نافذ يتفرع من زنقة الفنيدقة باتجاه الناحية الشمالية الشرقية.

زنقة الريح... زقاق نافذ يتفرع من شارع سيدي درغوت باتجاه الناحية الغربية إلى يتصل بمركز تقاطع سوق الترك وزنقة الحمام الصغير واشتهر هذا الزقاق باسم زنقة «الريح» بسبب انكسار التيارات الهوائية المتحركة أمام واجهته البحرية.

زنقة الراعي... زقاق نافذ بداخل أسوار المدينة يتفرع من شارع جامع محمود خازن دار باتجاه الناحية الغربية إلى أن يتصل بزنقة الحديدة.

زنقة الزلمومية... زقاق يتفرع من سوق الترك باتجاه الناحية الغربية إلى أن يتصل بشارع الفنيدقة، وسمي هذا الزقاق بهذا الاسم بسبب ضيقه المفرط.

زنقة زميت... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع قوس الصرارعي باتجاه الناحية الشمالية الشرقية واشتهر الزقاق بهذا الاسم لأن العائلة «زميت» كانت تقيم به.

زنقة الزمرلي... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع كوشة الصفار باتجاه الناحية الشمالية

زنقة السراي... زقاق قديم داخل أسوار المدينة القديمة يمتد من ساحة قوس ماركوس اوريليوس باتجاه الناحية الغربية إلى أن يصل موقع القنصلية الإنجليزية بشارع الأكواش وعرف باسم «زنقةالسراي» نسبة إلى سراي درغوت باشا التي شيدها خلال حكمه 1553 -1565م واندثرت الآن[1].

زنقة السماوي... زقاق غير نافذ يتفرع من شارع كوشة الصفار باتجاه الشمال.

1 كتاب سكان ليبيا تعريب خليفة التليسي.

زنقة اسكندراني... زقاق نافذ يتفرع من وسعاية البولاقي باتجاه الناحية الغربية إلى أن يتصل بشارع الربي نسيم الآن شارع جامع بن سليمان.

شارع سيدي عموره... طريق نافذ يمتد من شارع قوس المفتي باتجاه الشمال إلى أن يتصل بزنقة قوس اللحلاحي، واشتهر هذا الطريق باسمه نظرا لسكن «عموره» باياين يوسف القرمانلي باشا طرابلس به 1795 – 1832م يقابله في التقاطع زنقة المجروح وهي زقاق نافذ إلى كوشة الصفار به زنقة المؤقت وبها عدة منازل.

زنقة قشور... زقاق غير نافذ فيما سبق ثم تهدمت منه الكثير من المنازل أدت إلى نفاذه على شارع سيدي عمران بسبب إهمال النظام السابق للمدينة القديمة ومن سكانه عائلات فنقة، والساحلي وشنيقرو أبوريانة.

زنقة الكوشة... وهي زقاق أصبح نافذا بعد تهدم بيوته كلها على شارع سيدي عمران ومن سكانه عائلات العائب، الزياني، والجنزوري، وطرينة.

زنقة ابوقنديل... زقاق صغير غير نافذ به بيتان فقط يقابله على طريق منزل القبرون وفارس.

زنقة ابو توتة... زقاق طويلة مقابل لزنقة قشور وهو غير نافذ به العديد من البيوت منها منزل بن سليمان وباني وعائلة ابو خبطة وعائلة الخباز.

زنقة ابو دبره... موقعها أمام زنقة الكوشة وهي نافذة إلى كوشة الصفار وشارع سيدي عمران بها عائلة نوارة وبن الإمام والقاضي والبرعي وعائلات الشماخي ونشنوش واريبش والمغربي.

زنقة زعطوط... وهي زقاق نافذ إلى كوشة الصفار ومشهورة بزنقة الحنش وبزنقة السبع لوصات أو تحويدات وهي مشهورة بلوصاتها الضيقة ومن سكانها عيلة بن مفتاح وسويد والقاضي والعويتي.

زنقة الخلوة... سميت بذلك نسبة لخلوة كانت بها يقرأ فيها القرآن وهى الآن مقر زاوية المكني.

زنقة القاجيجي... وموقعها داخل كوشة الصفار بجانب ضريح سيدي الصفار، وسميت بهذا الإسم لأن عائلة القاجيجي كانت تسكن بها.

زنقة الجمل... تقع أيضا بكوشة الصفار أمام جامع بن موسى.
زنقة ابو رقيقة... سميت بذلك لأن عائلة أبو رقيقة كانت تسكنها.
زنقة شلاكة... بالقرب من هذه الزقاق بها طريق طويل وغير نافذة.
زنقة النخلي... وموقعها أيضا كوشة الصفار وهي زقاق نافذ إلى قوس الصرارعي وزنقة الفنيدقة وباب الحرية شمالا إلى باب البحر.
زنقة ابو ديب... وهي بكوشة الصفار وغير نافذةوتسكن بها عائلة أبو ديب.
زنقة الوصيف... وهي بكوشة الصفار وغير نافذة تسكن بها عائلة الوصيف، تتفرع من شارع سيدي الحطاب لتصل إلى زنقة البريكشي سدت من الجهتين.
زنقة الريفي... زقاق نافذ يتحدر من زنقة بي بنغازي إلى أن يتصل بزنقة العربي.
زنقة شداخ... زقاق غير نافذ كان يسكنه عالم الدين الشيخ طروشه.

وهناك العديد من الشوارع والزقاق لم نذكرها لعدم توفر الإحصائيات والوثائق الخاصة بها وعليه نكتفى بالعدد الذي قدمنا من الشوارع والزقاق.

جميع الشوارع والزقاق التي ذكرت داخل أسوار المدينة القديمة ولا بأس من ذكر بعض أسماء الطرق والأسماء ذات العلامة الفارقة خارج أسوار المدينة.

الحجرة المعلقة... كتلة صخرية ترتفع فوق مدخل باب زناتة عند السور الجنوبي للمدينة القديمة.

زنقة الحلقة... زقاق نافذ يقع شرق مدينة طرابلس القديمة ويتفرع من شارع زاوية الدهماني باتجاه الناحية الجنوبية إلى أن يتصل بزنقة كوشة القريقني واشتهر هذا الزقاق أيضا باسم «زنقة فرنسيس».

حوش القبطان... منزل ريفي قديم شيده «حسين القبطان» وهو علج من أصل ايطالي «كالابريزي» كان أمير لاي أثناء حكم ابراهيم التارزي الذي حكم طرابلس سنة 1687م[1]، وهذا المنزل نفذ فيه أحمد باشا القرمانلي مذبحة ضباط الإنكشارية سنة

1 خريطة طرابلس الغرب – فهمي بيك 1910.

1711م، ويقع هذا المنزل بالقرب من جامع القبطان الذي شيده حسن القبطان نفسه.

حوش الحبس... ويقع بداخل أسوار المدينة القديمة عند وسعاية النصارى»السيدة مريم» حاليا... هذا المبنى هو السجن العثماني القديم الذي شيده عثمان باشا الساقزلي للأسرى النصارى ويطلق عليه اسم «حمام ميكيلي».[1]

طريق الحلقة... داخل السور يربط سوق الصياغة بباب الحرية واشتهر بحركته التجارية النشطة وكان سوقا للنخاسة (الرقيق).

1 معجم البلدان اللّيبية – الشيخ الطاهر الزاوي ص 103.

أدوات السلطة بالمدينة القديمة

تستمد المدينة القديمة سلطاتها المحلية من السلطة الحاكمة للبلاد باعتبارها جزء من مدينة طرابلس العاصمة ونظرًا لتعدد المشارب والدين المختلف، فقد يسرت لهم الدولة حرية العبادة في المساجد والمعابد، والكنائس التي كان يؤمها المسلمون واليهود والمسيحيون وغيرهم من الجاليات الأخرى، كما يسرت لهم أيضا الهيئات المدنية الأخرى التي تهتم بمصالحهم كشيخ الشارع بالنسبة للمسلمين ومراكز الشرطة لكل محلة ودار القضاء للمسلمين وما يقابله من هيئات أجنبية تهتم بمصالح السكان غير المسلمين.

س: ما هو دور شيخ الشارع؟

ج: يختار شيخ الشارع من أعيان المحلة وهو رجل عرف بالنزاهة والمصداقية من سكان المحلة عاش في المدينة القديمة وعرف رجالها وشيوخها وشبابها حديث الزيجات على يديه بحيث أصبح ملماً بجميع العائلات أب وأم وأطفال، كما يعرف سلوك العائلات وأبنائهم وقد يكون من حُفّاظ القرآن أو أجزاء منه ملما ببعض فصول الشريعة الإسلامية في الزواج والطلاق، وقد يكون أمياً لكن يتمتع بالشخصية التي تؤهله لقيادة هذه المهمة بمعاونة إبنه الأكبر أو غيره ممن يجيدون القراءة والكتابة.

من صميم عمله حل المشاكل الصغرى التي تقع بين سكان المحلة وحل مشاكل الطلاق بمحاولة التوفيق بين الطرفين فإن لم يفلح في ذلك يحال الأمر إلى المحكمة الشرعية التي كان مقرها بمنطقة قوس الصرارعي بالقرب من شارع الأربع عرصات.

كما كان من عقد القرآن عند الزواج، ومنح العلم والخبر والتعاريف التي تطلبها المصالح الحكومية الأخرى من المواطن، ويسبغ عليه أهل المنطقة من الرجال والشباب مسحة من المهابة والاحترام.

يتم تعيينه من قبل بلدية طرابلس والسلطة المدنية فيها ومقره في مكتبة داخل المحلة ويعرف بمكتب شيخ الشارع، وفي حالة النزاعات الكبيرة أو السرقة فإنه يحيل هذه المسائل إلى مركز الشرطة بالمحلة.

مركز الشرطة:

أطلق عليه في العهد العثماني اسم مكتب «الجندرمة»، في عهد الإيطالي «الكازيرما» وفي عهد الإدارة البريطانية ما قبل الاستقلال «البوليس»، وأما بعد الاستقلال فقد بقي على نفس الاسم ولم يتغير اسمه إلى مركز الشرطة إلا بعد سنة 1969م.

وكانت مراكز البوليس أو (الشرطة) ووزارة الداخلية في كل العهود هي المسؤولة بشكل مباشر على جميع المراكز في ليبيا حيث تمنح صلاحيات مأمورية الضبط القضائي والتحقيق في الجرائم الصغيرة والكبيرة التي ترتكب في المحلات التابعة له تتحول بعد 24 ساعة إلى المحاكم المختصة للفصل فيها هذا قبل إنشاء النيابات التي أخذت دور التحقيق مع المتهمين بعد التحقيقات التي تجرى في مراكز الشرطة ثم تحويل المتهمين إلى القضاء ولم يفعل دور النيابات هذا إلا بعد الاستقلال بسنوات.

ومن مهام مراكز مركز الشرطة في المنطقة واستتباب الأمن وتسيير الدوريات والفض في الخصومات بين الناس.

دور القضاء:

ينحصر دور القضاء في الاطلاع على المحاضر الاستدلالية الواردة من الشرطة والنيابة مع سؤال المتهمين الذين يمثلون أمام القاضي وحدهم أو برفقة محامٍ يسخرونه هم أو تتولى المحكمة نفسها تعيينه إذا لم يكن المتهم قادرًا على دفع أتعابه، ويحكم القاضي بما يمليه عليه ضميره والقانون.



زقاق بالمدينة القديمة

طريق الحلقة



سوق الترك

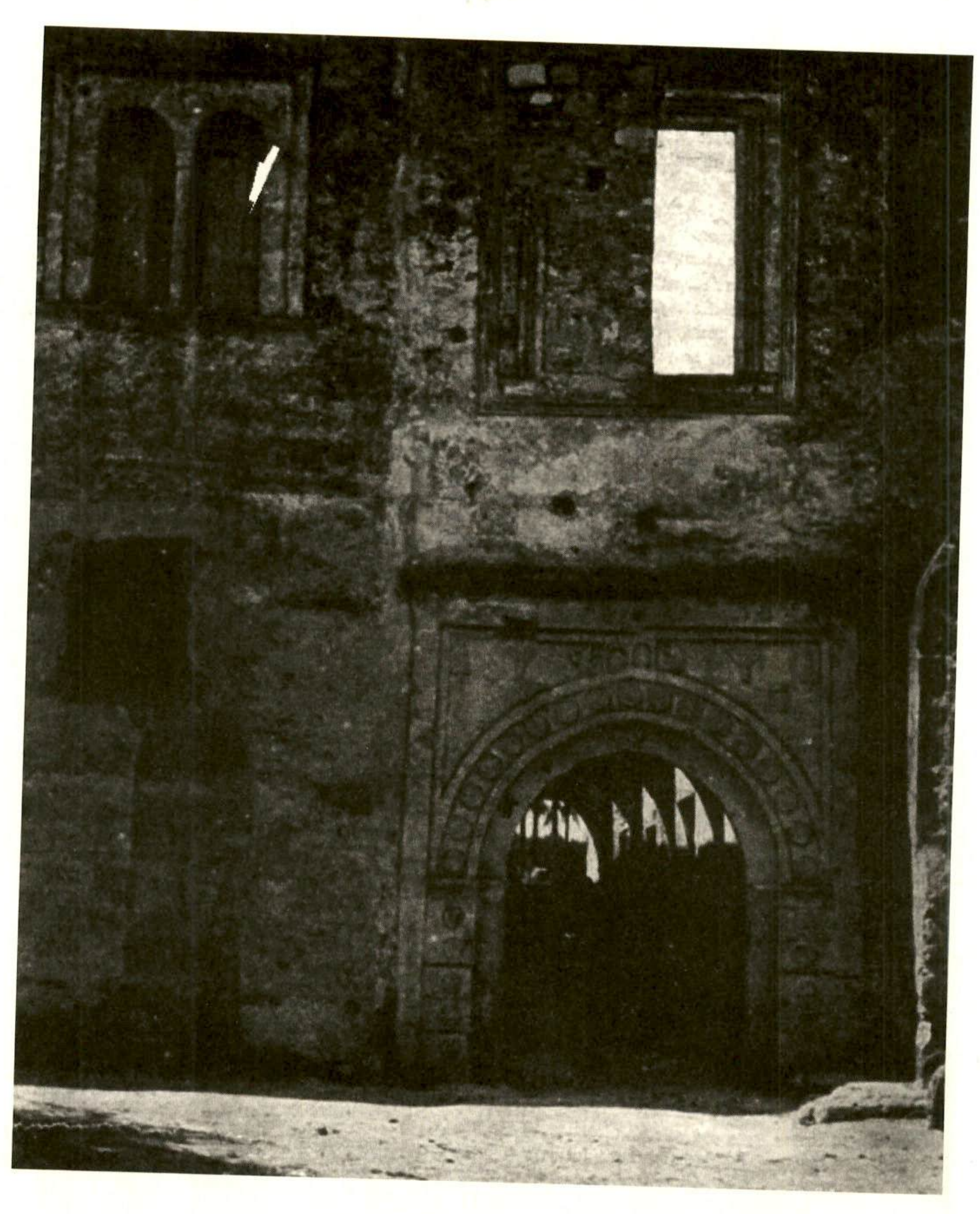


بئر أبو مليانة أثناء الاحتلال الإيطالي

باب الخندق



جامع الخروبة



حوش حسين القبطان

مخازن تموين الجيش العثماني

عمارة الأوقاف بميدان الشهداء



قوس ماركوس أوريليوس



الفصل الثالث



رواق الكرامة

الثقافة والفنون

للمدينة القديمة ثقافتها الخاصة التي نبعت من موروثها المتعاقب من جيل إلى جيل من أسلوب حياة (عادات، وتقاليد، ولغة، ودين، وقيم وأخلاق) وتضمّ إلى جانب ذلك موروثها الذي تشكل من مجموعة الحضارات التي مرت بها إبان العهود السابقة حيث أضافت عليه ما أنتجته ثقافتها حتى أصبح التزاوج بين هذه الثقافات المختلفة فسيفساء من ميزات هذه المدينة وجعلت منها قبلة للزوار الآخرين ومنهلاً استقت من الدول المجاورة فنونها وآدابها إلى جانب العادات والتقاليد لتضيفها إلى موروثها الحضاري.

وقد تميزت المدينة القديمة بمحلاتها بالتواصل مع مواقع الأدب، والعلم، والفن بمختلف أنواعها وصنوفها وعاش بين ظهرانيها العديد من الأدباء والعلماء والفنانين ورجال الفكر من شعراء وكتاب وصحفيين قدموا الكثير من الإبداعات في ساحة الأدب والمعرفة الإنسانية ونحاول بما تسعفنا به الذاكرة وما ترويه شفاه المعاصرين لهذا الزمن إلقاء الضوء على كل منها على حدة.

دور العبادة والكتاتيب:

تزخر المدينة القديمة بكل محلاتها وشوارعها وزقاقها بالمساجد وكتاتيب تحفيظ القرآن حتى أنه لم يخلُ بيت في المدينة إلا وبه حامل لكتاب الله أو على الأقل أجزاء منه ولعل زنقة الفنيدقة الواقعة بقوس الصرارعي شرق المدينة القديمة وما جاورها من مواقع مرتبطة بها زاخرة بالمساجد نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر... جامع الناقة هو أقدم جامع في ليبيا على الإطلاق ذكره العديد من الرحالة الذين زاروا مدينة طرابلس في العهد العثماني وما قبله ويذكر أنه بني في العصر الفاطمي بعد بناء الأزهر الشريف في مصر بسنين قليلة وكان يطلق عليه الجامع الأعظم ويقال أن ناقة أحد الأولياء أناخت أمامه فاطلق عليه اسم جامع الناقة وأحيط بخلوة أو زاوية تسمى «بالقادرية» كان يتجمع فيها العلماء وحافظو القرآن لإلقاء دروس في الفقه وعلوم الشريعة ومنهم العالم الشهير الشيخ علي سيالة والشيخ بركان و كثير من الأتباع من أعيان المدينة القديمة وما جاورها ولا زالت هذه المنارة الدينية قائمة حتى الآن يليها جامع الخروبة بالفنيدقة، ثم نتجه إلى

سوق الترك حيث يوجد جامع شائب العين، وجامع أحمد باشا القرمانلي، ثم جامع الدروج و جامع سيدي الشنشان الملاصق لمصرف ليبيا المركزي.

وكان الجامع الأخير سيدى الشنشان يؤمه الرجال والنساء ليلة المولد النبوي الشريف للتبرك بشعرة الرسول محمد صل الله عليه وسلم وهي عادة درج عليها المسلمون داخل وخارج المدينة منذ العهد العثماني واستمرت طيلة الحكم الإيطالي وعهد الإدارة البريطانية ثم الإستقلال حيث كانت أمهاتنا تصحبن معهن لننال البركة من شعرة الرسول صل الله عليه وسلم التي كانت بمعية القيِّم وهي مصانة داخل زجاجة بين يدي الإمام وما على الزوار سوى الوقوف في طوابير لتقبيل هذه الشعرة المباركة ويقال أن أحد الولاة العثمانيين الثقات قد أتى بها من إسطنبول وقد نقل بعض ما يخص الرسول صلى الله عليه وسلم كبردته وعصاه وبعضاً من شعر لحيته الكريمة ثم نقلت خصلة من هذا الشعر لجامع درغوت واستمر الناس في زيارتها حتى بطلت هذه العادة في العهد الذي تولى فيه حكم البلاد القذافي وأتباعه الذين سفهوا هذه العادة واعتبروها من التخلف الفكري والإجتماعي.

ونضيف إلى ما ذكرنا من مساجد جامع سيدي عطية، وجامع النخلي، وجامع القروش، وجامع العويتي، وجامع بن موسى، و جامع محمود، وجامع الباز وجامع السنوسية، وجامع سيدي سالم المشاط، وجامع قرجي، وجامع ابو رقيبة، ومساجد أخرى غيرها لم يحضرني ذكرها كل هذه المساجد كانت تؤدي وظائفها فيها إلى جانب الكتاتيب التي كانت منتشرة في المحلات والشوارع لعل أبرزها كتاب الشيخ مختار حورية بقوس الصرارعي الذي كان جوهرة الكتاتيب في تحفيظ القرآن الكريم وقد درس وتخرج منه العديد من موظفي الدولة الذين عملوا في مراكز مرموقة قبل إنشاء الجامعات بل حتى المدارس الثانوية في ليبيا يليه في الترتيب كتاب الشيخ الزرقاني بحومة غريان به الشَّيخان محمد باباني ومحمد البيزنطي، اللذان خرَّجا العديد من الشباب وكانوا من خيرة شيوخ تحفيظ القرآن الكريم رحمهم الله تعالى.

وكانت المساجد بالمدينة القديمة عبارة عن منارات تعقد فيها حلقات الدروس ولاسيما في شهر رمضان المبارك حيث يتبادل العلماء مكانهم في إلقاء الدروس في علوم الشريعة وتفسير آيات القرآن الكريم للعامة من المصلين وتبصيرهم بجوهر الدين الإسلامي وشرح العبادات في الدين والاجابة على أسئلة المصلين فيما يجهلونه من العبادات، كالوضوء الصحيح للصلاة، وصلاة المسبوق، وترقيع الصلاة، وأجر صلاة الجماعة وأحكامها، وغير ذلك فيما يخص الحياة الدينية عند المسلمين.

وقد كان لكل شيخ مريدون حسب علمه، وتبحره في علوم الدين فقد تجد في درس الشيخ الفلاني مئات الأشخاص وشيخ العلاني العشرات، وهذا يرجع إلى علم الشيخ وسعة صدره مع المستمعين، ورده المفيد والمجدي للسائلين رغم أن جميعهم شيوخ أجلاء يستحقون التبجيل والإحترام.

وكما أن للمساجد روادها فإن للخلوات الخاصة ببعض رجال العلم أيضا روادها ومن مُريدى الشيخ الذي يلقي دروسه ومواعظه فيها هي خلوة الشيخ العلامة المرحوم «عمر الجنزوري» الواقعة بجانب جامع درغوت باشا (مدرسة عثمان باشا) بالقرب من ميدان السيدة مريم لها جلال وقدسية خاصة لما يدور فيها من نقاش ودروس استفادة دينية ودنيوية وما كان يعطيه الشيخ عمر لمريديه وباقي المستمعين له من شروح وافية مفيدة في أحكام الدين وما يتفق مع الأمور السائدة في الحياة، فهو يرفض أن يزين الأخطاء التي تتعارض مع تعاليم الدين حتى ولو ارتكبها ولي البلاد وأتباعه وكان يصدع بكلمة الحق التي كلفه بها رب العالمين مهما كانت النتائج وكان يصدع بكلمة الحق وإن لم ترض الحاكم وأتباعه الذين أسمعوه من السب والشتائم الشيء الكثير ولم يكتفوا بهذا بل انهالوا عليه بالضرب بدون رحمة لشيخوخته وكفاف بصره.

الزوايا والفن: -

في إطار الزوايا وتحفيظ المالوف يوجد بالمدينة القديمة زاويتان اكتسبتا شهرة واسعة في هذا الفن القديم هما الزاوية الكبيرة بباب الحرية والزاوية الصغيرة بباب البحر ثم تبعتهما زاوية أخرى أسسها متأخرًا الشيخ محمد نشنوش أطلق عليها زاوية المكني.

وقد كان لهذه الزوايا مريدون وأنصار من ضاربي الدفوف، والباز والزل وحفظة المالوف كما كان لكل زاوية شيخ وبعض المساعدين يشرفون على الزواية وينظمون الأمور فيها من حيث النظافة والإشراف على احتياجاتها الضرورية وبالتالي الاستعداد لليوم الموعود هو يوم (المولد النبوي الشريف) الذي تسبقه استعدادات كبيرة في عجن الخمرة التي تتكون من مجموعة مختلفة من الألواز والعطور وماء الورد ثم يقرأ عليها الحزب بعد عجنها توزع على قطع جديدة صغيرة من القماش تربط ويقرأ عليها وتوضع في مزاد ليلة الميلود وتباع للحاضرين في الزاوية للبركة ومحصلة البيع تذهب إلى صندوق الزاوية حيث يصرف فيأسَر طَارات الدفوف والباز الذي يعرف عليه أمور الأخرى.

ومن الجدير بالتنويه أن جميع الزوايا في ليبيا تدار شؤونها من التبرعات التي يدفعها المريدون وأحباب الزاوية والناس الميسورون الذين يقيمون في المنطقة.

هذه الزوايا تبدأ في الاستعداد ليوم (الميلود) وهو يوم خروج الزوايا بأسبوعين حيث يتجمع شباب الزاوية وشيوخها ومريدوها لقراءة قصة المولد النبوي الشريف وما يرافقها من مدائح وقصائد يمدح فيها رسول الله صل الله عليه وسلّم ويُشيرون إلى ما كابده في نشر دعوته ويعددون مناقبه الشريفة ويسمى هذا «بالبغدادي».

صلاتك ربي وسلامك على النّبي   **نبيٌّ بَهيٌّ طيّبٌ مُتــــأرّجُ**

اللهم صلِّ عليــــــه

يستمر هذا الإحتفال في الزوايا كل مساء من أسبوع إلى أسبوعين مع التدريب على نوبات الفن وضرب الدفوف يرافقهــا الضرب على طبلة «النقرة» مع «الجل»

وهو عبارة عن دائرتين من النحاس المجوفتين قليلا من الأعلى، تشد كل دائرة منهما بخيط (سبتة) من ثقب يوضع في التجويف العلوي بحيث يعطيان صوتا عند انطباق إحداهما على الآخر، و غالبًا ما يستعمل «الجل» هذا في حلقة الباز و «البازة» عبارة عن دائرة من الحديد أو المعدن المجوف مشدود بأسلاك رفيعة من الجلد على قطعة مستديرة من جلد الماعز أو الضأن تشد بأحكام على المعدن المجوف بحيث يعطي التجويف صوتا له رنين عندما يدق عليه بقطعة الجلد التي يضرب بها.

وفي صباح يوم الميلود تبدأ الاستعدادات للخروج بارتداء أهالى طرابلس وشباب الزاوية الملابس العربية الفرملة والزبون والسروال والخرج والجبة والطاقية الحمراء مع البسكل وغالبا ما تستأجر كل زاوية شخص يحمل العلم الخاص بها للتعريف وآخر يجر عربة النار التي تسخن عليها الدفوف، وآخر يحمل «النقرة» والتي تتألف من طبلتي باز، توضعان في الخشبة المخصصة لهما، توضعان على ظهر الرجل الذي يحملهما بينما يكون ضارب «النقرة» خلفه يعزف عليهما اللحن الذي يتوافق مع ضرب الدفوف والباز، وتستمر الزاوية منذ خروجها في العاشرة صباحا إلى السادسة مساءً تتحرك في خطوات وئيدة مع شيوخها الذين «ينزلون» نوبة بعد أخرى يتقدم ضاربي الباز أماما، وضاربي الدفوف خلفهم يسلكون طرقًا اعتادوا عليها بين شوارع المدينة وزقاقها حتى الساعة السادسة مساءً حيث يعودون إلى زواياهم للراحة والاستجمام ثم يعودون إلى ضرب الدفوف والباز داخل الزاوية إلى ساعة متأخرة من الليل حيث يعود كل منهم إلى بيته في نشوة وفرح بمولد الرسول الكريم صلَّى الله عليه وسلم وتستمر الاحتفالات داخل الزوايا لمدة أسبوع آخر أو أسبوعين وإلى العام القادم بعد ليلة الختم.

وفي سياق عادات المولد النبوي الشريف هناك مَن يشعل القناديل والخميسات للبنات ليلة الموسم نضيف الايام «البرميل» وهي عادة استمرت من عهد العثمانيين والطليان حتى انقلاب 69 (مبطل العادات ومفرق الجماعات) وهو عبارة عن برميل من الخشب متوسط الحجم يخرج به شباب الشارع أو الحي يجوبون به الأسواق متصايحين وطبالين على البرميل وهم يقولون :-

«ياسَاقْ»[1] تغشّشْنا	والخاطر ضاقْ
الليلة ليلة ميلودْ	ليلة حرفة على اليهودْ

ويجمعون ما يعطى لهم من مال أو عطايا داخل البرميل إلى بعد صلاة العصر حيث يعودون أدراجهم إلى الحي أو الشارع ثم يضعونه في منتصف الطريق ويبدأون بالرقص حوله والقفز فوقه وترديد الأغاني والأهازيج إلى ما بعد المغرب حيث يأتي وقت إشعال «القناديل» التي هي عبارة عن حبال مشبعة بالزفت _القطران_ ثم توضع على عصا من جريد النخل، وتباع بباب الحرية ويستعملها الأولاد، أمّا «الخميسة» التي تصنع محليا من الخشب ويُزيّنُ بورق متعدد الألوان يحمل رأسها الذي هو على هيئة يد خمسة شموع تشعل أمام البيوت، وتغني عليها كل بنت: -

هـذا قنـديل وقنديل	فاطمة جابت خليل
هذا قنديلك يا حواء	من المغرب يشعل لتوا
هـذا قـنديل الرَّسول	فاطمة جابت منصور

أما الأولاد فيرددون شتيمة اليهود هذا بالنسبة للصغار وأما الكبار فإنهم يقتربون من «حارة اليهود» ويشعلون النار في البرميل ويدخلون به الحارة مرددين: -

الليلة ليلة ميلود	ليلة حرفة على اليهود

غالبا ما يخرج شباب اليهود من بيوتهم وتقوم المعارك بين شباب المسلمين وبينهم تستعمل فيها العصي والأيدي والسكاكين أحيانا، وغير ذلك مما يستدعي حضور الشرطة الذين كان بعض ضباطهم من اليهود ولا تنتهي هذه المعركة إلا باعتقال المشاغبين من المسلمين واليهود، ونظرا للأضرار التي تقع بين الطرفين في هذه المناسبات فقد صدر قرار يمنع البراميل في مناسبة الميلود ومع ذلك لم يكف الشباب عن استعمال البرميل رغم القرار الذي صدر مع تغيير الصيحات التي «تحارف» ليلة اليهود إلى صياح آخر يقول: -

---

1 ياساقْ: كلمة تركية بمعنى ممنوع وهي من أصول يونانية.

احنا سرحنا البرقادير[1]   واللي يبي يصير يصير

ويبقى العداء لليهود من الليبيين المسلمين الذي غذته السلطات البريطانية خلال الأربعينات من القرن الماضي هاجر منهم العديد إلى أرض فلسطين المحلتة سنة 1948م ثم غادر منهم الكثير بعد الاستقلال وأثناء حرب 1967 خرج اليهود من ليبيا حتى جلائهم بعد استقلال وإجلاء من بقي منهم بعد حرب 67 التي خسر فيها المصريون والعرب الحرب أو ما يسمى بنكسة 1967م.

الفكر، والفن، والأدب:

تميزت المدينة القديمة بالعديد من الأدباء، والفنانين، والكتاب، والشعراء، والصحفيين وغيرهم ممن يتعاطون هذا المجال الفني الثقافي وممن قدموا الكثير من الإبداعات في ساحة المعرفة فها هو الشيخ والمربى الجليل «**علي سيالة**» نراه يقدم القصائد الدينية لأطفال المدارس في الخمسينيات حينما فتحت المدارس وفي مقدمتها مدرسة المدينة القديمة فقد كنا تلاميذ له، كنا نجلس في الفصول على حصير لأن المقاعد لم تتوفر بعد لضيق ذات اليد عند الحكومة التي استقلت وليس لديها ميزانية للمدارس ولا زلت أذكر تلك الحصيرة نجلس عليها فيأتي - رحمه الله - للفصل وهو يحمل في يده رغيفا من الخبز وقليلا من حبوب الزيتون الناضجة، لكل تلميذ كسرة خبز وحبّتان من الزيتون وشربة ماء من «القلة» التي كان يشرب منها ويسقي الأطفال وبعد الأكل والشرب نحمد الله ونشكره على نعمته نبدأ بقول القصيدة التي ألفها في شكر الله ومدح رسوله صل الله عليه وسلم

ربنا افتح علينا وارحمنا ووالدينا   واصرف الأسواء عنا يا إله العالمين

إننا نرجو رضاك، مالنا مولًى سواك   فأعنا وارض عنا وارزقنا حسن اليقين

يا إله العالمين

1 البرقادير: الضابط

نظل نردد هذه القصيدة مرات ومرات إلى أن حفظناها ولا زلنا نرددها ويرددها غيرنا بعد أنْ شاعت وتلقفها قراء الموالد في الأعراس والمناسبات الدينية، بل أصبحت افتتاحيات لمتعاطي القصائد والمدائح الدينية، كما كان الشيخ الجليل يحدثنا عن تاريخ الجهاد الليبي والشهداء الذين حاربوا الطليان واستشهدوا، وما كتبه لهم الله من أجر عنده وما سيذكره التاريخ عنهم، وكنا نستمع نحن التلاميذ الصغار إلى ما يرويه لنا الشيخ الجليل دون أن ندرك معناه ثم أدركنا فيما بعد أنه يحفزنا منذ الطفولة على أشياء لم تستوعبها عقولنا ليزرع فينا حب الوطن والموت في سبيله إذا ألم به أي مكروه.

وكان من أهل الفكر والأدب الشاعر الكبير «أحمد قنابة» الذي كان من فحول الشعراء الوطنيين والشيخ «الطاهر الزاوي» و«رفيق المهدوي» الذي نظم أروع القصائد الوطنية والإجتماعية، إن شاعرنا أحمد قنابة كان وأسرته كلها من سكان المدينة القديمة التي عاش بين شوارعها وآثارها وأغرم بزقاقها وكتاتيبها ومساجدها ودرس فيها، وتعلم، وعلَّم حتى أصبح من أعلامها ولأن طرابلس كانت للجميع، قد حلت أسرته بربوعها منذ عهد العثمانيين، وقامت بالمدينة القديمة حيث أمضى شبابه وشيخوخته فيها حين حلّ الاستعمار الإيطالي بها قال الكثير من القصائد يهجو فيها هذا الغزو الجبان ضد الليبيين أهل البلاد، ونختار منها بيتا واحدا فقط من قصيدته المشهورة وذلك لضيق المساحة أولا وبالتالي فلسنا في سبيل البحث أو تحليل قصائد الشاعر الذي قال في صدر قصيدته التي يدعو فيها الله أن يُشتِّت شملهم قائلا:-

شَتَّتَ الله شملهم فرقونا   إنهم ظالمونَ مستعمرونا !

وقد كان للشاعر «أحمد قنابة» ديوانين أو ثلاثة، كما التحق بالنادي الأدبي الذي أنشأ عام 1919م برئاسة السيد «أحمد الفقيه حسن» وكان هذا النادي مهدا للوطنيين المفكرين والأدباء والشعراء وغيرهم من الفنانين وكان الجميع يحاربون الاستعمار الإيطالي بالكلمة، والقصيدة والمحاضرات التي يلقيها أبناء البلد ولا تخلو منها قصة أو قصيدة أو بيت شعر إلا ويشهر بالاستعمار الإيطالي وتصرفاته ضد أهل الوطن مما دفع السلطات الإيطالية إلى قفل هذا النادي وسحب الترخيص منه تفاديا لخطره عليها ثم أعيد فتحه

في 1943/6/29م وكان مقره بشارع الكويت مقر سينما المتروبول سابقا، وقد تولى السيد «أحمد قنابة» رئاسة النادي الأدبي بتاريخ 1946/1/10م وأسس رابطة الشباب الليبي به لتكمل مهمة النادي في محاربة الإستعمار الإيطالي ثقافيًا وأدبيًا.

ومن أدباء الزجل المرحوم «خليفة ماعونة» الذي قال حين ضاقت الدنيا به وبأهل بلده نتيجة فقدان العمل قال: -

الدنيا والوقت معكوس   لا فيه خدمة ولا فيه فلوس

وقد تناول الناس في هذه القصيدة الطويلة وحفظوها ورددوها في كل مكان، وقد تمكن زجالنا الكبير في آخر عمره من فتح كوشة يبيع فيها الخبز حتى وافاه الأجل رحمه الله.

أما بالنسبة للغناء والطرب والموسيقى بالمدينة القديمة في عجالة ذكر شيء منها: -

ففي سنة 1881م تمكن الاستاذ «العارف الجمل» أول الموسيقيين في هذا القطر من فتح معهد الموسيقا بشارع ميزران لتعليم العزف على العود، والقانون والكمان كما تولى التدريس في معهد الموسيقى الشرقية الواقع بسوق الصناعات المحلية بالمدينة القديمة وقد تخرج على يديه العديد من عازفي الآلات الوترية نذكر منهم «مصطفى الفلاح» تخصص قانون «أحمد عاشور الغدامسي» و»مصطفى الدهماني» و»سالم القمبري» و»نصر حميد الدين» و»الأمين الجعفري» الذي كان بارع العزف على آلتيْ العود والكمان، كما يجيد فن المالوف والموشحات والمدائح والقصائد الدينية ومن عازفي العود أيضا «نصر الدين القبلاوي» «العارف عميش» و«صالح الفزاني» و«حسن علي عريبي» أما المتخصصون في الإيقاع فنذكر «علي عمر الدهماني» وأبوبكر شقلب رحمهم الله جميعا.

أما الموسيقيون: –

نذكر منهم الأساتذة:

- عبد الله جمال الدين ميلادي (1881-1963م).
- مختار خليل الدقره (1985م).
- مختار شاكر المرابط (1889-1968م).
- محمد حسن بك (1987م).
- خليل التارزي (1898م).
- محمد سليمان قنيوه (1905م).
- أحمدشاهين (1906م).
- أحمد أحمد الخوجة (1906م).
- العارف الجمل (1906م).
- عازف العود محمد عبيد (1856م).

المطربون، والمادحون:

ونذكر منهم: –

– الشيخ الكفيف «علي الحداد» الذي كان عازفا للقانون ومطربا، وكان من رجال الزاوية الكبيرة حيث كان يعزف في حلقة الذكر والإنشاد والصيغة.

– الشيخ «مختار شاكر المرابط» وكان من رواد غناء الأدوار التي حفظها عن طريق اسطوانات «سيد درويش، وكمال الخلعي، وسلامة حجازى» وهم أقطاب الغناء في مصر في جيلهم وقد غَنَّى لهم الجيل الذي تلاهم مثل «محمد عبد الوهاب وأم كلثوم، قبلهم منيرة المهدية» وكان الشيخ مختار رحمه الله من الفنانين المحترمين الذي غنى كثيرا في الجلسات الخاصة التي كانت سائدة لا سيما بعد دخول العرسان كما غنى على المسرح في استوديو الإذاعة.

- ومن المطربين الذين عاصروا الاستقلال عام 1951م الأستاذ «محمد سليم» أتحف الليبيين بالعديد من الأغاني الجميلة ذات الموعظة الحسنة والنصيحة الغالية مثل: -

دير المليحة ما اذّير السية   واللي يولي عافن ما تولي زيه

- أما «بشير فهمي» الذي حطت به المركب الفنية بتونس في منتصف الثلاثينيات وأنجز الكثير من الإبداعات التي لازالت موثقة في تاريخ تونس الفني التي لا تتوانى في الحديث عنه والاعتراف به.

- ونذكر من المطربين القدامى «محمد أبوقرين» وأغنياته الخالدة نذكر أشهرها: -

على قدر مالي الناس بيحبوني   ولما فرغ الجيب ما يبوني

ويلاحظ أن كل كلمة من كلمات هذه الأغنية تمثل حكمة بالغة التأثير في مجتمعنا المسكين الذي انقلب رأسًا على عقب في قانونه الذي طرحه في أربعين سنة ولازال يعض عليه بالنواجد للأسف حيث قلب الرحمة إلى قسوة والمحبة إلى كراهية ((إلى الشعار السائد في المجتمع الآن)) اللي ماعندوش مايلزموش.

أما مطربينا ما بين القديم والحديث فنذكر منه « عبد السلام الجزيري وأخاه محمد» قد أتحفا الأغنية اللّيبية بأشهر أغانيهما على الإطلاق (سافر مازال عيني تريده) لعبد السلام، و(حبيب داني) لأخيه محمد.

ويأتي دور صاحب الصوت الرخيم والطرب الدافيء «عبد اللطيف حويل» في أغنيته المميزة (يا قلبي ياسر ما تزيد علي).

- أما الشيخ المطرب الفذ «سالم القميري» فهو من الفنانين الملتزمين القدامى الذين شنفوا الآذان وأدخلوا على قلوبنا السلوى والبهجة حين نستمع إلى أجمل أغاني هذا الشيخ يقول: - شهرين وأنا الفكر سارح مني رَبي يكافئ كل من ظالمني.

- ويأتي «محمود الشريف» بـ(بيت العيلة)، و«محمد رشيد» وبصوته الهادي الرزين وأغنيته (القلب ما ينساكم).

- ويخلفهم جيل المطربين في الستينيات مثل «خالد سعيد» (جمعة تامر) (وطوالي مروح طوالي) و«محمد سليني» و«محمد الفرجاني» و«خليفة الفرجاني» و«نوري كمال» و«عين الزرقاء» رحم الله من رحل للقاء ربه منهم ومتع من بقى على قيد الحياة بموفور الصحة.
- و لا ننسى المرزكاوي الذي أتى به إلى طرابلس على وجه العموم إخواننا أهل الجنوب ونقله إلى المدينة القديمة على الخصوص لأنها تعتبر مهد هذا الفن وأهله الذين أحيوه بالعثمانية وبالدبدحة وبالطبل وفي الأغاني ذات المعاني الجنوبية الجميلة مثل العائلة التي جاءت تخطب لأبنها زوجة من عائلة أخرى تحدثوا في المساء وفي الصباح يريد أهل العريس النتيجة فخاطبوا أهل العروسة قائلين:-

غزلا غزلناه في الليل وفي الصباح نبوه سلاته

(ويعني :- نريد موافاتنا بنتيجة محادثاتنا مساء أمس)

ومن أنواع الفنون الأخرى نذكر فن الرسم وقد برع فيه من جيل الخمسينيات المرحوم «سالم دندن» و«علي قانة» الفنان الموهوب الذي أكمل دراسته في بلد الفن والنحت (إيطاليا) ثم رجع إلى بلاده ليشيد صرحًا جديدًا ويطبق ما تعلمه من فن ونحت، وكذلك نذكر الرسام «محمد الحاراتي» وبعض أقرانه ممن أغفلهم النسيان في تاريخ هذا الفن إذ كان له تاريخ موثق في ليبيا.

العريف أو المهدية:

ففي العهد العثماني ويتبعه العهد الإيطالي لا توجد في ليبيا مدارس للأولاد أو البنات بالمفهوم الذي نشاهده اليوم بل أُنشِئتْ الكتاتيب وقليل جدًا من المعاهد باستثناء مكتب الفنون والصنائع الذي أنشأته الحكومة العثمانية كمدرسة للأيتام أو المحظوظين من أولاد الفقراء وهى تعلم المنتسبين إليها القراءة والكتابة إلى جانب، إحدى المهن كالنجارة والحدادة والنقش على النحاس وبعض المهن الفنية الأخرى وكانت أقسامه داخلية ينام الطلبة فيها ولا يقبل فيها سوى الصبية الأيتام الذين فقدوا أحد والديهم، وفي العهد الإيطالي استمرت هذه المدرسة بعطائها بل تحسن أكثر حينما جلبت له إيطاليا الأساتذة والفنيين في هذه المهن التي استفادت البلاد من خريجيها الذين فتحوا الورش

الفنية في العديد من التخصصات التي تعلموها بل أرسل العديد منهم إلى إيطاليا وعادوا مدرسين في هذا المعهد.

أما بالنسبة للبنات فقط دفع الفقر والتخلف الفكري بأغلبية الشعب الليبي رفض تعليم الفتاة اعتقادا منهم بأنه عيب وسبّة لأن الفتاة في مفهومهم كتب عليها أن تتزوج وتنجب الأولاد فقط وليس لها نصيب في التعليم أو العمل حتى لو كانت أسرتها محتاجة إليه.

وبقيت هذه الفكرة تدور في عقول الآباء حتى حصلت البلاد على الاستقلال عندئذ تغيرت الأفكار قليلا وبدأت الفتاة تحصل نسبيا على حقها في التعليم بعد أن فتحت المدارس وأخذ أبوها وعمها وخالها قسطا من التعليم، وحيث إن التعليم كان شبه محرم في المجمل على البنات ما عدا البعض من اللاتي حصل آباؤهن على قسط من التعليم أو عملوا كموظفين مع الطليان فسمحوا لبناتهم بالتعلم في المدارس الإيطالية والتجأ الأهالي في الأغلب إلى فكرة العريفة (التي طبقها العثمانيون على بناتهم وتبعهم الليبيون في ذلك).

و«العريفة» عبارة عن سيدة متزوجة، أو فتاة فاتها ركب الزواج، متعلمة أو نصف متعلمة سيدة بيت تجيد الخياطة والتطريز أصبح الجيران يدفعن بناتهن إلى التعلم عندها فتعلمهن ما لم تتمكن الأمهات من نقله إلى بناتهن وتعلم العريفة القراءة والكتابة وطاعة الوالدين والتطريز والرسم والصّلاة وجميع ما يتعلق بحياة الفرد في المجتمع، وهي تعامل البنات كأم أو أخت كبرى فتجيب على أسئلتهنّ بما تعلمته ودرسته وبذلك تدفع البنات إلى احترامها وحبها وصداقتها حتى بعد أن يتزوجن.

إن هذا الرباط المقدس الذي نشأ (بين العريفة) وفتياتها وما رافقه من ود ومحبة على مدى العمر والسنين له اهزوجة تناقلتها الأجيال جيلا بعد الآخر ترددها الفتيات في لعبهن وبيوتهن تقول: -

ياعريفتي ياكُودا كُودا   **راجلك سلطان وانت سيُّوده**

ولد عريفتي طالع من الحمام	**يفرق في الشمام على بساط حرير**
وولد عدوتها طالع من الخربة	**يفرق في الحنظل على جلد الكلبة**
وياسيدي الشريف إلي حولك	**انظيف قول لعريفتي تعطيني ورقة**
نبرمها ونسيرها ونديرها شنة	**تضربني وعريفتي وتخزني منها**

الكروسة: -

في طرابلس والمدينة حتى أوائل الخمسينات كانت السيارات ووسائل النقل الآلية شبه معدومة الوجود عدا بعض سيارات الحكومة وكبار الضباط من الشرطة والجيش الذين كانت تقلهم سيارات الحكومة في حلهم وترحالهم، أما عامة الناس فكانوا ينتقلون بين أرجاء البلاد بوسائل نقل تتفق مع ظروفهم الإجتماعية التي حددتها الظروف المالية لكل منهم.

ففي المناسبات القريبة بين الشوارع والأزقة ينتقل الناس راجلين، وإذا كانت المناسبة خارج المدينة القديمة فيستعمل الناس (الشّريول) الذي يجره الحصان ويحمل عددًا من الركاب، أما إذا كانت المناسبة مهمة كالعرس مثلا تجد المرأة من الضرورة بمكان أن تصل إلى مكان المناسبة عن طريق (الكروسة) التي يجرها حصان أيضا ولا تحمل سوى ثلاثة أو أربعة اشخاص _لكنها محترمة بالنسبة لواقع حال المناسبة.

وتستعمل»الكروسة» بين أفراد الطبقة المتوسطة والميسورة حتى في الزيارات العادية للأهل والجيران وخاصة عندما بدأت البلاد تتوسع في البناء والأسر اللّيبية بدأت تخرج ببنائها عن أرجاء المدينة القديمة التي حافظت بقدر الإمكان على التمسك ببقاء جدورها داخل تلك الأسوار العتيقة التي تعدت ثلاثة الآف عام عمرًا.

ولكن الزمن لم يبتسم إلى أهلها الذين لم يجد بعضهم بُدًّا من ترك مسقط رأسه والانتقال بعائلته التي تضاعف عدد أفرادها وأصبحوا يتوقون إلى زرع أسر جديدة أخرى

فاضطروا قسرا إلى الهروب إلى ضواحي طرابلس ليعمروها بعد أن ساعدهم القدر بتوفير وسائل المواصلات التي امتدت مع تمدد العمران في شرق البلاد وغربها، وجنوبها، مما عاد على المزارع والساحات الخضراء التي كانت تزود الناس بالأكسجين بالويل والثبور وينهض الدليل القاطع على أن أصحاب هذه المزارع قد تأثروا بأفكار أولادهم الذين يتوقون للكسب السريع فما أنْ يوحون لوالدهم بتقسيم المزرعة إلى قِطع، وبيعها ليحصلوا على الملايين وإذا رفض الوالد فما عليهم إلا انتظار ساعة رحيله لينفذوا المشروع المدمر والذي انتظروه طويلاً.

زمان .... زمان

كانت أجرة «الكروسة» من عشرة قروش إلى العشرين قرشا حسب المسافة وبالرغم من صعوبة توفير هذا المبلغ إلا أنها كانت وسيلة المواصلات المستخدمة في المناسبات المتعددة وخاصة في «الأعراس» التي يؤجر أصاحبها العديد من الكراريس منذ بداية العرس وحتى نهايته، وفي ليلة الزفاف تزين الكروسة الأولى التي تحمل فيها العروسة تليها الأخريات الحاملات لصاحباتها وأسرتها و حين تأتي مجموعة الكراريس تتقدمهم كروسة العروسة لحملها إلى بيت الزوجية ويجتمع صبية الحي ويرفعون عقيرتهم بالغناء قائلين: -

كروسة كروسة العريس	**جاب عروسة في كروسة**
جابتله فار وقطوسة	**كروسة واحصان أعور**
مولاها ميت بالشر	**لا يتحشم ولا يجعر**

وكانت الأسر ميسورة الحال تملك ما يسمى بالكاليس يجره حصان أيضا وان كانت تركيبته الخشبية أقل علوًا من الكروسة وتستعمله العائلة في ترحالها.

الحضرة العروسية: -

سميت بالعروسية نسبة إلى الولي «سيدي بن عروس» ويقول مريدو هذه الحضرة بأن بن عروس هذا هو « سيدي عبد السلام الاسمر» الذي انتقل إلى مدينة «زليتن» حيث قضى حياته هناك في الذكر والقصائد الذي يمدح فيها الرسول صل الله عليه وسلم

ويعلم في مقره ما يسمى (الزاوية) دروسا في المدح والدين وأصبح له تلاميذ ومريدون، وتوفي منذ ثلاثمائة عام وخلفه تلاميذه ومريدوه أباً عن جد، وحينما وافاه الأجل بزاويته بزليطن التي أنشأها أصبح الناس يزورون ضريحه للتبرك وقراءة الفاتحة.

غير أن بعض الفقراء العاطلين عن العمل في هذه البلدة أدخلوا الزاوية في أمور بعيدة عن الدين كثيرا ما تأذى منها الناس الذين يزورون الشيخ للتبرك فقط وليس عبادة الحجر كما يدعي البعض الذين يحرمون هذه الزيارات كما يحرمون غيرها دون أن يفرقوا بين الزيارة لقراءة الفاتحة وبين العبادة التي لا تكون إلا لله وحده.

صحيح قد بالغ من يدعون بأن«سيدي عبد السلام» جدهم وبالغوا أيضا في استغلال زيارة الناس له وأرغموهم على دفع الصدقة الذي أصبحت مشروطة على الزائر، كما بالغوا في دفع الناس بالقوة ليحصلوا على المال وهو أمر نفر الناس من هذه الزيارة، ولكن أتباعه الحقيقيين يستنكرون ما يقوم به أبناء بلدتهم والذي لم يفعله سيدي عبد السلام أو يوصى به.

وكان سيدي عبد السلام في حياته عندما يذكر الله ويصدع في قصيدة يصحبها الدف (فأصبحت الدفوف) عند المريدين والأتباع أمر لازم في الحضرة العروسية، كما يتبع هذه الدفوف ما يسمى «بالجذيب» وهو الوقوف وتحريك الرأس يمينًا وشمالًا للرجال الواقفين في الحضرة أو بعضهم الذي تزداد عليه حالة الخروج إلى حالة من الشرود الذهني.

وحين انتهاء نوبة الدفوف يسكت معها المديح يعود المريد إلى حالته الطبيعية بعد أن يأتيه شيخه يقرأ عليه أذكار يعرفها هو فقط فيخرج من حالة الشرود التي كان فيها ويعود إلى طبيعته الأولى.

وقد اختلف الكثيرون في الرأي في هذه الظاهرة بين مصدق ومكذب ومؤيد، مستنكر، ومستسلم ومكفر ولا نعرف أيهم أقرب إلى الصدق منه إلى العناد وفرض الرأي على الآخر حتى لو كان هذا الرأي لا ينسجم مع المنطق أوالعقل وحتى لا نسترسل في هذا الأمر فإن الحضرة العروسية شيوخها القدامى تعلموا من الذين من قبلهم بل ربما

حسنوا الأمر عن ذي قبل ولازالت الحضرة حية تعيش في عقول وقلوب من ورثها عن أحد أجداده أو ولده وسار عليها، وفي النهاية قد أصبحت موروثا كغيره يؤثر في عادات البلد وتقاليده ويحسب عليها.

غير أن كثيرا من العلماء والفقهاء المصلحين في العالم الإسلامي قد رفضوا واستنكروا هذه العادات واعتبروها ليست من الدين في شيء، فالتقرب من الله تعالى لا يكون بتوسط الأولياء وزيارتهم لقضاء الحوائج بل بالتوجه مباشرة له سبحانه بالدعاء وطلب الرحمة، أما الموتى ولو كانوا من الصالحين فإنهم قد عملوا لأنفسهم ولن يستطيعوا أنْ يتوسطوا عند الله لغيرهم بل يوصي العلماء الناس بترك هذه الخرافات الذي عششت في أذهان العامة منذ قرون التخلف الأولى وأدّت إلى تخلف الأمة الإسلامية وساعدت في خلق الإسلام التكفيري الذي استشرى كالسرطان في الأمة نقيضًا للإسلام الذي نزل على محمد صل الله عليه وسلم.

الغولـة، وسـلال القلـوب، والصخـص، وعزيـزة القايلـة، وعزيـزة السـتوت لا ترحمها يـوم تمـوت

كل هذه المسميات كانت تستخدم منذ عهدي العثمانيين والإيطاليين بل حتى في بداية الاستقلال وهي موروثة أبا عن جد متجذرة فينا حتى الآن بعد عصر «النت» و«الفيس بوك» وثورة الاتصال بالرغم من محاولتنا الملحة بنسيانها غير أننا نجد أنفسنا وبدون قصد نخوف بها الأطفال ونتوعدهم «بالغولة» في المساء، و«الصخص» في القيلولة، و«سلال القلوب والعجائز الآخرين» في كل وقت وحين لم يخطر ببالنا قبل فتح المدارس ونيل قسط من التعلم لمحو أميتنا أن يتعارض مع أساليب التربية الحديثة بالرغم أن كل هذه الشخصيات التي يستخدمها الآباء والأمهات لتخويف الأطفال زمان هي شخصيات وهمية إلا أنها أصبحت جزءًا من الثقافة العامة حتى ولو كانت سلبية.

كما أن الطفل اليوم لم يعد يولي هذه الشخصيات أية أهمية فقط بل يتشوق إلى معرفة كنه هذه الشخصيات حين تقول له «لو خرجت من البيت سوف تأكلك الغولة» فيجيبك أين هي؟ لو جاءت لقتلتها» وما يقوله على أمنا الغولة يقوله على مثيلاتها الآخرين، ولعل أضواء الكهرباء التي أصبحت منتشرة في الشوارع والزقاق، كذلك السيارات التي تجوب الشوارع ليلا نهارا والفضائيات المفتوحة طوال الوقت، وانفتاح العالم على بعضه البعض كل هذه المؤثرات قد نسفت من أدمغة الكبار والصغار هذه الهواجس التي اعتقدها أطفال زمان حقائق واقعة تخوفهم وتردعهم عن الخروج في النهار والليل.

الملاجيء وظاهرة التشرد:

بعد أن أكملت دول الغرب القضاء على الرجل المريض _عثمانيا_ بالحرب العالمية الثانية ونزع جميع مستعمراتها ومنها ليبيا طالب الوطنيون الذين اتخذوا من مصر ملجأ لهم في الدفاع عن استقلالها بجميع الوسائل بما فيها المطالبة بالاستقلال التام وبرفض مشروع التقسيم الذي نادت به إيطاليا اضطرت الأمم المتحدة وضع ليبيا تحت وصاية بريطانيا إلى أن تتخذ الأمم المتحدة قرارًا.

استلمت بريطانيا ليبيا عام 1943م فأقامت فيها الحكم العسكري البريطاني، ولما كانت البلاد في حالة من الفقر وضنك العيش، فلا عثمانيا المتخلفة التي حكمت البلاد بالحديد والنار ردحًا من الزمن قد فعلت شيء ولا إيطاليا التي لا ينكر أحد تقدمها الحضاري على عثمانيا قد فعلت للشعب الليبي هي الأخرى ما ينفع الناس ويقيهم شر الفقر والعوز الذي انتشر في أغلب أنحاء ليبيا والعالم وخلف التشرد، والسرقة، والجريمة.

وعند تولي الإدارة البريطانية شؤون الحكم في البلاد حاولت كبح جماح هذه الظواهر بفتح الملاجئ للمتشردين من أبناء الشوارع الذين تركوا أهاليهم وانتشروا في البلاد يبحثون عن العيش دون تمييز بأن هذا حلال أو حرام.

ولكي يجمعوا هؤلاء الصغار وكبار السن الذين لا عائل لهم كلفت الدولة مراكز البوليس بالقبض عليهم ونقلهم إلى الملاجىء للعناية بهم وتخليص المجتمع منهم، أما المجرمون القاصرون فقد أنشئ لهم سجن يسمى«الفورتينو» بمنطقة قرقارش التي صنفت آنذاك بأنها مقاطع لحجر البناء قبل أن تأتي النقطة الرابعة وقبل أن يستأجر الأمريكان قاعدة ويلس في عام 1954م حيث بدأ البناء يدب في هذه المنطقة.

كانت الشرطة تتعقب هؤلاء الأطفال بالسيارات ولا زلنا نذكر منها سيارتين إحداهما تسمى «الصاصلي» تشبها بالصاصلي الذي يغرف به الدقيق في المتاجر، والأخرى تسمى «العورة» لأنها بفنار ضوء واحد، وكان الأطفال يتفادون هاتين السيارتين ويخافونهما في كل وقت وشارع، وكان للفتيات المتشردات أو النسوة اللّاتي ليس لهن عائل نصيب في القبض عليهن ووضعهن في ملاجئ النساء، وقد استمر هذا الوضع حتى بعد الاستقلال مع تغيير التسمية بدار الرعاية بدل الملجأ، فأصبح لدينا دار العجزة والمسنين لكبار السن و دار الرعاية لمن لا أهل له، والواقع أن هذه الدار قد انصلح وضعها بعد ما أفردت الحكومة لها ميزانيات خاصة وجندت لهم من يخدمهم الأمر الذي أغرى بعض السفهاء إلى التجرؤ على وضع آبائهم وأمهاتهم في هذه الدور لا لسبب إلا للتخلص منهما لأنه أصبح من الوجهاء وأصحاب الدارات والسيارات أو أن زوجته لم تعد تحتمل هذه الأم المتخلفة التي تلبس الفراشية، والحولي الذي يحشمها بين صويحباتها اللاتي يزورنها وعجبي يازمن.

وبالمناسبة ظهرت في المجتمع الليبي أغنية تقول على الملاجىء:

يازين ويابا يازين **يافرحة قلبي المسكين**

فتحوها الملجأ ياناس **لعيشة بنت الكناس**

اللي فتحت في الشارع **ساس وزادت للناس غمة**

فتحوها الملجأ بالدمة **لكل رديف بتلمه**

دارت ناموس وهمة **لكل رديف ومسكين**

يازين ويابا يا زين

وقد تلقفت النساء هذه الأغاني وأشاعوها في الأعراس حتى أصبحت من ثقافة البلد كلها، ولو أنصفنا التاريخ لقلنا أن مثل هذه الملاجئ وأطفالها هم الذين قضوا على الإمبراطورية العثمانية بعد موت سلاطين الإمبراطورية الأوائل مثل السلطان «سليم الأول» والسلطان «سليمان القانوني» المؤسسين للدولة العثمانية وصانعي قوتها البحرية أما بعدهم فقد جاء سلاطين آخرون كان لهم من القوة ما ثبت قواعد هذه الإمبراطورية ثم بدأ التهالك في الدولة في عصر ضعف السلاطين وزاد الطين بلة عندما استخدم السلاطين الأواخر طبقة «الإنكشارية» في الحكم وهم معروفين من أبناء الملاجئ الذين لا يعرفون سوى السلطان أبا لهم والدولة أمّا عندما قربهم السلطان له ووضعهم في الدواوين ونصبهم كولاة ودايات في مستعمرات السلطنة حتى بدؤوا يتصرفون كالسلطان بل لم يعودوا ينفذون تعليماته لأنهم هم الجيش الذي يحكم ويتحكم حتى نخر السوس أساس الدولة وحدث الإنهيار المدوي لها فباتت أثراً بعد عين.

القره قوز وعمي الوسطي......

في زمن الخمسينيات كانت وسائل الترفيه بالنسبة للشباب والصبيان بل وحتى الأطفال شبه معدومة وإن كان الشباب قد وجدوا كرة القدم وسيلة ترفيه في كل زنقة وشارع، واجتهدوا في تشكيل فرق الشوارع تنافس بعضها بعضا على جائزة يجمعون القروش لشرائها وهي لا تتعدى صندوق من العنب رخيص الثمن أو البرتقال أو حتى

من التين الشوكي يطفئون به ظمأهم أو يشبعون به معداتهم بعد مباريات ملتهبة تدوم أحيانا ثلاث ساعات ولا تنتهي إلا بمعركة يعلم الله نهايتها.

أما الأطفال فإما في البيوت أو في الزقاق إذا ما بلغوا سن الجري والحركة وتتفتح عليهم أبواب السماء إذا ما أقبلت الأعياد حيث يصحبهم اباؤهم أو أحد أفراد الأسرة الكبار إلى«الشقلبية واللويدة» وهما المتنفس الوحيد الذي يجدون فيه ضالتهم المنشودة في اللعب، والمرح، ونفخ البالونات بمختلف أنواعها و شرب البرد ومشاريب ذلك الزمن من (أرنجاته وقازوزة) وغيرهما كما يركب الأولاد والبنات في اللعبتين الخشبيتين اللتين لا يوجد سواهما واللتين يدفعهما أولاد شباب دون مقابل، وكان مكانهما قرب سور المدينة القديمة أحيانا و بقرب ميدان الرشيد الذي يسمى بسوق «التركة» أحيانا أخرى.

وإلى جانب هاتين اللعبتين كان يباع كل شيء من الحلوة الملبسة بالسكر إلى البرد المثلج وحلوة الدبوس والغريبة والمقروض بل حتى الرشتة السخونة واللحم المشوي في تلك الساحة لمن يريد الغذاء من القادمين من الضواحي إلى المدينة للترفيه عن أبنائهم وبناتهم الأطفال حيث كانت وسائل المواصلات للقادمين من جنزور، أو صياد، أو الزاوية بابور السكة الحديد الذي كان يعمل آنذاك أو «الأوتورينا» وهي أسرع من البابور تسير على السكة الحديد أو الشريول وهي عربة يجرها حصان ولم تستخدم «الحافلات» وكان يطلق عليها اسم الكوريرا إلا بعد منتصف الخمسينيات.

يصحب الآباء أو أحد كبار العائلة المقيمين بالمدينة القديمة أبناؤهم وبناتهم الصغار إلى «القاراقوز» بعد صلاة العشاء وموقعه بسوق الترك وهو عبارة عن دكان كبير به كراسي أو بنوك من الخشب يجلس عليها الأطفال جنبا إلى جنب بعد دفعهم الخمسة مليمات عن كل طفل بينما المصاحبين لهم يبقى في الخارج في انتظارهم وبعد أن يأخذ «عمي الوسطى» حصيلة النقود حسب العدد يدخل حجرة القراقوز الذي يحرك شخصياته بيديه ويدير نقاش اللغوي بينهم بصوته الذي يتغير حسب كل شخصية وكل موقف ومع تحريك الدمية التي تتكلم بيديه أمام الستارة التي يشاهدها الأطفال ونستطيع القول أن ما كان يقدمه هذا الرجل هي مسرحيات لها عدة شخصيات أغلبها مضحكة

يمثلها شخص واحد في أشخاص عدة وهم أبطال هذه المسرحية التي لا يزيد وقتها عن نصف ساعة لإتاحة الفرصة للأطفال الآخرين الذين ينتظرون الدخول، ومن مسرحياته التي كنا نشاهدها عنده « الحجي وأخيه زعتر، وجحا ومقالبه، والسانية» وغيرها لا أتذكرها و كان ما يقدمه عمي الوسطي رحمه الله شبيه بما كان الممثل الكوميدي المصري «شكوكو» يقدمه لأطفال مصر رحمه الله تأثر بها عمي الوسطي ونقلها إلى أطفال بلده تحت مفهوم أن الثقافات تؤثر وتتأثر بغيرها.

حسن أبو يوسف اللويبي

وبالرد على ما تم الإطلاع عليه من المصادر الموثوقة للتاريخ الليبي الخاص بطرابلس والمدينة القديمة بالذات أدعي بأنني قمت بإلقاء بعض الضوء على ما خفي من حياة هذه المدينة في حقب تاريخية استعصى على الأجيال الجديدة الاطلاع عليها وفهمها بل وجعلهم يصدقون أن هذه المدينة القديمة منطقة متخلفة، أو بقعة موبوءة في مدينة طرابلس تعيش فيها أقوام متعددة من الوحوش الآدمية لا تتقيد وحشيتها بشرع أو قانون في معاملاتها مع البشر الآخرين، وهو تشويه للحقيقة وتشويه لتاريخ هذه المدينة التي يربو عمرها على الثلاثة آلاف عام عاصرت كل الحضارات التي مرت بها وبادت وهي واقفة بشموخ تتنسم هواء المستقبل وتنعم بحلم الأمل المنظور.

وهؤلاء الذين حاولوا وفشلوا في أن يجعلوا من مدينتي مسخا شائنا، وغولاً متحفزا للانقضاض على كل من يرتاد أعتابها أو يدخل شوارعها ويتبرك بأوليائها، هؤلاء الأجلاف الذين ماتت قلوبهم، وعميت بصائرهم عن الحقيقة فأطلقوا ما شاء لهم أن يطلقوا من الإشاعات المغرضة والمدمرة على هذه المدينة التي تعتبر محفزة المدن لا في ليبيا وحدها بل في الشمال الأفريقي كله وحبّذا لهؤلاء المستعمرين قبل أن يقدحوا فيها كانوا قد سألوا قائدهم.

إن مجموعة من الرؤى تتحدد لتلقي الضوء على جملة من الحقائق لعل في مقدمتها ان هذه المدينة لا يستمتع بقراءة تاريخها إلا من عاش بين جنباتها، وتربى وترعرع على نبل عجائزها وحكمة شيوخها المبجلين الذين لم يقصروا أبدا في أن يكونوا مصانع لتخريج الرجال الذين صاروا فيما بعد أبطالا أفرزتهم المدينة في جميع مجالات الحياة فكانوا القدوة والمثل في التعليم الديني سواء كان فقها أو شريعة أو تحفيظا للقرآن وتفسيره، في حلقات المساجد، وألواح الكتاتيب التي نتج عنها العديد من الفقهاء والعلماء الذين بلغوا شأوًا بعيدًا بين علماء الشمال الأفريقي ووسط القارة السمراء.

مما دفع بغيرهم من المطلعين على أسلوب الحياة فيها إلى التلهف في أن تحتضنهم ليكونوا جزءًا من نسيجها يرتشفون رحيق العلم والحضارة ممن سبقهم من علماء الدين والحرفة والتجارة والفنون المتعددة التي اكتسبتها هذه المدينة و ممن تعاقب عليها من ثقافات مختلفة من أمم سبق لها العيش بين ظهرانيها وكتابة تاريخها وتاريخ العالم الأفريقي كله فهي إذن مدرسة تعلمنا منها كيف نكتب الحرف ومنارة نفضت عن أفكارنا تراب الضبابية والعتمة التي كانت تخيم على حياتنا وكعبة نحج إليها لنغسل ما علق بقلوبنا من هموم ونتذكر الماضي بحلو ذكرياته ومرها فإليك يا مدينتي القديمة حبي وإليك يا وطني روحي ودمي المسفوح على أرض أجدادي الخالدين ليس من غريب يمكنني اتقاء شرّة بل من قريب وصلة رحم أصابني وغيري من أبناء مدينتي بزعاف سمه ونصل سهمه القاتل، ودمت لي يا أمي نبعا من الحب يغمرني، و دعوة من القلب تحميني، وستراً من غائلة الزمن يوجهني إلى عمل الخير ويأويني فأنا منذ الطفولة، والصبا حتى الرجولة وخريف العمر، لازلت أذكر كل شيء جميل فيك رغم أنف المتطاولين عليك.

معالم وآثار المدينة
الآبار، والأبراج والأبواب

- **بئر الكنود**...يقع داخل أسوار المدينة القديمة، وقد اندثر عبر القرون الماضية ذكره الرحالة «التجاني» خلال رحلته الذي قام بها إلى طرابلس 706-708هـ هجري.
- **بئر الشامي**... بئر مندثر يقع داخل أسوار المدينة القديمة عند تقاطع طرق شارع حومة غريان مع كوشة الصفار.
- **برج بوليلة**... يقع في الساحل الشمالي للمدينة القديمة على صخرة عند انكسار الموج في مواجهة «وسعاية البولاقي» التي أقيم عليها برج التراب أو برج الفنار وقام بتشييده أحمد باشا القرمانلي إبان فترة توليه الحكم 1711-1754م.
- **برج فراره**... تم تشييده في الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة القديمة اشتهر هذا البرج باسم برج «الدالية» بناه الإسبان خلال احتلالهم لمدينة طرابلس سنة1510م.
- **برج السبانيول القديم**... وأطلقت عليه عدة أسماء مثل:- «برج القديس بطرس»، « برج درغوت»، «البرج الأحمر»، «البرج الطايح» تم تشييده عند الزاوية الشمالية الشرقية من سور المدينة القديمة، اقامه السبانيول عند احتلالهم مدينة طرابلس سنة 1510م، وسموه برج القديس بطرس» وبنى درغوت باشا عند حكمه لطرابلس على أنقاضه برج باسمه 1553-1565م، وسمي «بالبرج الأحمر» لأنه بني بالطوب الأحمر وقد وقع به انفجار قوي في عهد الوالي محمود نديم باشا سنة 1860-1861م نتج عنه تدميره وبذلك يسمى بالبرج «الطايح».
- **برج الفنار**... تم تشييده على ربوة بالسور الشمالي للمدينة القديمة بباب البحر عند الساحة التي دفن فيها الولي سيدي خليفة، و قام بتشييده درغوت باشا أثناء توليه الحكم 1553-1565م، وقد اشتهر باسم «برج التراب» بسبب ما جلب إليه من كميات مأهولة من التراب، عند تولي أحمد راسم باشا الحكم سنة 1299 هجري قام بتجديده وسمي ب»برج الفنار»[1] وعند احتلال الإيطاليين لطرابلس قامت بتقويضه

---
1 كتاب أعلام ليبيا، الطاهر الزاوي.

وتشييد النصب التذكاري للجندي المجهول مكانه، واشتهر هذا المكان باسم «القبة» بسبب القبة التي كان موجود فيها النصب، وقد تم تهديم هذا النصب وأقيم مكانه خزان كبير للمياه لتغذية المنطقة بالمياه العذبة .

- **برج سيدي عمران**... تم تشييده عند منتصف السور الجنوبي للمدينة القديمة بالقرب من ضريح سيدي عمران المعروف بالمرابط، وقد قامت السلطات الإيطالية بهدمه عند إزالة السور الجنوبي.
- **برج المجزرة**... وتم تشييده عند السور الشمالي الشرقي للمدينة القديمة بالقرب من سيدي الشنشان، ويعتبر من الأبراج الخمسة المشهورة التي قام بتشييدها عثمان باشا الساقزلي أثناء توليه الحكم 1646-1652م[1] وسمي ببرج المجزرة نظرًا لقربه من مذبح المدينة.
- **برج المندريك**... قام بتشييده داخل مرسى طرابلس أحمد باشا القرمانلي أثناء فترة حكمه 1711-1745م.
- **برج الشريف**... قام مصطفى الشريف داي بتشييده أثناء فترة حكمه لطرابلس (1629- 1631م) وهو في موضع قريب من بوابة مرسى طرابلس.
- **برج الساعة**... هو برج جمالي داخل أسوار المدينة تم تشييده بالقرب من مدخل سوق الترك والمقابل لباب عبد الله المواجه لسوق المشير وباب المنشية، اشتهر هذا البرج ببرج الساعة لبنائه أساساً لحمل ساعة زمنية بأعلى قمته وقد شيده الوالي العثماني «على رضا باشا الجزائري» خلال توليه الحكم (1866-1870م) وكان أسفله قهوة (عمي سعيد قانة) المشهورة.

الأبواب: -

- **باب الحرية**... يقع عند منتصف السور الشرقي للمدينة القديمة اشتهر هذا الباب باسم «باب الحرية» تخليدًا لإعلان الحرية في الآستانة فترة السلطان عبد الحميد، وقد قام الوالي «أحمد فوزي باشا» سنة 1909م على إثرها بافتتاح هذا الباب.
- **باب الخندق**... يقع بين القلعة «السراي الحمراء» وباب هوارة، واشتهر هذا الباب

1 كتاب معجم البلدان الليبية، الطاهر الزاوي ص44.

باسم» باب الخندق» بسبب وجوده أمام طريق الخندق الممتد بجوار قلعة السراي الحمراء.

- **باب هوارة**... أطلقت عليه عدة أسماء مثل «باب المنشية، باب المدينة، باب العرب، باب البر»، ويقع بين باب الخندق ودار البارود، اشتهر هذا الباب باسم باب هوارة بسبب وجوده في موضع مقابل منازل قبائل هواره.

اشتهر هذا الباب أيضا باسم «باب المنشية» بسبب وجوده في موقع يقابل منطقة المنشية بضاحية مدينة طرابلس، كما اشتهر أيضا بـ«باب المدينة» لأنه كان يؤدي إلى وسط المدينة القديمة وأسواقها، واشتهر هذا الباب أيضا «بباب العرب» لأنه يؤدي إلى بوابة سوق الرباع الذي كان يعرف بسوق العرب، اشتهر هذا الباب أيضا «باب البر» وذلك في مقابل ما كان يعرف باسم باب البحر الموجود شمال المدينة وقد أنشأ هذا الباب المؤدي إلى جميع هذه الأبواب الوالي «جعفر باشا» أثناء توليه حكم طرابلس سنة (1581-1595م).

- **الباب الأخضر**... ويقع عند انتهاء سور باب الستارة في اتجاه ناحية ساحل البحر عند الجهة الشمالية من المدينة القديمة ويقابل هذا الموضع زنقة مدرسة الكاتب المعروفة بزنقة الريح[1]
- **باب العدالة**... «**او باب الغدر**» ويقع عند السور الجنوبي من المدينة القديمة في موضع يقابل زنقة الدباغ، وأطلقت السلطات العثمانية على هذا الباب اسم «باب العدالة» بينما يطلق الأهالي اسم «باب الغدر» بسبب قصة تداولها فيما بينهم مفادها (دفن أحد صبيان المدينة بجانب هذا الباب بسبب مؤامرة شهدتها حواريها كان لأحد رجال السلطة في العهد العثماني يد فيها).
- **باب الستارة**... ويقع في موضع مقابل لباب هوارة من جهة برج الساعة من جهة أخرى.
- **باب عبد الله**... اشتهر هذا الباب باسم «باب ستارة» لأنه كان مقاماً على سور باب الستارة الذي يعتبر من الاسوار الإضافية التي أقيمت في العهد الإسلامي وهو سور أقصر من السور الذي يحيط بها واشتهر هذا الباب أيضا باسم « باب عبد

1 كتاب حوليات اللّيبية، شارل فيرو 245.

الله» ويعني به عبد الله ابن مؤسس دولة تحصن به الأغالبة حيث أثناء مقاومته لعبد الوهاب سنة 815 هجري[1]

- **باب البحر**... ويقع عند السور الشمالي الشرقي للمدينة القديمة ملاصق لضريح سيدي عبد الوهاب « القيسي» ويتكون من فتحتين مزدوجتين بهذا السور إحداهما فتحة أمامية مقابلة جهة البحر باتجاه الناحية الشمالية الشرقية أما الفتحة الثانية فهي جانبية تقابل جهة البحر من الشمال.
- **باب زناتة...«بالقرب من الباب الجديد»** ويقع في موضع قريب من نقطة التقاء السور الغربي بالسور الجنوبي الذي يوجد به هذا الباب، واشتهر هذا الباب باسم «باب زناتة» بسبب وجوده في موضع مقابل لسكن قبائل زناتة، واشتهر هذا الباب أيضا باسم «باب الحارة» لأنه كان في منطقة مواجهة للحارة في المدينة القديمة، واشتهر هذا الباب أيضا باسم «باب الزنقة» لأنه كان حتى سنة 1910م موجوداً أمام بوابة تؤدي إلى زقاق غير نافذ يمر بداخل برج يقع عند الناحية الجنوبية للمدينة[2].
- **الباب الجديد**... يقع في موضع قريب من نقطة التقاء السور الجنوبي بالسور الغربي الذي يوجد به هذا الباب، اشتهر هذا الباب باسم «الباب الجديد» بعد أن تقدم أهالي مدينة طرابلس بطلب إلى الوالي العثماني محمود نديم باشا سنة 1865م لإعادة فتح باب زناتة القديم الذي تم سدهُ أثناء الحرب الأهلية التي قامت بين الأسرة القرمانلية ونظراً لصعوبة فتح الباب الاول مرة أخرى بسبب صلابة المواد التي أغلقت به لذلك سمح الوالي بفتح باب آخر في الجانب الغربي من باب زناتة الأول أطلق عليه اسم «الباب الجديد»[3].

الترب والمقابر: -

- مقبرة القرمانلية.
- مقبرة جامع شايب العين.
- مقبرة مدرسة عثمان باشا الساقزلي.

---

1 رحلة التيجاني طرابلس (708-706) هجري.

2 طرابلس (1510-1850) برنيا ص 27.

3 كتاب سكان ليبيا، تعريب خليفة التليسي ص100.

- مقبرة جامع قرجي وعائلته.
- مقبرة جامع درغوت.
- مقبرة محمد الساقزلي وعائلته.
- مقبرة جامع سيدي سالم المشاط بباب البحر، وهي مقبرة عامة لسكان المنطقة.
- مقبرة الزاوية الكبيرة، في قلب طرابلس القديمة وهي تربة عامة.
- مقبرة سوق العطارة، توجد داخل المدينة وتتبع جامع أحمد باشا القرمانلي بسوق المشير وكانت هذه المقبرة مقراً لسجن عثماني قديم يعرف بحمام سان أنطونيو أو «الزنزانات التحتية».
- مقبرة الزاوية الصغيرة توجد بباب البحر وتتبع الزاوية الصغيرة وهي مقبرة عامة.

الأسواق داخل أسوار المدينة القديمة: -

- سوق الخبزة... ويقع على رقعة واسعة بين دار البارود، ومقبرة سيدي حمودة (ميدان شهداء).
- سوق القطران... يقع ملاصقا للجانب الشرقي من سور المدينة.
- سوق الجير ... يقع عند طريق الحلقة في الموضع المجاور لفندق ميزران.
- سوق الحلقة... داخل أسوار المدينة القديمة ويمتد من سوق الصياغة إلى أن يتصل بشارع الزاوية الكبيرة، اشتهر هذا السوق بهذا الاسم بسبب ما يباع فيه من الصّوف المغزولة والمعدة على هيئة عقدة «الحلقة»[1].
- سوق الحصاير ... يقع بالناحية الغربية بالقرب من شارع الرشيد.
- سوق الحطب... يقع جنوب المدينة القديمة ويباع فيه الحطب.
- سوق الحرارة... يمتد من تقاطع الأربع عرصات من داخل المدينة القديمة إلى أن يتصل بزنقة الحمام الكبير من الناحية الغربية وسمي بهذا الاسم نظرا لما يباع فيه من أقمشة ومعدات حريرية.
- سوق الحرير... يتفرع من سوق الترك شارع سيدي درغوت باشا، وقد سمي بذلك

1 سجلات إدارة الاوقاف.

نظرا لما يقوم به النساجون من حياكة للأردية الحريرية وهو سوق مغطى بالعرائش الخشبية للإضاءة والتهوية.

- سوق الترك... يمتد من سوق «الرقريق» اليونان باتجاه الناحية الشمالية إلى أن يتصل بمركز تقاطع زنقة الريح، وسمي بسوق الترك لأن ما يباع فيه من سلع أغلبها قادمة من عثمانيا، كما أطلق على سوق الرباع بسوق (العرب) وسوق الفرامل (بسوق الرقيق) وهذا السوق كان مغطى بعرائش خشبية للإضاءة والتهوية - وفي عهد المملكة بعد الاستقلال تم بناء سقفه الحالي - وقد بناه الباشا «محمد باشا إمام» شائب العين خلال توليه الحكم (1687-1701م)[1].
- سوق الرقيق... ويمتد من سوق الرباع القديم من الناحية الشمالية حتى يتصل بسوق الفرامل الترك، وسمى بسوق الرقيق نظر ما كان يصنع فيه من ألبسة تقليدية ليبية (البدلة العربية) المكونة من السراويل، والفرامل، والزبون وجبب مزينة بالخرج على النمط البلقاني.
- سوق الرباع القديم (سوق العرب).. يقع هذا السوق داخل أسوار المدينة القديمة، ويتكون من أصل سوقين (سوق الكتب) وسوق (القويعة) الحالي، تطل عليه بوابة سوق الكتب من ناحية سوق المشير بينما يمتد عمقه باتجاه الغرب إلى أن يتصل بسوق القويعة الذي يأخذ الاتجاه ناحية الشمال إلى أن يتصل بفندق الزهر.

وقد شيد هذين السوقين «عثمان باشا الساقزلي» أثناء توليه حكم طرابلس(1649-1672م) وقد أخذ كل منها طرازًا معماريًا جديدًا للأسواق المغطاة بأسقف قبوية مرفوعة على أعمدة صخرية في صفوف منتظمة بينها بساطات منتظمة للجلوس عليها أثناء البيع والشراء.

أما السوق المعروفة لدينا بسوق الرباع القديم أو سوق «الرداوات» فهو يمتد من بوابته المطلة على سوق المشير إلى أن يتصل ببوابته الأخرى المطلة على سوق الصياغة، وقد نعت هذا السوق باسم «سوق الرباع القديم» لأنه يصادف في بداية القرن الثامن

1 سجلات إدارة الأوقاف

عشر الميلادي أن قام أحمد القرمانلي (1711-1754م) بإنشاء سوق الرباع الجديد الذي عرف بسوق «اللفة» ويمتد بطريق الحلقة إلى سوق الصياغة كما اشتهر بسوق اللفة نظراً لما يباع فيه من مواد صوفية ملفوفة ويحتمل أن يكون تشييده قد تم خلال حكم أحمد باشا القرمانلي بنفس النمط الذي بنى به عثمان باشا الساقزلي سوقه المعروفة بسوق « الربع القديم ».

- سوق الصياغة... ويمتد من سوق العطارة إلى أن يتصل بجامع الناقة اشتهر هذا السوق بالصياغة، نظرا لما كان يصنع ويباع فيه من مصنوعات من الذهب والفضة ويأخذ السوق شكل الطرق المكشوفة.
- سوق العطارة... يمتد من سوق المشير إلى أن يتصل بسوق الصياغة واشتهر باسم سوق العطارة بسبب وجود محلات لبيع العطور ومواد الطيب به.
- سوق المشير... يمتد من باب المنشية إلى أنْ يتصل بباب عبد الله وهو سوق مكشوف يأخذ شكل الطريق، وسمي«بالمشير» على اسم ضابط يحمل هذه الرتبة.
- سوق فم الباب
- سوق بين البيبان
- سوق الطباخة
- سوق النجارة
- سوق النسى
- سوق الجبابرية
- سوق الزنادية
- سوق السرارة
- سوق التركة
- سوق السبابط [1]
- سوق السراجة

1 كتاب طرابلس الغرب، محمد ناجي.

الفنيدقة: -

وهي حي صغير يقع داخل أسوار المدينة القديمة به جامع الناقة الذي يبلغ عمره أكثر من ألف عام تمددت من موضع هذا الجامع إلى أن تصل شمالا بزنقة البقار غربا بشارع قوس الصرارعي، اشتهرت هذه المنطقة بهذا الاسم بسبب تجمع الفنادق القديمة بها التي بنيت في العهد العثماني الأول لعدة أغراض منها: مبيت القادمين إلى المدينة أو إلى طرابلس التي لم يوجد بها فنادق كالتي نراها الآن ومنها بيوت استعملها الناس لتخزين البضائع منها من استعملت كمصانع صغيرة لصناعة الذهب والفضة ونقش النحاس وغيرها من الصناعات الصغيرة، ومنها من استعملت لصبغة الأقمشة والحرير، منها من استعمل لنسيج الأردية الحريرية والقطنية، والصوفية.

كما استعملت بيوت هذه الفنادق لأغراض أخرى كمكان للسهرات النظيفة لشباب ذلك الزمان، ومنها من يتعلم فيها الشباب حفظ القرآن وتعلم المألوف وحفظه والحقيقة كانت هذه الفنادق التي يملكها أفراد أو عائلات تؤدي للمجتمع العديد من الخدمات لعدة أسباب في مقدمتها قربها من الأسواق التي يبيع فيها التجار كل شيء وما يحتاجه الناس من كل شيء.

فالأسواق التي تحيط بها مفتوحة كل يوم، يبيع ويشتري منها المواطنون والأجانب كل شيء كذلك القوافل التي كانت تأتي من أفريقيا محملة بالبضائع والسفن التي تأتي من أوروبا محملة بالبضائع الأوربية كلها تصب في الأسواق المحيطة بمنطقة الفنيدقة مما جعل هذه المنطقة قلب المدينة القديمة بل وطرابلس لأنها تزخر بكل ما يطلبه سكان ليبيا من أقصاها إلى أقصاها فازدهرت فيها التجارة، والصناعة والسياحة بفضل ما أنشىء فيها من مساجد، وأسواق، وفنادق، جعلتها قبلة لكل زائر أو سائح لطرابلس الغرب بل ليبيا كلها.

وهذه أسماء بعض الفنادق التي بنيت في هذه المنطقة التاريخية القديمة: -

- فندق الفقيه حسن.
- فندق حواص، وكان يملكه صاحب اليوميات اللّيبية حسن الفقيه حسن.
- فندق بن مسعود.
- فندق وهرة، يوجد عند منطقة الفنيدقة كانت تملكه عائلة بن مسعود.
- فندق الغدامسية، في القرن التاسع الميلادي ملِّك لعائلات أخرى بعدها.
- فندق قرجي.
- فندق العدلوني، يوجد عند منطقة الفنيدقة كانت يملكه مصطفى قرجي رايس المرسى في القرن التاسع عشر الميلادي.
- فندق التوغار.
- فندق سيالة، يوجد بمنطقة الفنيدقة وكان ملك هذه العائلة على التوالي.
- فندق النجار.
- فندق بن سعيد، يوجد بنفس المنطقة عند سوق الترك.
- فندق الطبجية، يوجد بنفس المنطقة عند سوق الترك.
- فندق الزهر، يوجد عند سوق المشير بنفس المنطقة وهو من الفنادق القديمة.
- فندق قرجي شيد خلال القرن السابع عشر الميلادي به غرف تسمى «الربع» جمعها «الرباع» وقد اكتسب سوق الرباع القديم اسمه من هذه الغرف، وكان ملكاً للريس «مصطفى قرجي» خلال القرن التاسع عشر الميلادي وكان هذا الفندق يقوم بتسويق مادة زهر البرتقال واكتسب اسمه منه.
- فندق القرقني، ويوجد بين سوق العطارة وسوق الصياغة كان يملكه (شيخ البلد علي القرقني) إبان العهد العثماني الثاني عرف فيما بعد الفندق بن زكري.
- فندق ميزران، يوجد بطريق الحلقة بناه الحاج رمضان ميزران المتوفّى (1319 هجري) وهو الذي شيد جامع ومدرسة القرآنية سميا باسم (شارع ميزران).
- فندق بو دلغوسة، يوجد داخل أسوار المدينة القديمة عند طريق الحلقة.

- فندق الباشا، يوجد عند سوق الترك شيده عثمان باشا الساقزلي أثناء توليه حكم طرابلس (1649- 1672م)
- فندق الدروز يوجد عند شارع درغوت بالقرب من بوابة سوق الحرير.
- فندق مارية.

ملحوظة:-

يلاحظ أن هذه الفنادق سميت بأسماء ملاكها الأوائل ثم الذين اشتروها أو استلموها من الحكومات المتعاقبة.

- فندق الهنشيري، يوجد عند سوق الترك وتملكه عائلة الهنشيري.
- فندق الخوجة، يقع بالقرب من زنقة الحليب المتفرعة من سوق الترك وتعرف الآن بزنقة جامع الدروج.
- فندق بعيشو، يوجد داخل زنقة الخمري المطل شمالها على البحر.
- فندق القرمانلي وهو فندق الرمانة وفندق المالطية.
- فندق الرمانة.
- فندق المالطية، وكان المالطيون يصلحون شِبَاكهم التي يصطادون بها الأسماك.
- فندق البندقية ويوجد عند باب البحر أمام مخزن الرخام كان يملكه علي باشا القرمانلي (1754-1793 م) ثم استعمل كمقر لقنصلية البندقية، ثم بني على انقاضه نادي المدينة القديم أمام البحر واشتهر بفندق الرمانة نظرا لوجود شجرة الرمان به.
- فندق بنت السيد.
- فندق بن قداره.
- فندق جنوه ويوجد عند باب البحر أمام مخزن الرخام كان يملكه شيخ البلد محمد الشريف أثناء العهد العثماني الثاني ثم انتقلت ملكيته إلى ابنته وبعد وفاته استعمل كمقر لقنصلية جنوه إبان العهد القرمانلي.
- فندق الضفايري.

- فندق زميت، وسمي باسم العائلة.
- عند باب البحر أمام مخزن الرخام كان ملكا للضفايري وزميت وهما من أكبر تجار القوافل في مدينة طرابلس خلال فترة العهد القرمانلي.
- وكما سلف ذكره فقد سميت هذه القوافل باسم أول المالكين لهما ثم تعاقبت ملكيته للأسماء الأخرى على التوالي[1].

بعض المسميات ذات المغزى التاريخي داخل وخارج (المدينة القديمة):

- الكردون... هو سور أنشأه الإيطاليون في سنة 1913م خارج أسوار مدينة طرابلس، من بواباته فتحة عند منطقة أبي ستة، ورأس حسن يبدأ من شاطئ أبي ستة إلى شاطئ قرقاش.
- كاوش... طريق الخندق، ثكنة عسكرية لجنود العثماني وتقع عند طريق الخندق داخل أسوار المدينة القديمة، تم تشييد هذه الثكنة في ولاية «أحمد راسم باشا» سنة 1299 هجري.
- كلية رجب باشا الحربية... وهي كلية عسكرية عثمانية تقع داخل أسوار المدينة القديمة عند السور الشمالي الشرقي القائم عند مدخل باب البحر وتطل واجهتها الشمالية الشرقية على ميناء طرابلس الحالي وقد أقيمت هذه الكلية لتخريج ضباط أتراك للجيش العثماني، وخلال فترة الإحتلال الإيطالي تحول مبنى هذه الكلية إلى مقر لإدارة الجمارك.
- الكوشة... وهي الفرن وجمعها «أكواش» وهناك مجموعة من الأكواش داخل المدينة القديمة لا بأس من ذكرها[2] :-
- كوشة العسكر وتوجد بالقرب من جامع سيدي الشنشان الملاصق لمصرف ليبيا المركزي
- كوشة المجزرة

1 المنهل العذب في تاريخ طرابس الغرب – أحمد النائب.

2 كتاب سكان ليبيا، تعريب خليفة التليسي.

- كوشة الحلقة
- شارع الأكواش ويضم مجموعة من الأكواش بباب البحر
- كوشةالصفار
- زنقة الكوشة
- كوشة سيدي عمران
- كوشة اللحلاحي
- زنقة كوشة النصارى
- كوشة باب البحر
- كوشة انفيص
- كوشة الفنيدقة
- كوشة الفلاح

المدينة: -

هي رقعة من الأرض في قلب البلاد تعيش فيها مجموعة من الناس يحملون بالتزامن موروث حضاري تعاقب على مدى الأزمان التي مرت على هذه المدينة، وأضاف إلى حضارتها وأسلوب عيشها المختلف مزيدًا من العادات والتقاليد شكلت مفهوما جديدًا أضاف إلى المدينة شيئا آخر اندمج مع موروثها القديم فأثر فيه وتأثر به[1].

هذه المدينة أي طرابلس بها: -

- عدد (5) أضلاع من الأسوار.
- عدد (9) أبواب تفتح عند الفجر وتقفل عند المغرب.
- عدد (7) حصون وأبراج رئيسية، و(2) قلاع وكان يقيم بها عام (1917) عدد (9303) نسمة من السكان ما عدا الجاليات الأجنبية على مساحة تقدر بـ (48) هكتارًا تقريبا.

---

1 اليوميات اللّيبية، حسن الفقي حسن ص 224.

- عدد (10) أسواق مكشوفة، و(3) نصف مغطاة، و (5) مغطاة و(4) مندثرة، عدد (19) فندقًا، و(3) حمامات بخارية و(4) مدارس و(3) سجون للأسرى، و(12) مقر لقنصليات أجنبية، و(9) مساجد جامعة، و(25) مسجد أوقات.

المحروسة:-

اسم يطلق على مدينة طرابلس جامعة تخضع لحكم الباشا خلال حكم آل عثمان، وحكم القرمانليين.

- المدارس داخل أسوار المدينة: –
  - المدرسة المنتصرية أو المستنصرية.
  - مدرسة عثمان باشا الساقزلي.
  - المدرسة العسكرية العثمانية.
  - مدرسةأحمد باشا.
  - مدرسة قرجي.
  - مدرسة الكاتب.
  - مكتب العرفان.
- العملة التي استعملت في جميع العهود في ليبيا ... لم تسعفنا المصادر والوثائق التاريخية بأسماء العملة التي كانت مستعملة في ليبيا أو ولاياتها قبل العهد العثماني، أما في ظل هذا العهد وما بعده فقد تداولت في ليبيا العديد من العملات النقدية أول عملة عثمانية سكها الوالي عثمان باشا الساقزلي 1649–1672 كان تعرف باسم الطرنيش.
- وفي العهد العثماني الأوّل استعملت ليبيا (القرش والمحبوب، والبوتسعين، والمجيدي والبوشليك، والزلطة)، وهي عملات منها الذهبي والفضي والنحاسي.
- وفي عهد السلطان العثماني سليمان الثاني 1687–1690م صدرت عملة القرش الفضي
- وفي عهد السلطان سليم الأول 918–926 هجري صدرت عملة المحبوب الذهبي،

وظلت هذه العملة تتداول في جميع الأقطار التي ظللها حكم سلاطين آل عثمان، أما العملات الأخرى فهي الجنيه الإنجليزي الذي يساوي 113 قرشا فضيا، والنابليون هي عملة فرنسية ويساوي 90 قرشا فضيا[1].

أما عملة الحكومة الإيطالية بعد الاحتلال فكانت...

- (ابو طيرة والفرنك)، وعملة اسمها «مارياتيريزا» وهي معدنية وورقية الصنع وقد منعتها الحكومة الإيطالية نظرًا لما حدث فيها من تزوير قام به الأجانب المقيمون في ليبيا.
- «أبو مهراس» هي عملة «نابلي تانا» إيطالية، كذلك تعامل الناس بعملة تونسية «أبو أربعة، وأبو خمسة»وتتعامل بها طرابلس –كذلك «الفرانك البابوي» نسبة إلى بابا الفاتيكان.
- أما في عهد الإدارة البريطانية على ليبيا قد استعمل (المال) وهى عملة الإدارة العسكرية البريطانية في ليبيا، الجنيه الإسترليني، والشلن وتابعه.
- وفي عهد الاستقلال عام 1951م استعملت عملة الملك ادريس السنوسي وهي (المليم، والقرش، والجنيه الليبي) وقد استمرت عملة الملك ادريس إلى 1969م بدل المليم (بالدرهم) والجنيه (بالدينار).

1 معجم البلدان – الطاهر أحمد الزوي ص 326.

بيوت المدينة المفتوحة
زمان .... زمان
مدينتي القديمة

كانت منازل المدينة القديمة مفتوحة للشمس، والقمر، والمطر ليس بها سقوف كالبناء الحديث، فإذا حل فصل الصيف تطرد حرارة الجو «بالمراوح السّعف» التي تستعمل يدويا، وفي فصل الشتاء وبرده القارص نتدفأ على»الكوانين» أما الأمطار التي تنهال بغزارة فيستقبلها وسط الحوش الذي يخلو من المجاري ماعدا حفرة أعدت لاستقبال ماء المطر تحفر وتزين من أحد الجوانب وغالبا ما تكون بجانب البئر أو الماجل اللذَّين لا يخلو منهما حوش عربي إلاّ قليلاً، وعندما تهطل المطر بشدة تقوم صاحبة البيت إذا لم يسكن معها جيران برفع المياه من تلك الحفرة وصبّها في الماجل أو البئر حتى لا تغمر غرف البيت بالماء وإذا كان بالبيت مجموعة من السكان تقوم كل امرأة منهم بواجب غرف المياه و وضعها في الماجل وهو أمر لا مفر منه إلا لعذر مقبول، وبالرغم من شدة هطول المطر والبلل والبرد الذي يصيب كل منهن إلا أن التذمر أو الخصام بينهن غير موجود شعورًا بأن مايقمن به واجب مقدس ينبع من الضمير ويتفق مع المصلحة المشتركة للجميع.

لم تنْس يا مدينتنا القديمة كم لعبنا في شوارعك، وكم قفزنا ونحن صبية صغار لنلحق بأقواس زقاقك الضيقة، نلعق ترابك، ونستنشق دخان «أكواشك» التي تناثرت في كل حومة وحيّ من أحيائك دون أن نتأثر بأضرار مداخن هذه الأكواش أو بماء المطر الذي نلعب فيه، ودون أن نحس ببرد أو حر بل كنا نشارك أقراننا من الصبية والآخرين في حمل صفرة الخبزة أو طاجين الغداء اللذين تعدهما الأمهات وتدفعنا بها إلى «الكوشة» لكي يكون جاهزا عند الغداء وهو الوقت الذي يعود فيه الآباء من أعمالهم لتناول الطعام.

كل مجموعة من الصبيان يقصدون الكوشة القريبة من بيوتهم، ففي باب البحر توجد مجموعة من الأكواش سمي الشارع الموجودين بـ«شارع الأكواش» ولكن الصبية يقصدون كوشة «المحروقي» لأنهم يحبونه للطفه ومعاملته الطيبة لهم، وفي حومة غريان توجد كوشة «البهلول» وكان أيضا رجلاً مرحًا يحبه الأولاد ويرمون عنده الخبز، وكذلك

الرايس «عويدات» والرايس«عبدالكريم» وفي كوشة الصفار كانت كوشة «خميره» وغيرها من الكوش المنتشرة في أنحاء المدينة القديمة التي كان الخبّازون يرمون فيها خبزهم العام الذي يريدون بيعه في السوق عند الفجر ثم تأتي بعدهم خبزة وطواجين السمك واللحم التي يأتي بها الصبيان، وكم من صُفر حملها الصبية إلى هذه الأكواش في المناسبات الدينية والأعراس مملوءة بالحلويات مثل «المقروض»، و»الغريبة»، و»البكلاوة»، و»الكنافة»، و«الكعك»، و«المحنشية» وغيرها من الحلويات التي تسقى بالعسل بعد نضجها في الكوشة دون أن تضيع صفرة أو تتبدل والسبب هو أن لكل بيت علامة خاصة به يضعها فمن البيوت من يكتب اسم ربّ البيت في ورقه يضعها بعناية في جميع الصفر الخاصة به، ومنهم من يضع حبة لوز بقشرتها في كل صفرة ومن يكتب اسمه من خلف الصفرة وبذلك يضمن كل واحد الصفرة الخاصة به وهكذا سرت العادة بين الناس.

حنفيات البلدية بشوارع وزقاق المدينة

وفي العهد العثماني لم تكن مواسير المياه قد وصلت للمدينة القديمة بل كان الناس يدبرون أمورهم في مياه الشرب والغسيل، وفي العهد الإيطالي مدّت الأنابيب لشوارع المدينة القديمة وأصبحت المياه متوفرة في كل الشوارع والزقاق كان الناس يملأون منها «جرادلهم» أو يسخرون من يملأ لهم من الماء ما يتمكنون به من غسل ملابسهم وتحميم أبنائهم مقابل قروش قليلة، وكانت المياه تدخل البيوت فيما يسمى «بالنقلة» هناك من يحتاج إلى نقلة وهناك من يحتاج إلى أكثر حسب ظروف العائلة وعددها وقد سخر لهذا الغرض أربعة رجال أحدهما كفيف البصر ويسمى جميل، والآخرين مبصرين سمي أحدهم «فرتونة» وهي كلمة إيطالية تعنى (الحظ) والآخران عمي أحمد، وعمي بلقاسم وهما ورديتان اثنان صباحًا، واثنان بعد الظهر كانوا يغطون جزءً واسعًا من المدينة يوم هنا ويوم هناك.

وعاشت المدينة وسكانها على هذه الحالة ردحًا من الزمن باستثناء القنصليات الدبلوماسية داخل مدينة، ومساكن المسؤولين وأصحاب النفوذ فقد مدّت إليهم أنابيب المياه في العهد العثماني واستكملت في العهد الإيطالي، أما العامة فقد عانوا كثيرا في العهد العثماني في نقل مياه عن طريق «نقلة» إلى وقت متأخر من العهد الإيطالي وعهد الوصاية إلى أن جاء عهد الاستقلال الذي مدّت فيه مواسير المياه إلى كل شارع وبيت من بيوت المدينة القديمة.

وسائل الإضاءة بالمدينة

في العهدين العثماني الأول والثاني كانت أبواب المدينة الرئيسية التسعة تفتح عند الفجر وتقفل عند المغرب فلا دخول للمدينة بعد هذا الوقت ولا خروج منها.

والمدينة كانت تضاء بمصابيح معلّقة بالحيطان تضاء «بالكيروسين» موجودة في الشوارع والزقاق، أما البيوت فكانت تستعمل «القازة» أو«الفنار» اللّتين تعملان أيضا بالكيروسين، وإذا حدث وانتهى الكيروسيين من البيت فالوسيلة الوحيدة للإنارة هي «الفتيلة» الزيت المكونة من قطعة قماش تبرمها ربة بيت بيديها وتضعها في إناء مملوء بزيت الزيتون ثم تغمرها من أحد أطرافها فيه، وبأسلوب الأواني المستطرقة يصعد الزيت إلى الفتيلة المبرومة فتضيء لهبًا ينير الغرفة تقضي به العائلة حوائجها، والواقع أن الكيروسين في المنازل كان ضروريا للعائلة فإلى جانب الإنارة يستخدم في طهو الطعام عن طريق ما نسميه «البابور» الذي كان في كل بيت في المدينة لأنه أسرع من طهو الطعام على الفحم الذي كان متوفرًا ورخيص الثمن.

ولم تر المدينة القديمة الإنارة بالكهرباء في الشوارع إلا في عهد الإدارة البريطانية أو في بيوت الأعيان والوجهاء، وكنا نحن صبية صغار ننتظر ضوء الشارع ينير حتى نفرح ونقول «الياتريك اشعل وعمي نوري حل» لأن عمي نوري العايب صاحب دكان بقالة لا يفتح إلا بعد فتح ضوء الشارع ولم ننعم بالكهرباء وتمد أسلاكها في بيوت المدينة إلا في عهد الاستقلال حيث فتحت شركة الكهرباء أبوابها لمن يريد أن يدخل الإنارة لبيته أو دكانه.

الصحافة والصحف الصادرة بالمدينة القديمة

عرفت ليبيا في العهد العثماني وما بعد طفرة صحيفة نشيطة امتدت إلى ما بعد الاستقلال عام 1951م ونذكر منها الصحف الصادرة للمدينة القديمة وطرابلس على وجه العموم لتعريف القارئ الكريم بأسماء الصحف وتاريخ صدورها وأسماء مؤسسيها آنذاك تعميما للفائدة.

فمنها الناطق بلسان حال الحكومة مثل جريدة (طرابلس الغرب) والجريدة الأهلية التي يصدرها الأهالي من (أبناء الشعب) كالعصر الجديد، والترقي واللواء الطرابلسي والكشاف وهناك صحف يصدرها أشخاص منفردين بكل شيء فيها تنسيقًا وتحريرًا وطبعًا وإشرافًا وتوزيعًا وهناك صحف تصدرها جماعة في شركة مساهمة مثل جريدة (الترقي) كما عرفت الصحافة جرائد كان يصدرها حزب أو هيئة مثل جريدة اللواء الطرابلسي التي يصدرها حزب الإصلاح الوطني وصحيفة «شعلة الحرية» التي يصدرها حزب المؤتمر الوطني و«الوطن» لجمعية عمر المختار وهناك جرائد ذات اتجاه ديني مثل «الأسد الإسلامي» وهناك أيضا الصحف الخطية مثل (البلاغة) وجرائد طبعت بالطبع الحجري، وصحف طبعت بالحروف المعدنية المألوفة، كما توجد صحف مختلفة الجنسيات منها من تتحدث بلسان العثمانيين ومنها من تصدر باللغات الإيطالية، والفرنسية، والانجليزية، وحتى بالعبرية التي صدرت في أواخر العهد العثماني الثاني لواء صهيون.

- **محرروا الصحف**

أما محرروا هذه الصحف فهم من طبقة ضباط العثمانيين، والأزهريين أي خريجو الجامع الأزهر بمصر، والزيتونة، وهم من خريجي جامع الزيتونة بتونس، والموظفين، وكتاب الصحافة المتنقلين، ونذكر من الأزهريين علي عياد، أحمد الفساطوي، محمد نديم بن موسي، ومن الذين تخرجوا من جامع الزيتونة سليمان الباروني، الهاشمي أبو قشة وقد كان لهذين المنارتين الأزهر والزيتونة أثر كبير في النهضة الفكرية آنذاك وقد بدء صدور الصحف المقروءة في طرابلس سنة 1866م وازدهرت منذ 1908م لغاية 1911م وكان منها من يصدر يوميا من ورقة وأحدة مثل (طرابلس الغرب) وهي لسان الدولة وتصدر باللغتين العربية والعثمانية.

- **صحف صدرت بالمدينة القديمة**

جريدة (من الشعب للشعب) رئيس تحريرها وصاحب امتيازها محمد علي البارودي كانت إدارتها بزنقة الفنيدقة ملاصقة لجامع الناقة وكانت أسرة التحرير فيها حسين كمال، عبد الرحمن الزقلعي، أحمد عويدات، قاسم شقرون، وقد أسهم فيها ثلاث من الشعراء نذكر منهم سامي بن شتوان، السنوسي بن صالح، محمد بن إبراهيم من الأزهر.

- **جريدة الكشاف**

وهي من جرائد فترة الإزدهار الصحفي في أوائل القرن العشرين بطرابلس كان مقرها بحومة البلدية بالمدينة القديمة وكان صاحب الإمتياز فيها والمدير العام «محمد بك النائب الانصاري» ومن أسرة النائب العريقة بطرابلس التي هاجرت منذ قرون من الاندلس إلى طرابلس الغرب وكان جدهم المؤرخ أحمد النائب صاحب المكتبة والكتاب التاريخي الشهير المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب.

- **جريدة- جديدة طرابلس**

جريدة أسبوعية أصدرها الإستعمار الإيطالي سنة 1912م وكانت تصدر بدائرة البلدية بسوق الترك، وكان الوالي (كارلو كاتينا) ينشر على صفحاتها ما يصدر عنه من أوامر وقوانين في صفحتها الأولى وقد عهدت السلطات الإيطاليـة «لا رتونا موسى» و«جبران إبراهيم ناعوم» المسؤولية عنها.

- **جريدة الجريدة**

كان مدير إدارتها محسن ظافر، موقع إصدارها بمحلة كوشة الصفار وصدرت في ورقة وأحدة ذات صفحتين من الحجم الكبير.

- **جريدة الوقت**

وقد صدر العدد الأول منها بتاريخ 10ابريل 1920م وهي جريدة سياسية، علمية، أدبية، صاحبها محسن ظافر المدني، وعاصرت جريدة اللواء الطرابلسي، « وجريدة الرقيب» ومكان إصدارها بالمدينة القديمة.

- **مجلة الإصلاح**

مجلة علمية، سياسية تبحث في الشئون العامة بلا حدود تصدر مرتين في الشهر، مدير تحريرها عبد الله جمال الدين الميلادي، ومدير الامتياز والمدير المسئول مختار الشامي الفاروقي، ومقرها بالمدينة القديمة زنقة جامع الدروج رقم 42.

- **صحيفة صوت طرابلس:**

تصدر باللغة الإيطالية وتعبر عن وجهة نظر يهود طرابلس، وتطبع في مطبعة «ح أربيب» وتصدر مرتين في الأسبوع يومي السبت والأربعاء ومديرها جوستافو أربيب تطبع في المدينة القديمة بإحدى حارات اليهود.

- **صحيفة الدردنيل**

ومدير تحريرها يهودي فرايم تشوبه وتطبع في مطبعته باللغة العبرية مرة واحدة في الأسبوع واتجاهها ديني أكثر منه سياسي، وقد استمرت في الصدور حتى سنة 1911م ثم توقفت، وقد زخرت المدينة القديمة وحاراتها اليهودية الكبيرة والصغيرة بالعديد من المكتبات اليهودية على نمط مكتبة دار صويد، وسيمون، وحدادي، وروبين، وأنجلو أربيب.

أما في المدينة القديمة فقد صدرت الصحف التالية:

- **جريدة الترقي**

وهي أول صحيفة شعبية سياسية، علمية تصدر أسبوعيا كل يوم سبت وتاريخ اصدارها 1897/7/26م في عهد الوالي العثماني نامق باشا.

- **جريدة اللواء الطرابلسي**

وهي جريدة سياسية إجتماعية أدبية، اقتصادية مديرها وصاحب الامتياز فيها السيد عثمان القيزاني ناضلت من أجل الشعب الليبي وهاجمت الاحتلال، والاستبداد، وفضحت أتباع الاحتلال من منافقين وجواسيس.

- **جريدة البلاغ الأولى**

تصدر في مدينة مسلاتة سرًا وكان يحررها المناضلان بشير السعداوي وعثمان القيزاني وخلال الستينيات أعاد المرحوم علي وريت إصدارها بنفس الاسم (الثانية).

- **جريدة تعميم حريّات**

صدرت بتاريخ 1908م وكانت أعدادها تنشر كل أسبوعين، وصاحبها المحامي قدري ويشترك معه في التحرير خليل كامل، واستمرت في الصدور وتوقفت عام 1911م.

- **جريدة المرصاد**

جريدة أسبوعية سياسية صدرت سنة 1910م لصاحبها الشيخ أحمد الفساطوي.

أما الجريدتان:-

(المنقب) وصدرت سنة 1827م باللغة الفرنسية ويشرف عليها قناصل الدول الأجنبية «والعصر الجديد» وصدرت في مارس 1908م حتى 1910م وهي علمية سياسية.

المسارح داخل نطاق المدينة القديمة

كانت المدينة القديمة منذ عهدها الأول أرضا لكل الفنون المتعددة من مسرح وغناء وقصة وشعر وغيرها من الفنون أتينا على ذكر بعض منها نلحقها بما تأسس من مسارح داخلها.

- **مسرح امبوراخ:**

أعتقد أن امبروراخ اسم يهودي إمّا أن يكون اسم شخص مهم أو اسم لمعبد أو صفة لشيء ما لم تذكره المصادر التاريخية أو الروايات الشفهية تأسس هذا المسرح سنة 1880م إبان العهد العثماني في زنقة الخمري النافذة علي شاطئ البحر والتي تأسس بها نادي باب البحر سنة 1954م وموقعها قرب مدرسة عثمان باشا بمحلة باب البحر.

- **مسرح زنقة ميزران:**

وموقعه زنقة جامع ميزران بسوق الترك رقم 124 وستعمل حاليا مصنعا للأردية المصنوعة يدويا وهو ملك لمحمد التكتيك.

- **مسرح فندق الطبجية ويطلق عليه اسم «مسرح البولتياما»:**

يوجد في منطقة الفنيدقة بالمدينة القديمة، وتعني البولتياما «عالم المسرح» ويقع تحديدا بسوق الترك أو ما يسمى بسوق الحرير حيث تصنع أردية الحرير وقد أمر ببنائه الوالي عثمان الساقزلي سنة 1654م خلال ولايته على طرابلس وتعود ملكياته إلى إدارة الأوقاف وتتسع قاعته حوالي 500 كرسي وبه شرفة ومدرج يسع 300 كرسيًا وكان إيجاره لليلة واحدة عام 1936 خمسمائة ليرة واستمر حتى عام 1943 حين تم تحويله إلى دار لعرض الأشرطة السينمائية وأعطيت اسم «سينما النصر».

- **النادي الموسيقي بمحلة المدينة:**

تأسس عام 1933»بزنقة الوصيف» بمحلة حومة غريان وكان من بين أعضائه الهادي المشيرقي، كامل القاضي، وأحمد الخوجة، خليل التارزي، وبشير فهمي، وكان من

أكبر المطربين والملحنين في طرابلس وعدد من الموسيقيين اليهود الذين كان لهم دور في الأغنية والموسيقى في طرابلس عامة والمدينة على وجه الخصوص وعاش هذا النادي لمدة ثلاثة سنوات فقط.

وأشير إلى بعض المسارح لا تقع في بعض محلات المدينة القديمة لقيمتها الفنية وتراثها المتصل بالحركة الفنية التاريخية في طرابلس بل في ليبيا كلها التي تمثل بجميع مدنها ومناطقها وحدة واحدة لا تتجزأ في السياسة والاجتماع والفن بجميع صنوفه وألوانه...

الفرق المسرحية اللّيبية:

تشكلت عدة فرق مسرحية ما بين سنة 1950 م و1960م كانت أغلب مقارها بمحلة شارع ميزران وهي على التوالي:-

- الفرقة القديمة وتأسست في 1951/4/2م.
- الفرقة القومية وتأسست 1952م.
- فرقة الأمل وتأسست في 1957/7/26م.
- فرقة المسرح الوطني وتأسست 1966م.
- فرقة نادي الشباب وتأسست بشارع البلدية.
- فرقة النجم الفضي (النجم الليبي).
- فرقة المسرح الحر وتأسس 1970م.
- الفرقة الوطنية للتمثيل والموسيقى تأسست بمنزل الممثل الكبير الذي عاش في مصر حينا من الدهر مهاجرا كما عاش مع عدد من أقطاب الحركة الوطنية وكان ملاكما محترفا رحمه الله توفي في وطنه ليبيا بعد أن عاد إليها منذ مدة قصيرة أنه المرحوم محمد حمدي الذي قدمت فرقته أول مسرحية لها على مسرح الهمبرا (الحمراء) سنة 1936م.

ولكي ندلل لمن لا يعرف تاريخ ليبيا وينعتها بالجهل والتخلف منذ الزمن القديم الجميل نذكرهم بأن عاصمتها كانت منبعًا للفنون المسرحية والغنائية التي زارت طرابلس الغرب بين الأعوام 1914 إلى غاية 1962م وأحيت بتفوق كبير العديد من المسرحيات

والحفلات الفنية الغنائية على عدة مسارح في طرابلس كان مسرح «الميرامار» الذي كان مقره قريبًا من ميدان الشهداء حاليا وأبرزها روعة في جمال البناء والفن المعماري الذي يجيده أغلب فناني إيطاليا الذي تم إنشاؤه قبل أن تدمره طائرات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية وبذلك قضوا على آخر معاقل الفنون في ليبيا التي لم تعوض بعد ومن الفرق التي زارت طرابلس :-

- فرقة الشيخ سلامة حجازي الغنائية التي زارت طرابلس سنة 1914م .
- فرقة جورج أبيض المصرية للمسرح التي زارت طرابلس سنة 1921م .
- فرقة رمسيس بقيادة الأستاذ يوسف بيك وهبي وهي فرقة مسرحية زارت طرابلس سنة 1927م وتم تأسيسها سنة 1919م وعادت لطرابلس بعد الاستقلال لتقدم مسرحية أولاد الفقراء.
- فرقة المطربة منيرة المهدية الملقبة (بسلطانة الطرب) التي أحيت العديد من الحفلات الغنائية في طرابلس عام 1934م.
- فرقة بديعة مصابني (أميرة الطرب) وأحيت عدة حفلات بمدينة طرابلس سنة 1935م.
- فرقة فاطمة عز الدين التي اشتهرت بـ»بابا عز الدين» زارت طرابلس سنة 1937م وكانت فرقة طرب غنائية.
- فرقة فاطمة رشدي وهي فرقة مسرحية أدت العديد من المسرحيات على مسارح طرابلس عام 1938م.
- فرقة سودانية بقيادة الحاج محمد سرور زارت طرابلس سنة 1944م.
- فرقة المطربة السودانية (منوبية) قامت بزيارة طرابلس سنة 1944م وأدت العديد من الحفلات الغنائية.
- فرقة الأديبة (شافية رشدى) زارت طرابلس سنة 1949م وهي إلى جانب كونها تتعاطى الأدب والرواية فهي كذلك مطربة لها شأن بين المطربات.
- فرقة الصباح التونسية للمسرح والغناء.
- فرقة الفن اللبنانية بقيادة الموسيقي اللبناني (الياس الرحباني) وقد أحيت العديد من الحفلات الغنائية علي خشبة مسرح الحمراء ومسرح الغزالة.

- فرقة الفن الشرقية والأوروبية وقد قدمت عروضها على مسرح الغزالة وكان من بين أفرادها الفنان يوسف التميمي، ونعيمة الصغير، ومحمد سامي ودليلة رشدي والمطربة نور سلطان
- فرقة الفنانة إزابيل غزال التي أحيت حفلها الساهر على مسرح الودان بطرابلس .
- فرقة دار العلوم الإيطالية ومثلت مسرحيتها على مسرح صبراتة الأثري في مسرحية (حاملة القرابين).
- زارت طرابلس سنة 1962م.
- فرقة مسرحية أمريكية ومثلت على مسرح صبراتة الأثري مسرحية (حلم في ليلة صيف) للكاتب والشاعر الآنجليزي وليم شكسبير.
- وأخيرا فرقة الأوتار الذهبية بقيادة ابراهيم صالح وقد أحيت على مسرح «الأوديون» سينما الزهراء حاليا عدة سهرات شملت الغناء والتمثيل والرقص.
- تأسست في العهد الإيطاني بمدرسة طرابلس الثانوية (مدرسة عبد الله وريث) فرقة مسرحية أطلق عليها اسم فرقة التمثيل العربي قدمت عروضها المسرحية على خشبة مسرح الحمراء وكان ذلك بمناسبة المولد النبوي الشريف بتاريخ 1947/3/5م كما قدمت مسرحية بالإذاعة بتاريخ 1949/9/4م وهو الموعد الذي فتحت فيه الإذاعة اللّيبية رسميا ونقلت على الأثير تمثيليات المرحوم مصطفى الأمير.



حوش الحبيب

حنفية باب الجديد



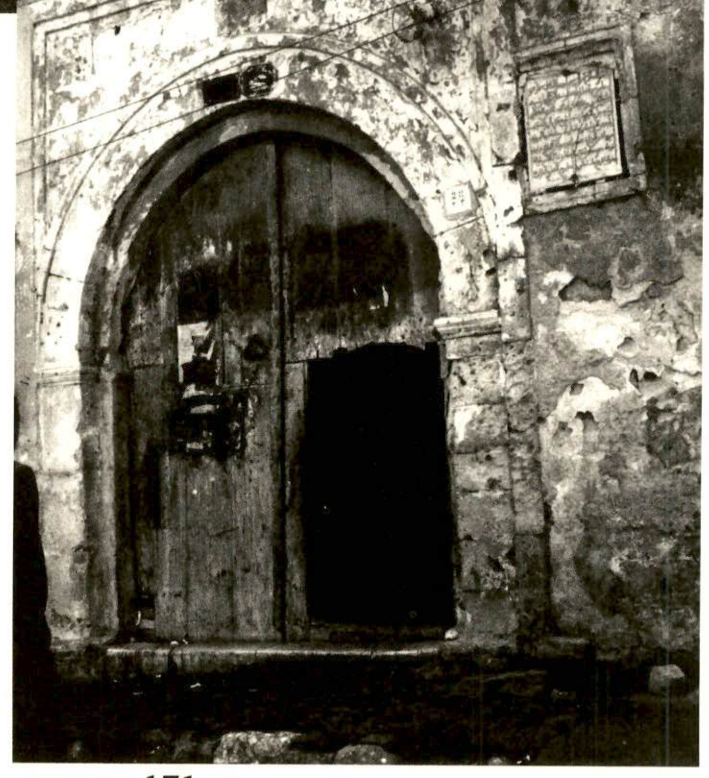
حنفية سوق الخبزة

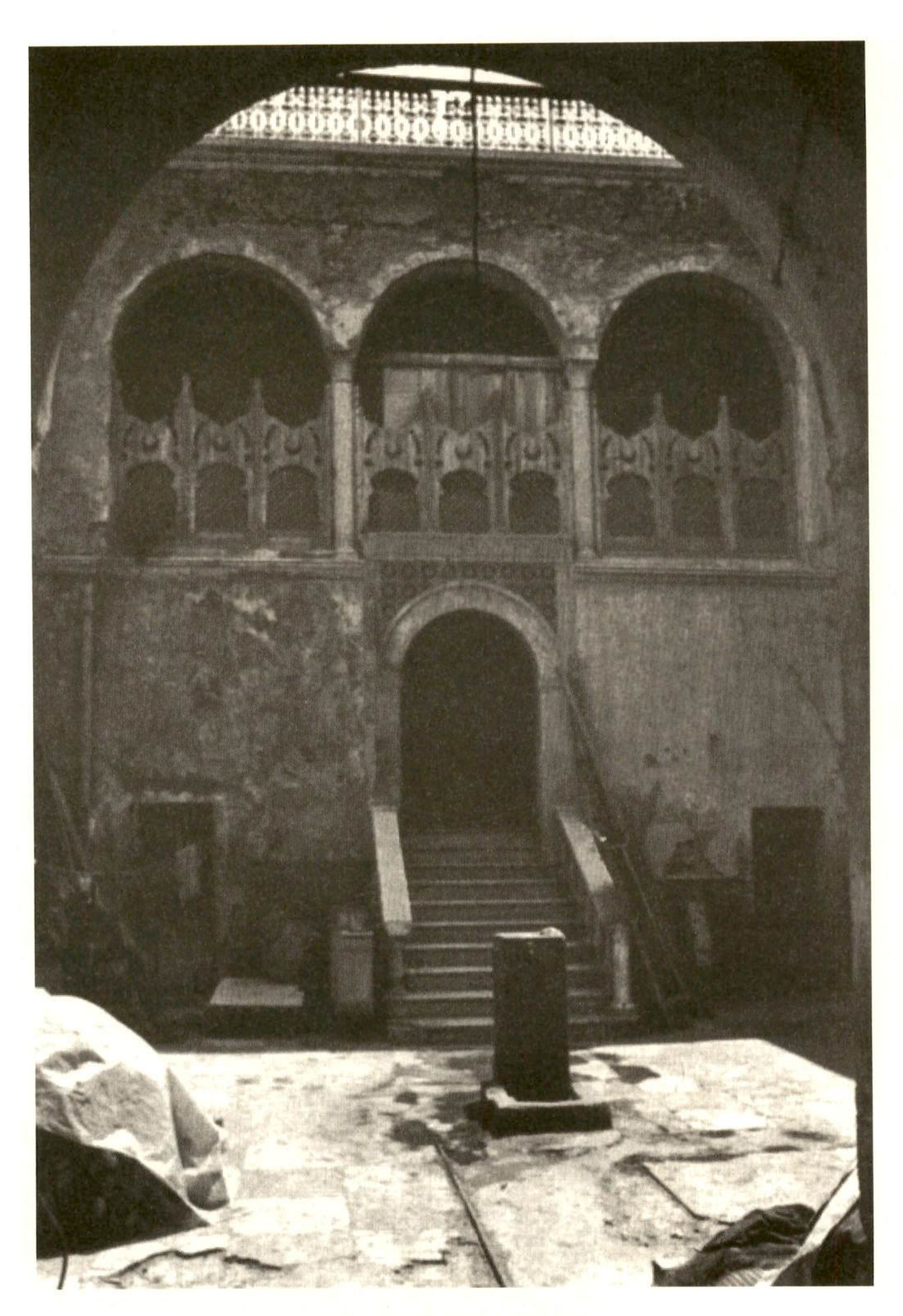


فندق الخوجة



فندق زميت





القنصلية الفرنسية

مسرح الغزالة



مسرح الميراماري

الفصل الرابع

المدينة وبساطة العيش

كانت حياة الناس في المدينة بسيطة بساطة أهلها، فالبيت كانت تسكنه الأسر حسب الغرف الموجودة به، كل أسرة تستأجر حجرة، كل حجرة تستقل عن الحجرات الأخرى بستار قماش يفصلها عن غيرها من الأسر.

الحجرة في الداخل بها «سدة» مصنوعة من الخشب تحتها خزانة توضع فيها حاجيات الأسرة من أواني ومؤن تخص العائلة «السّدة» مخدع الأب والأم عند النوم ووسط الغرفة ينام فيها الأطفال على حصير فوقه ما نسميه إن وجدت «مناديره» ينام عليهم أفراد الأسرة ما عدا الطفل الرضيع فهو ينام بجانب أمه في «الدرجيحة» لعله يحتاج إلى الرضاعة التي لا سبيل آخر لها سوى صدر أمه فقط وإذا قل الحليب من صدر أمه فلا بأس أن تسلمه لجارتها لإرضاعه ليصبح أخًا وأختًا لأبنائها وهكذا يعيش جميع الأبناء إخوة وكأنهم من رحم واحد.

وما أن ينبلج نور الفجر حتى يبدأ التقاطر على حمام البيت الواحد فتدخله النساء على التوالي أما الرجال فيذهبون إلى المساجد لقضاء حاجاتهم في حماماتها ثم يعودون إلى البيوت لتناول طعام الإفطار الذي تعده النِّساء على النار، والنار في البيت مشاعة، فالمرأة التي توقد النار أولاً هي التي يوقد الآخرون نيرانهم عن طريق «الماشة» التي يمسكون بها جمرة النار التي يحصل عليها جميع الأسر في البيت ويتعامل الجيران بمودة ورحمة فالأسرة التي ينقصها الشاي أو السكر والبن تستعيره من جارتها متوفرة لديها، والطفل الذي لا يعجبه إفطار أمّه يفطر مع أخواته أبناء الجيران الآخرين حتى عندما يدخل الطفل مرحلة الصبا يستمرون على هذا الحال ابن الجيران أخ وابنة الجيران أخت وكلما كبر الصّبيان تولدت عندهم مزيدا من الغيرة على أخواتهن البنات وسواء بقيت الأسر مع بعضها في نفس البيت أو خرج بعضها ليستقل في بيت لوحده فالود دائما يبقى موصولًا بين الآباء والأبناء مهما تغير الزمن وتغيرت معه حالات هؤلاء الجيران سلبًا أو ايجابًا.

ولقد شاهدت بنفسي أن البيوت التي تسكنها السّبع عائلات أن الرجال فيها يعلمون أبناءهم الرحمة بينهم وبين الناس عمليًا حينما يأتي الأب بما أفاضه عليه الله من خير ورزق يتقاسمه مع جيرانه فلا يمكن أن يأكل أبناؤه وزوجته لحمًا أو فاكهة أو غيرها دون أن يكون للجيران الآخرين نصيب منها، ودون أن يتدخل في ذلك عامل القرابة أو العشيرة أو قبيلة، بل كل الجيران إخوة في الله في الوطن والدين وكذلك الأمهات يعلمن بناتهن أن ابنة الجيران هي أخت لكم وأخوها أخٌ لكم ورحمة الله تعم الجميع.

درج أهل المدينة القديمة على تربية أبنائهم على الخوف من الله الجليل، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ذلك ما تعلّموه من حفظ القرآن الكريم في الكتاتيب المتوفرة في كل شارع وزقاق وما تعلموه من دروس الفقه وتفسير القرآن الكريم في المساجد أو تعلموه من الجلوس مع كبار السن من الرجال سواء كان هؤلاء هم معلموهم في الصّنعة أو الحرفة التي يحرص الأب أن يرغب أبناءه الانخراط فيها تمشيًا مع المثل القائل «يوفى مال الجدين وتبقى صنعة اليدين».

وهذه حقيقة المدينة القديمة التي عشناها ورأيناها رؤيا العين في خمسينات القرن العشرين الأخيرة، وهي أن كل صبي من صبيان الأسر لابد أن ينخرط في مهنة بعد عودته من المدرسة حتى لو كانت أسرته غير محتاجة للقروش التي يحصل عليها من معلمه آخر الأسبوع لأن الأب يعلم أن الحرفة هذه تبعد ابنه عن انفلات الشارع ومصاحبة الأشرار الذين تراخت أسرهم في تربيتهم فسلكوا دروبا أخرى دفعتهم إلى حياة الشوارع والجريمة وقضت على مستقبلهم لتزج بهم في غيابات السجون.

إنّ الودّ وأواصر المحبة أوصلت أهل المدينة إلى الثقة الكاملة في بعضهم البعض لدرجة أن الرجل يترك زوجته وأبناءه لجيرانه ويسافر للعمل خارج المدينة جريا وراء مستقبل أولاده حدث هذا في الزمن القريب بالتحديد في سنه 54م من القرن الماضي عندما بدأ التنقيب عن النفط في ليبيا وكانت الخدمة غير متيسرة في مدينه طرابلس والمدن الأخرى حين طلبت شركات النفط العاملة كثير من العمال للخدمة في هذه الحقول سارع كثير من العاطلين عن العمل إلى ترك أسرهم وأبنائهم لجيرانهم والتحقوا بهذه الأعمال جريًا

وراء لقمة العيش وكان الجيران كل حسب جهده في مستوى المسؤولية التي ألقيت على عواتقهم إلى أن يعود الآباء في إجازاتهم يحملون لجيرانهم أطيب الشكر وجزيل الامتنان للأمانة الثقيلة و الصعبة التي حملوها لا سيما بعد أن يعلموا من زوجاتهم بأن عمي فلان قد عاملهم كأولادهم وعمتي فلانة وأولادها عاملوهم كأخوة بارين بهم مدافعين عنهم وكأن الأب الذي غاب عنهم موجود معهم، وهذه هي أخلاق المدينة وأهلها.

لنتخيل صورة مبسطة لذلك البيت الذي يضم سبعة من الجيران أو أكثر بعد أن يذهب الرجال للبحث عن أرزاقهم، ويذهب الصبية إلى المدارس أو الكتاتيب أو للحرف التي وضعهم آباؤهم فيها، وتبقى النساء اللواتي تتجمعن أمام دار الجارة التي عليها (الدّور) حيث تنصب (عالة الشاهي) وما يتبعها من خبز أو غيره من مقبلات الصباح يأتين باقي الجارات تحمل كل واحد منهن قليلًا من الشاي والسكر وأشياء أخرى كاكاوية تبدأ صاحبة الدار بطبخ الشاي وتعديله كل ذلك يجري وهن يتحدثن عن كل شيء، عن الأعراس، عن الجيران الآخرين، و عن مشكلاتهن الخاصة وغير ذلك من الأمور التي يتحدثن فيها النسوة ويستمر ذلك إلى أن تنتهي جلسة الشاي فتقوم كل واحدة لتضع (الطنجرة) على النار التي إمّا أن تكون (كانون) الفحم وإما «بابور» الغاز ثم تدخل للخزانة لتأخذ من «المخفية» أصغر من زير الفخّار الذي يوضع فيه الزيت تأخذ منها قليلًا من اللحم المجفف «القرقوش» وقليلًا من الطماطم المصنوع في البيت وما تبعه من فلفل أحمر وغير ذلك إلى أن يصبح الغداء جاهزا قبل عودة الأطفال من مدارسهم ورجوع الزوج من عمله.

والله يرحم تلك الأيام التي كانت الأمهات ترسل فيه الأبناء إلى باب الحرية ليشتروا فيه القضية لكل غداء وعشاء (كل يوم ويومه)، إذا لم يتوفر المال البسيط الذي تشتري به العائلة قضية الأسبوع كله فكان قضية اليوم لا يتعدى ثمنها العشرة قروش تفصلها الأم كالآتي:-

قرشان عظام جمل - قرش زيت - ثلاثة قروش زيت وطماطم حكة وفلفل أحمر وملح - تبقى خمسة قروش منها قرشان كيلو مكرونة ثلاثة قروش للفاكهة قرش كيلو

عنب – قرشين دلاع ومن الجدير بالذكر أن دلاع جنزور كبير الحجم ويباع بالقطع الذي يطلق عليها أبراج وكانت العائلة المكونة من خمسة أفراد تتغدى بعشرة قروش وتتعشى بمثلهم إذ كانت حياة الناس صعبة مع عدم وجود العمل ومن ليست لديه حرفة أو تجارة ولديه عائلة يتوجب عليه إعالتها تضطره الظروف في عمل أي شيء شريف يعول أسرته من خلال الأجر البسيط الذي يحصل عليه وذلك نتيجة الفقر و الأمية التي بلغت نسبتها عند الاستقلال أكثر من 80% الهجرة التي وفدت إلى مدينة طرابلس من جوارها للبحث عن عمل وزاد من عدد سكان المدينة القديمة بالآلاف من البشر غير أن سكان المدينة الأصليين كانوا يتعاطون التجارة ويجيدون المهن الأخرى كالنقش على النحاس وصناعة الذهب والفضة وصناعات أخرى حريرية، وقطنية كالجرود وحوالي النساء، ولم يعملوا في الأعمال الدّنيا.

الأعراس في المدينة القديمة

إن الأعراس في المدينة القديمة لها طابع مميز وطقوس خاصة جعلها تنتشر في جميع أرجاء ليبيا، والواقع أن العرس الليبي كان مثلا في العهد العثماني ومر بمراحل أخرى في العهد الإيطالي إلى عهد الاستقلال إلى حد اليوم، ولم تتغير الطقوس سوى هذه الأيام التي استبدلت فيه البيوت بالصالات أو الخيام التي تغلق بها الشوارع، وهو أمر خاطئ كما أن العشاء والغداء هو الآخر قد تغير وأصبح عبئاً على أهل العروس وإمكانياتهم المادية، أما الطقوس فهي لم تتغير فمن يوم (المستأذنات) وهن نسوة عجائز يرسلهن أهل العروس لعزومة صويحباتهن وأصدقاء العائلة وللأسف فإن المستأذنات بدأن في الإختفاء هن الآخريات بعد توفر الهواتف النقالة وبطاقات الدعوة ثم يأتي يوم (القفة) إلى يوم (النجمة) يوم الأربعاء ثم يوم (الدخلة) مساء الخميس بعد أن تذهب العروس إلى الحمام رفقة صويحباتها صباح الخميس، وفي النهاية مساء الجمعة حيث يختم العرس بيوم (المحضر) وهو اليوم الحافل الذي تحضره (الصدارات) وتجلى فيه العروسة وكانت أيام العرس من الإثنين إلى مساء الجمعة أيام زمان.

أما الآن فقد تغيرت أماكن الأعراس من البيوت إلى الصالات وما أدراك ما الصالات، وما صاحبها من تكاليف باهظة بالنسبة للعروس سواء من حيث إيجار الصالة الذي بلغ ما يقارب وحده من 3500 إلى أربعة آلاف دينار لساعتين أو ثلاثة من الزمن باستثناء العشاء الذي تبلغ تكاليفه أيضا نفس تكاليف الصالة، أضف إلى ذلك توابع العرس من «زمزامات» اللواتي لا يتم الفرح إلا بهن وتوابع أخرى لو جمعت لبلغت الخمسة عشر ألف دينار»واللي ما عندوش ما يلزموش».

في الوقت الذي كانت أعراسنا القديمة لا تزيد تكاليفها عن ربع هذا المبلغ وحينما تتناقش مع العائلة في هذا الأمر تصدم بالإجابة التي تقول «زينا زي الناس الآخرين» ويسوقون لك من المبررات الكثير، منها أن النّساء اللواتي كن يفزعن ويقمن بالعرس على «رؤوسهن كما يقولون» من طبخ وجهد وغسل للأواني بعد الأكل قد انقرضن، وأن المعازيم اللواتي كن يقمن بشؤون الفرح من بدايته حتى النهاية لم يعدن موجودات

ويقنعنك بالرضا بالأمر الواقع ويرغمنك على القول أن الزمن قد تغير والناس تغيروا معه، وهذا حال الدنيا، وضرب الأب يديه « كفا بكف « ويبدأ في التفكير في الخمسة أو الستة بنات الباقيات ماذا يفعل لهن؟ «واليد قصيرة والعين بصيرة» ثم يرفع يديه إلى الله يسأله الرزق والعون ليساعده على ستر بناته الأخريات.

أما الأمهات فاطمة، أو خيرية، أو ناجية، أو غيرهن فلا يزدن عن قولهن لأزواجهن (دبر يا وزير وإلا راسك يطير).

وليسمح لي القارىء الكريم أن أنقل إليه وصف العرس الليبي من احدى النساء الأجنبيات تدعى مسز «**تود**» كانت مقيمة مع زوجها في طرابلس وكان يشغل عملاً دبلوماسيًا في أحدى القنصليات عام 1900م اخترت لكم من العرس كله يوم «المحضر» الذي يعتبر يوم الختام في العرس الليبي كتبت «مسز تود» في كتابها» أسرار طرابلس» ما يلي (1):-

«جلست في صف على الأطراف به أربعون أو خمسون امرأة شابات جذابات المظهر ولكنهن مطليات الوجوه بالمسحوق إلى درجة البياض الشاحب مع مثلثات قرمزية ناصعة مرسومة على كل خد من خدودهن، وكانت حواجبهن مخططة بالأسود تخطيطا ثقيلا وهي تلتقي فوق الآنف وتمتد عبر الأصداغ حتى الشعر».

إن الأصباغ الزيتية الشهيرة مطلوبة في الشرق برغبة عميقة إلى درجة أنها حلت محل الأصباغ الناعمة القديمة المصنوعة من الأعشاب ذات الماضي الأكثر فنا وجمالاً، وظهرت فيه تمازج مدهش تنانير قصيرة، سراويل طويلة، قمصان بلا أكمام من الحرير والمخمل كلها مطرزة تطريزا كثيفا بالذهب والفضة أدت كل لون يمكن تصويره، قرمزي، وردي، أزرق، كوبالت، أصفر، أحمر قاني، أخضر حشيشي، من الموشيات بالحرائر والسلاسل والأساور في كلِّ مدهش واحدة مزخرفة أنيقة ومسرحي ذي قوة غير عادية.

«وجلست العروس الصغيرة في مكان بارز، ثابتة لا تتحرك كما نصت عليه التقاليد الجامدة من قرون بين هؤلاء السيدات الجميلات وهي أزهى وأبهى منهن جميعا، إنها

مزيج صاخب من الألوان الحقيقية، وكانت مخامل وحرائر قميصها وسروالها، والدبوس الفضي المتعلق بشعرها الأسود المضفور جيدا، الصدرية الموشاة، والحذاء الذهبي وأرطال من الأقراط المتدلية من نصف دزينة من الثقوب في كل أذن وأذرع من الليرات الذهبية تلتف حول رقبتها، ومثلها من «الأزهار» المنسوجة في سلاسل والمتعددة على حبال زينة ملتفة حول خديها الأبيضين القرمزيتين ـ من الفل ـ كل هذا كان أطول وأجمل وأثقل مما كان لدى الأخريات تعني «الصدارات» وكان متلائما مع هذه المرحلة الكبيرة في حياتها».

جلست العروس الشابة هادئة تماما، يداها مصبوغتان بالحناء حتى الحمرة الداكنة، والمغطيتان بالذهب بالطريقة التقليدية إلى الكوع مفرودة على ركبتيها، بينما جلست سيدتان واحدة من كل ناحية يروحان عليها بتفان مستمر تقصد يذهبان عنها الحرارة بمراوحهما لأن المكيفات والمراوح الكهربائية لم تخترعان بعد ورغم الحرارة الخانقة التي تعم المكان إلا أنها ثابتة في مكانها لا تتحرك مستشعرة بوضعها المعظم.

ومن النساء من يتخصص في تزيين العرائس ويسمونه ((بالزيانات)) ومنهن من يقمن بالذهاب إلى البيوت التي ترغب أم العروس أو العريس في دعوتهن إلى الفرح ويطلق عليه (المستأذنات) قد حل في وقتنا الحاضر المزين محل الزيانات والبطاقة أوالهاتف محل المستأذنات، وهناك الزمزامات وقد تحدثت عنهن في مقام سابق، فئة أخرى رغم كراهية أغلب الناس لها وهن ((الكوديات)) وقيل أنهن يتعاملن مع الجن ويسخرنه لخدماتهن الشريرة وأعمالهن كلها شيطانية وأول من يصاب بنارهم صاحبهم الذي وسوس له الشيطان بسلوك هذا الطريق فيقع في الحفرة التي أعدها لغيره رجلا كان أم امرأة وينطبق عليه قوله تعالى (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) (فاطر الآية 42).

سيدي مكاري

كلما ذكر هؤلاء الكوديات رجالا ونساء ذكر معهم السيد مكاري الذي قيل أنه شيخهم الكبير وأنّ مريدوه يحتفلون به كل عام في النصف الأخير من شعبان حيث يخرج

جمع كبير من الرجال والنساء في مقدمتهم نساء من كبار السن يتقدمن هذه التظاهرة التي هي ليست مقصورة على أصحاب البشرة السمراء بل تجد الكثير من الشباب مختلف البشرة يردد مايقوله قواد التظاهرة ((الله ونبينا صلوا عليه)) يقولونها مع عزف الطبول وما يرافقها من صاجات نحاسية تزيد من حلاوة العزف والإلقاء إلى أن يصلوا إلى سيدي مكاري بزاوية الدهماني قرّب مستشفى العيون حيث يدخلون إلى الولي يزورونه ويتبركون، ثم يخرجون للعودة من حيث أتوا بعد زيارة ما يسمى ((بشيخ الملعب)) الذي لم تسعفنا المصادر عنه بأية معلومات.

كل ما نعرفه أن الملعب أكثر من مائتي سنة أي قبل أن يحكم أحمد القرمانلي وعائلته ليبيا لمدة مائة عام وينشأ نظام التوريث فيها؛ وعند العودة للتظاهرة جرت العادة أن يمروا على منزل الطاهر القرمانلي سليل الأسرة التي حكمت طرابلس ردحا من الزمن في أعقاب العهد العثماني الثاني وكانت من القوة البحرية ما مكن ابنها يوسف القرمانلي من الإشتباك بأسطولها البحري القوي من الانتصارات على الأسطول البحري الامريكي وتدمّر أكبر سفنه البحرية المسماة ((فيلادلفيا)) مما مرغ سمعتها في الوحل في العالم آنذاك وهو مالم تنسَهُ أمريكا في تاريخ البحرية التي مجدت تلك الحرب في نشيد البحرية الأمريكية.

أما موكب العريس فقد تحدثت عنه (مسز تود) بالآتي:-

إن موكب العريس هادئ في العادة يسير فيه الرجال «بحواليهم الخيالية» في مقدمة صانعى الفرح وبينهم عدد كبير من السودانيين من الجنوب يقرعون الطبول ويشعلون نارًا حمراء، ويطلقون شيئا يشبه الألعاب النارية والمشاعل ويسير العريس في وسطهم مودعًا العزوبية هذا الوداع المرح.

وربما أتحفتنا «مسز تود» بوصفها الدقيق ليوم «المحضر» بالنسبة لعروس ذلك الزمن 1900م ولكن حدثت العديد من التطورات بعد ذلك الماضي في كل شيء يتعلق بالمجتمع والحياة وتغير فيها العرس والمحضر ودخلة العريس وهو أمر فرضه تطور الحياة

نفسها بحكم ما ستجد فيها من علم وتكنولوجيا جعلت التغير الإجتماعي ضرورة ملحة وخاصة بعد ظهور الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب الذي أصبح يتمتع به الإنسان في كل مكان بدون حدود أو قيود.

وإذا كانت «مسز تود» قد أفاضت في شرحها للعروس في ملابسها والمعازيم وما يتزين به من ملابس وذهب وفضة وأصباغ وجوههن إلا أنها لم تتمكن من الحديث عن العريس في موكبه إلا قليلا لذلك يستدعينا الموقف أن نتحدث عن هذه الليلة عمليا بشيء من التوسع والإفاضة.

العريس (وليلة الدخلة)

منذ يوم الإثنين الذي يبدأ فيه العرس عمليا يبدأ غياب العريس كليا عن البيت وعن مقابلة والديه ويصبح ضيفا في بيت أقاربه أو أصدقائه حتى يوم الخميس حيث يذهب مع مجموعة من الأصدقاء إلى الحمام ثم إلى الحلاق ويستريح في أحد البيوت حتى يأتي وقت الذهاب إلى المكان الذي سيقرأ فيه (المولد) وغالبا ما يكون قريبا من المنزل الذي ستتم فيه الدخلة فيلبس ثيابًا خاصَّة بالدخلة وغالبا بل من الضروري زمان أن تكون هذه الملابس «بدلة عربية» موشاة بخيوط تسمى «بالخرج».

مكونة من سروال عربي وقميص يرتدي فوقه ما يسمى الفرملة والبدعية والزبون وفوقهم (الجبة) وكلها موشاة بخيوط الحرير الصناعي ثم يضع فوق رأسه «طاقية» حمراء بها خيوط سوداء تتدلى من الطاقية تسمى «بالبسكل» وهذه البدلة مكلفة مادياً وهناك من يدخل بالحولي الحلالي الذي يختلف عن الحوالي التي يلبسها البعض بصورة مستديمة.

والواقع أن بدلة ليلة الدخلة تتفاوت بين الناس كل حسب قدرته المادية وعادات مدينته أو قريته أو عشيرته، أما في طرابلس فإن ما ذكرناه يرتديه ما يقارب من 90% من السكان، وقد تغيرت الأمور منذ الثلث الأخير من القرن العشرين تقريبا حيث اكتسحت البدلة الأوروبية أجساد العرسان ووجدها الناس سهلة وخفيفة من القيود المالية والإجتماعية فأقبلوا عليها وأصبحت هي «الموضة» الحديثة الآن.

يأتي العريس أو «السلطان» كما يطلق عليه في تلك الليلة رفقة أصدقائه ليدخل (حلقة) المولد التي تكون قد أعدت وزينت بعناية وجلس فيها قراء المولد الذين يبدأون في قراءة قصة المولد من كتاب (البرزنجي) الذي ذكر فيه كيف ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف شب مع وصف لذاته الشريفة، محاسنه، ومناقبه و يأتون بوصف دقيق لشخصيته ويقومون واقفين احترامًا وتقديرًا له حيث يصلون عليه و يهنئون الأمة وكافة المسلمين بمولد سيد الخلق أجمعين ثم يجلسون لتكملة قصة مولده مع التهليل والتكبير والمديح وبعض الإنشاء الذي يرفع من قدره وسموه عند ربه ويستمر ذلك مدة ساعتين تقريبا ثم يختمون المولد بالدعاء للعريس بالسعادة والهناء.

وينتهي المولد ويخرج الشيوخ فيبقى العريس جالسًا مع أصدقائه منهم من يهنئونه لهذه الليلة، ومنهم من المجربين الناجحين في هذه الشركة فيهنئونه، ومنهم من الذين فشلوا ما يحذرونه ومنهم من يوصونه بكذا وكذا، وكل (يغني على ليلاه) ويستمرون في هذا اللغط والضحك إلى أن يأتي من يبلغ بأن العروس قد وصلت إلى بيته بيت الزوجية، عندئذ يخرج (السلطان) إلى (التدريجة) التي يقوم بها أصدقاؤه رفقة شيخ يحفظ أبيات من المالوف وغالبا ما يكون هذا الشيخ صاحب فرقة من الشباب من ضاربي «الدفوف» يردون على الشيخ وجميعهم يعملون (بمقابل) مادي يتقاسمه والشيخ وفرقته، وقد تكونت العديد من الفرق التي تعمل في هذا الصدد.

أما في الخمسينيات وما بعدها حتى 69 فقد كانت ليلة الدخلة يقوم بها الأصدقاء أنفسهم دون إعانة من أحد، ولم تكن هذه الفرق المتعددة باهظة التكاليف موجودة وربما يكون سببها عطالة الشباب وعدم إتاحة فرص العمل لهم الأمر الذي جعلهم يتجمعون لينشئوا هذه الفرق في قراءة الموالد، وفي تدريج العريس، وفي ضرب النوبة، عند خروج العروس للحمام وعودتها منه، قراءة عقود القرآن وفي غيرها من الأفراح والمآتم.

وتتم «تدريجة العريس» إلى حد البيت حيث يقوم الشيخ بالدعاء والتوفيق له، عند دخوله المنزل يكسرون خلفه برادة أو قلة مملوءة بالماء تفاؤلا بحياة سعيدة له.

وعندما يأتي العريس إلى الحجرة المقيمة بها العروس تستقبله سيدة تسمى «بالزيانة» فهي التي ساعدت العروس في ارتداء ملابسها، وهي التي أشرفت على زينتها، تسلم الزيانة للعريس هدية العروس وتنسحب بجانب «الزمزامات» اللائي لا ينتهين من ضرب الدفوف إلا بعد خروج العريس من حجرته حينها تدخل النسوة الأخريات لاكتشاف ما حصل للعروس فإذا كان الأمر موجبا يفرحن الحاضرات ويبلغن والدة العروس ووالدها ليفرحان أكثر من غيرهما ويهنئان أنفسهما بتربيتهما لابنتهما، وإذا كان الامر سلبيا فلن تستريح العائلتان إلا بعد انقضاء الأمر.

ثم يخرج العريس لأصدقائه الذين ينتظرون فيبلغهم بالأمر فإذا كان موجبا يفرحون فرحة العائلة، وإن كان سالبًا ينصحونه بالراحة الموجبة ويوفرون له من النصائح والعقاقير إن لزم الامر ذلك بما يساعده على الإيجابية ثم يعيدونه مرة أخرى وهكذا إلى أن يشاء الله ما يريد، وبذلك يكون العرس قد تم ودخلة العريس قد انتهت، ومن العرسان من يأتي بالمطربين ليغنوا له فيفرح الجميع بفقدان أحد العزاب من الشّلة.

عادات سيئة شاهدناها:

من هذه العادات تنم عن الجهل عند كبار السّن من أهل العريس أنهم ما أن يسمعون بأن العريس قد خرج بدون أداء الواجب تجاه عروسه حتى يبدأ الهرج والمرج والإنفعال الذي يؤدي إلى ضربه في بعض الأحيان من عمه أو خاله ودفعه إلى شرب كأس من الماء يخلط (بالفلفل الأحمر) ظنًا منهم أن هذا السم يعيد له الحيوية والرجولة التي هربت منه عند دخلته على الزوجة مؤقتًا لأسباب نفسية قد يكون الإرهاق وهول المفاجأة سببها، لاسيما وأن أغلب الشباب زمان لم يخوضوا تجارب مع هذا النوع طيلة حياتهم ثم يجدون أنفسهم وجها لوجه مع واقع لم يعهدونه من قبل فتحبط النفسية ويصاحبها العجز الجنسي.

ومع مرور الزمن تغير حال هذه العادات السيئة لاسيما وأن الوعي الإجتماعي مضافًا إليه التعليم والانفتاح على العوالم الأخرى بسبب الفضائيات التي عمت كل مكان

كل هـذه العوامـل قـد مسـحت جميـع الأفـكار المتشبعة بجهـل القـرون الوسـطى وأتاحـت الفرصة للعروس والعريس الاتفاق على أن يفعلا ما يشاءان دون تعرض من أحد ومتى يشاءان ذلك.

الزمـزامـات

يطول الحديث وتتشعب الآراء بين الناس عن أصل فرقة الزمزامات وفصلهن! من أين جئن ومتى؟ وهـل من الضروري وجودهـن كفرق تقمـن الأفـراح ويرتـدن المناسبات الإجتماعية متى طلب منهن ذلك؟ أسئلة كثيرة تتداول بين فئات اجتماعية مختلفة منها المتحامل على هـذه الشريحة الإجتماعية التي ولدت من نسيج المجتمع الليبي على طول تاريخه.

ومنهـم مـن يرى ضرورة وجودهـا في المجتمع النسـائي الليبي ذو العراقة الضاربة بجذورها في عمق العادات والتقاليد المكتسبة من حضارات عدة مرات بهذا القطر عمرها يزيد عن الألفي عـام تشربت فيها ليبيا أثمن ما تملك هـذه الحضـارات من قبول ورفض لـكل شي حتى أنعم الله على هـذه الأمة بنعمـة (الإسـلام) كتابًا وشريعة وهو ما تلمس به شعبنا طريقه واختار به مصيره إلى الأبـد والحمـد لله.

عرفت دول الشمال الأفريقي كلها وفي مقدمتها ليبيا باستقطاب العديد من مخلفات الحضارات القديمة التي مرت بها من بشر منهم اليهود والروم، واليونان، والإسبان، وفرسـان مالطـا، والعرب المسلمون، هـذا المزيج المختلف كل بعاداته، ودينه، وسلوكياته، وفنه، وإبداعه، شكل لوحة إبداعية فنية زرع فيها من كل بستان زهرة تنتظر قطافها ومن الزهـور الـذي حـان الحديث عنهـا في إطار الفن والفنون في ليبيا هم شريحة «الزمزامات» اللاتي عرفتهـن البلاد منذ دخـول «مراد آغـا» و»درغـوت باشـا» إلى ليبيا سنة 1551م حيث كانوا يسمون باللغة العثمانية «وشـاك» حرفهـا الليبيون مع مرور الوقت إلى كلمه «وجـاك» وتعني فرقة وكانت أول فرقة من الزمزامات تكونت من يهود ليبيا سموا أنفسهم «بالعوادية» وقـد أدخلـن إلى جانب «الطـار والدربوكة» آلة العـود التي كـن يعزف عليها وكانت العوادية مختلطة رجـال ونسـاء.

ولما كان رجال النساء المسلمات يرفضن دخول نسائهن إلى مناسبة تعزف وتغني فيها العوادية المختلطة فكر البعض في تكوين فرقة زمزامات من النساء المسلمات ونفذت الفكرة سيدة مسلمة «تسمى خدوجة المكحلة» كانت كفيفة البصر لكنها عازفة عود ممتازة وثيابها «على فرانكة» أي تلبس الملابس الحديثة، أسست أول فرقة للزمزامات خدمت بها العديد من أعراس أولاد وبنات العائلات وأعيان البلاد من العرب والترك، وانتشرت الفرق منذ ذلك الحين حتى أن بلدية طرابلس فيما بعد أصبحت هي التي تمنح الرخص لهذه الفرق لكي تكون السيدة المسؤولة عن الفرقة أو «الكبيرة» كما يطلقون عليها مسؤولة قانونًا عن أي مخالفات تقع من أعضاء فرقتها في الأفراح التي تحييها.

كما حددت البلدية أسعار الفرق في العرس أو الطهور، أو اللَّمة، ولكل مناسبة سعرها بدون زيادة أو نقصان وكم يتمنى المجتمع الليبي أن يعود النظام إلى هذه الفرق أو لغيرها من المناسبات الإجتماعية الأخرى مثل الصالات التي ألهبت جيوب المواطنين دون مراعاة لفقير أو معدم بالرغم من أن لا حيلة لهاتين الشريحتين من الاحتياج إلى الصالة التي أصبحت ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها.

ومن أشهر ما قدم السيدات اللاتي دخلن هذا المجال (س الرشراش) التي كانت تقيم أعراسها ومناسباتها «بالصيادي» وهو رجل أعمى ينفخ في آلة «المقرونة» المصنوعة يدويًا اشتهرت بها ليبيا منذ القدم في مدنها، وأريافها وسهرتها، بمناسباتها حتى شبهت بآلة (الناي) في مصر.

ومن الأخريات المشهورات (ن الخوجة، الفيزقا، وع القربي، صالحة ف، والرايس ع، وخالتي محبوبة، وزينب ن، وصبرية ن، جميلة ج، ريم ف، وخديجة ز، وسالمة د» وكثيرات منهن عملن لأسرهن وأبنائهن الذين يحتاجون إلى العيش كما يعيش الناس مستورين وليس أكثر.

وليس يحق لنا أن ننعت هذه الشريحة الوطنية بنعوت أو أسماء لا تليق بكرامتهن سوى في الأصل أو اللون كما حلا للبعض القول أن أغلب هؤلاء نسوة زنجيات والواقع

يكذب هذا القول فإن أغلبهن من بيض البشرة اللاتي حكم عليهن القدر بالفقر وكفاف البصر ولديهن أسر تحتاج إلى المأكل والمشرب والعيش بصورة كاملة ولم يجدن سبيلا آخر للحصول منه على لقمة العيش.

إن الدليل القاطع على أصالة هذه الشريحة من الفنانات هو تجاوبها الكامل مع القصائد الدينية التي صاغها لهن بعض الشيوخ في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم بدلاً من الكلمات التي كن يستعملنها في أغانيهن، وقبلنها، بل واخترن لها اللحن الذي لا زال يتداول حتى أيامنا هذه:-

فمثلا كانت فرق الزمزامات تغني بعض كلمات الشوق والغرام مخاطبة فيها الرجل واصفة إياهُ بأوصاف تخدش الحياء ولا تتفق مع الدين والأخلاق مثل:-

بوبسكل نازل يدلىّ عقلـي سلَّه
شغلي بالي ووقتي كله
ماتضربوش العود في زنقتنا

رانا صبايا تذهبوا شيرتنا

يا ولاد شارعنا هبلتونا في قايلة رمضان فطرتونا
خاطم من الزنقة وخاتم فيده
شعر قصيته عرجون فوق جريدة

وأغنية مماثلة تقول:

ماشية في الزنقة طوالي يشاورلي ويقولي تعالي
هما الثلاثة فوق حيط الجامع منهم مرادي بلغته تتلامع
هما الثلاثة فوق حيط الكوشة منهم الغالي بلغته منتوشة
الكندره اللي ترفعه واتجيبه مسمارها يستأهل التذهيبة
ياريتني عصفور فوق المكتب نشبح الغالي كيف يقرا ويكتب

وغير الشيخ الفاضل «علي سيالة» الأغنية الأولى بقصيدة تقول

أول بداية نقول باسم الله — **كلمة الهي ماتخرب جاهي**

أول بداية نقول باسم الله — **يحجب علي خالقي رسول الله**

وقد غير الشيخ «محمد أبوريانة» القصيدة التالية إلى:-

صلى الله عليه — **هللي دليل العقل والع بيه**

صلى عليه الوف — **نجح ويذبح في بيته خروف**

يجيني السائل نطعمه ونسقيه

صلى علي المختار — **يمنع عظامي من لهيب النار**

يبني لي قصور كبار — **نوصل مقامه ...ونركع فيه**

صلى الله عليــه

اليهود والزجل الشعبي:

استخدم يهود ليبيا الزجل الشعبي في أفراحهم وأتراحهم في حالة الحزن والفرح وفي حالة الفخر والهجاء، والمقارنة وخاصة بين العرائس كما نقلها المؤرخ اليهودي»مردخاي كوهين»بقولهم في وصف عروسة الخصوم:-

متاعنا خير متاعنا خير — **متاعتكم طاحت في البير**

متاعتنا سمراء وحلوة — **متاعتكم عرقوب قوة**

متاعتنا بيضة وعريضة — **متاعتكم قرعة ومريضة**

إن اليهود يتشاءمون من إنجاب البنات ويعتبروهن أقل منزلة من الولد، بل يكرهون من يبشر بالآنثى كما كان يجري منهم في الجاهلية ويقولون في ذلك موجهين قولهم» للقابلة» قبل مولد الطفل.

ياقابلة لو كنتي قلت لي صبي نعطيك شمبير من رأسي

وان كان قلتي لي طفلة راسك وراسها علي الكرسي

مبارك دخولك عتبتنا الأولاد دائما عتبتنا

والبنات من سهم عداوتنا

أما عند الموت فكانوا يندبون الميت الشاب أو الشابة قائلين

وه وه ياهمي	**وه وه ياووه**
الشاب الغالي	**راح وماجابوه**
وه وه ياهمي	**وه وه ياووه**

تعقيب...

لا شك في أن ما قيل في هذه الأغاني أيام زمان باللهجة العامية تحتاج إلى امعان النظر في ألفاظه والدقة في فهمه حتى يتمكن القارئ من فهم مضمونه، وقد جاءت أغاني ناس زمان بلهجتهم التي يتخاطبون بها فعلى من يريد قراءتها أن يتأنّ ويدقّق في أدوات الفتح والضم والكسر والسكون زيادة في فهم الكلمات التي ركبت منها أبيات الأغنية.

الحلية التي كانت تلبسها العروس في المدن والريف:

في المدن... كانت العروسة ترتدي من الذهب اللبة، والشمبير، والخناق الكبير وغالبا ما يكون من الماجارات الذهب والدبالج والحدايد وكلها من الذهب الخالص كما ترتدي المرأة ما يمشي (بالبشمار) وهو عبارة عن سلسة طويلة من الفضة بها شكل فضي على هيئة شبه منحرف تلبسها المرأة عند (الصدرة) مع القمجّة وربما تكون من الذهب أو الفجرة حسب إمكانيات الأسرة.

أما خارج طرابلس فترتدي المرأة حزام الفجرة والخلخال والدبالج والضبات الرأس

والصوالح والخناقات كلها فضة.

كان أهل المدينة زمان يستخدمون في مطابخهم الأواني النحاسية مثل البرمة والكسكاس والقدر السطنبولي والمعاجن وكلها من النحاس المبيض أو «المقزدر» كما يطلقون عليه مضافا إليه (الحراقة والدقرمان) لحرق القهوة التي تشترى من مكانها وهي حب تضيف إليها ربة البيت بعض العطورات مثل الحبهان والكسبر وغيرها ثم تضعها في الحراقة المغمورة في النار حتى تنضج ثم تضعها بعد تبريدها في (الدقرمان) لرحيها بالطريقة التي تتفق مع ذوق العائلة وأفرادها.

كان اللبس العادي لأهل المدينة زمان لا يزيد عن السروال ماركة اللاص الكبي والسورية الطويلة وفوقها (الفرملة) اما الأرجل فالمداس، أو البلغة والقليل من ينتعل الحذاء وعلى الرأس الطاقية الحمراء أو الكلباك أو (المعرقة) المصنوعة من القماش.

أما خارج المدينة فيرتدون السورية الطويلة واسعة الأكمام، والحولي أو العبي والبلغة أو المداس في الرجل والمعرقة على الرأس.

زمان.....................زمان

ظواهر مرفوضات

الطواقة:-

كثيرا من الظواهر الإجتماعية التي يرفضها الشعب الليبي وترفضها أيضا الشعوب العربية الأخرى مما ينهض دليل على أن العالم العربي والإسلامي يشكل وحدة واحدة لاسيّما في العادات والتقاليد والعرف الذي نبع من حياة الأمم والشعوب فاستقت منه أحكامها وصاغت منه مجموعة من المفاهيم التي ضبطت بها حياة الناس في الأسرة والعشيرة والقبيلة وحين أرسل الله تعالى رسله بكتبه السماوية إلى أقوامهم ليبصرونهم بوحدانية الله وترك ما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم من أوثان لا تغني مع الله شيئا كفرت الأقوام وما أمن منهم سوى القليل برسالات الله التي ستخلد إلى أن يأتي الله بالأرض وما عليها.

إن احدى الظواهر الاجتماعية التي ترفضها مجتمعات الأرض كلها هي «الغرور» أو ما يطلق عليه بلهجة اللّيبية العامية «بالطواقة» وهي «الخيلاء» ونفش الريش أشار إليه الله في سورة لقمان وهو ينصح ابنه بقوله:-

قال تعالى (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا) (آية 37 سورة لقمان) كما استهجنته كل الأديان السماوية وفي مقدمتها القرآن الكريم والسُّنة المحمدية وأطلق الليبيون على المصاب بهذا المرض صفة «الطوّاق».

ففي جيل الخمسينيات والستينيات مثلا كان «الطواق» من يلبس البدلة العربية من (فرملة والزبون والسروال بالخُرج و مضافا إليه الجبة) بدون مناسبة تذكر، ويتكبر على الناس فيطلق عليه الطوّاق وكذلك الطواق من اكتسب ثروة غير مشروعةٍ فاشترى من السيارات غالية الثمن وترفّع عن أهله وأصدقائه القدامى الشرفاء يسمى «الطواق» و هناك من الناس الفقراء من فتح عليه الله بغرض الامتحان ومدهم بالمال والولد فنسوا أنفسهم كيف كانوا في عيشهم أكلاً ولبسًا ونومًا ونظروا إلى ما هم فيه من خير فانسلخوا عن حياتهم القديمة ومن يذكرهم بها، هؤلاء من الجاحدين لنعمة الله ويطلق عليهم «الطواقين».

وحقيقة الطواق وهو كل من لبس الكتان و نسي ما كان يقول المثل:-

والطواق... هو من فقد حسبه ونسبه وعائلته وملأ الدنيا غرورًا وعويًلا لكي يكون من المشاهير.

ومن خلال ما مر بنا من حديث عن «الطوقة» والطواقين تحدث أهل المدينة القديمة عن العديد من المظاهر المستهجنة بلهجتهم الطرابلسية العامية في شكل أبيات زجلية نبدأ منها بـ(الطواقة) فقالوا:-

مَحْلَى أيام زمان يعزُّو علي — حتى طواقتهم بالكيفية

حولي حلالي وفرملة وبدعية — وزبون مع البسكل والطاقية

وسروال بالخرج مع الريحية — بدلة كبيرة في وسطها شخصية

محلى أيام زمان

وأما طواقة (توة) — ماعند صاحبها غير الدوه

يكذب يبلعط زي الحنش يتلوى — ويعيش بين الناس عالي عليهم

محلى أيام زمان

كل الطواقة عيبة — الطواق بين الناس ماله هيبه

الكل يشبح له شبحة غريبة — وهو هواء منفوخ مالا قيمه

محلى أيام زمان

ياريت ياطواق تعرف قدرك — وتبطل التكويش تعود لربك

لا طواقتك تنفع ولا كرهبتك — والكل هازي عليك بيصفق لك

شرح لبعض الكلمات الواردة في القصيدة:-

بالكيفية =بالمزاج.

البسكل= الخيوط السوداء الطويلة التي تربط في الطاقية.

حولي حلالي =الرداء الأبيض الذي يلبسه أهل المدينة القديمة مع البدلة العربية فيه نسبة من الحرير.

وإذا ارتدى الرجل الحولي الحلالي فهو يغنيه عن ارتداء الجبة.

الريحية= الحذاء .

كرهبتك = سيارتك .

الزيارات:-

من العادات المحمودة بين الجيران والناس «الزيارة» التي تتداول بين الأهل والعشيرة والقريب والبعيد إمعانا في تأصيل الصداقة وزيادة المعرفة بما يتفق من المصلحة المشتركة وتوطيد العلاقات الانسانية بين أفراد المجتمع الواحد ونظرا لما للزيارة من تواصل بين الأفراد وتراحم أوصى بها الدين بين أبناء العائلة الواحدة أسرة وعشيرة وقبيلة وصولاً إلى المجتمع الكبير الذي يضم الشتات كله ونظرًا لأهمية هذه الزيارة ورفضه للقطيعة فقال:-

علاش القطيعة وليش ماتزورونا　　　في أفراحنا وأحزانا وتجونا

ليش القطيعة

أفراحنا ماجيتوا نسيتو　　　أحباب زمان وتخليتوا

وجدنالكم العذر فيما ريتوا　　　والناس لامونا على مادرنا

ليش القطيعة

في الحزن عاودتوها　　　وياريت عملتكم درقتوها

امسحتوا محبتنا اللي انكنُّوها　　　ليكم ولمثالكم اللي خانوا

ليش القطيعة

حَسبْناكم أحبابَ الرحمة — اللي يوقفوا مع الجارْ وقت المحنة

يزوروا ويزاروا وسط الزحمة — سوى فرح ولا هم كيف العادة

ليش القطيعة

ليش قاطعتونا — حسبناكم تخافوا الله مانسيتونا

لكن القينا قلوبكم كالطأبونة — ويالله نوللو حباب كيف ما كنا

ليش القطيعة

الجيرة في الميزان:-

سميت الجيرة نسبة إلى الجيران الذين يتعايشون في مكان واحد أو عدة أمكنة متقاربة زقاق كانت أو شوارع أو محلات أو بيوت يقيم فيها الناس على مختلف مشاربهم وأديانهم وثقافتهم وغيرها من أواصر سبيل الحياة العامة بين البشر وحينما تتوطد الجيرة بين الجيران تنقلب إلى ود ومحبة ترقى إلى مستوى الإخاء وقالوا في الجيرة:-

علاش يازمن مكنت فينا ظفارك — تحكمت في جاري درته جارك

بالسيف ركبته فوق حمارك — لوحته بعيد حرمتني من الجية

علاش يازمن

في زمانا كانت الجيرة محبة — متأصلة في قلوبنا من مدة

لو غاب جاري يوم غيابه نعده — ونبجلو اماليه علي امالينا

علاش يازمن

انشوف في جيرة توه — الجيران حرمت بينهم الدوة

والجار ولّالي حنش يتلوىّ — يلذغ بسمه كثير من جيرانه

علاش يازمن

اه يا زنقتنا فيك صالحة فرينز اجو يرقنا
لما تغني نشف اودينتنا وربوخها ينورنا السهرية

آه يازمن

حني جيلنا القديم كنا في جنة فزعة الجار وصيت عالي السمعة
نفزعو الكل لو الجار نزل دمعة ونفرحوا كلنا ببسمته الحنينة

آه يازمن

الناس بالناس، والناس بالله - الحسبانية :

وهي من الظواهر الانسانية الخلاقة تنزع الغل من القلوب المريضة وتزيل الحسد من النفوس الشريرة تقرب الناس بين بعضهم بعضًا حتى يصبحوا إخوانا متحابين يدوسون عن الفوارق ويهرعون إلى اغاثة الملهوف حتى يصبحوا كالجسد الواحد «إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» صدق رسول الله صل الله عليه وسلم لذلك قالوا:-

الناس لناس رحمة ويتعاملوا بالوديدة
واللي تحسبه يحسبك ويحطك في قليبه
واللي تراعيه وتزوره يدير عليك اسريبه
ياناس حبو بعض حتى تولو قرايب
وبالكلمة الحلوة بس أكيد تولو نسايب
تتهنوا ويتم فرحكم وتبعدو شر المكايد
ومن يحسب الناس يحسبوه ويتعاملوا معاه بالحلوة
ومن يبني ويعلي الساس يدير العمل شغل وقوة
واللي بيخالط يخالط الناس أهل الشرف والمروة

الشيـرة

يقولو زمان رأي الخير من رأي مخاطبين في ذلك الإنسان الذي ينفر بنفسه في اتخاذ القرار دون استشارة أحد من أهله أو أصدقائه يلومه الناس ويقولون له (ما خاب من استشار) وفي هذا الصدد قال الأوائل في«الشيرة» ما يلي:-

زينة الشيرة لو طبقناها فتحناها القلوب ورعيناها

زينة الشيرة

بعقولنا نفهمها وبأرواحنا وانفوسنا ندعمها

لكبارنا واصغارنا نعلمها حتى تكون مفتاح لمعيشتنا

زينة الشيرة

علاش ما نتشاور وانحل مشكلنا بالتحاور

نعطي ونأخذ في الكلام نتداور واللي يقول الحق يمشي علينا

زينة الشيرة

يا لايمي ياسرني لومك عليّ كثر ومحيرني

لو كنت بتشاور مابتظلمني ولا صار هلي صار وتعادينا

زينة الشيرة

الله أمر بيها ورسولنا الحبيب حث عليها

ودينننا والشرع يحمي فيها وياالله انطبق ما امر مولانا

زينة الشيرة

محبة الوالدين بخوت

يقال هذا المثل عندما يبلغ أحد الوالدين أو كلاهما في محبة أحد الأبناء ذكر كان أو أنثى يزكيان هذا الحب بما يغدقانه على المحبوب من عناية واهتمام مادي ومعنوي مما يدفع الأبناء الآخرين إلى الغيرة التي قد تصل إلى لعنة الانتقام ولنا في قصة سيدنا يوسف وإخوته لعبرة لمن يعتبر، لذلك ترى في هذه القصيدة لومًا من أحد الأبناء إلى أبيه ينبهه فيه بأنه أيضا ابنه مثل أخيه تماما وأن عليه أن يعدل بين أبنائه ويخفي هذا الحب الزائد لأخيه على بقية الأبناء حتى لا يشعرون بالقهر النفسي والظلم الاجتماعي الذي يقع على من فقد حب أمه وأبيه أو فقد حب أبيه بينما تصرفت أمه بحكمة الأمومة، حتى ولو كانت متحفظة على حب بعض الأبناء وفي ذلك قال القائلون:

يابوي حبني زي خوي — رانا من بطن واحْدَة

الفرق اللي ادير فيه — يشتت بينا الوحدة

عاملنا كلنا أحمد — أوكلنا حميدة

الفرق بين الخوت — يضيع الهيبة

ويزرع الحقد بينا — ويزيدنا خيبة

ويدفعنا كلنا للهم والتفكير

الجريء فينا يحقد ويسيء التعبير

والخائف يسكت ويراقب المصير

أما الضعيف مسكين — يطيح في قاع البير

يابوي إنت الأمل في البيت — وانت العدالة فيه

وزع بينا المحبة — وشعور الفرق داريه

تبع طريق أمُّنا أكيد تنجح فيه

ربما تفضل بعضنا على بعض — لكن حبها تخفيه

زمان ....زمان

هو محمد بن يحيي المشهور «بالأخضر» عاش في أواخر القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين أصله من شرفاء ودان وعاش في طرابلس رجلًا مناضلًا في سبيل أسرتها المحافظة غيورًا على أهله وأبنائه أحب الحياة وأخذ نصيبه منها بالتوافق مع حياة ذلك العصر الذي كان شعاره «إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب» فكان مع ثلة من الأصدقاء يجوبون المدن والشوارع ويحفظون فيها الأمن ويزرعون الأمان في وقت كان فيه الداخل إلى بيته مولود والخارج منه مفقود.

ومن آثارة التي خلفها في كهولته هذه الأغنية المعبرة الذي يخاطب فيها شيْبَ رأسِهِ الذي سجل حياته منذ الشباب إلى الكهولة خطوة بخطوة فقال في رباعياته ما يلي:-

ياشيب رأسي ويا مطاري عمري — **تبعت عيني وحلتني في امري**

ياشيب راسي والعرب ما شابت — **ياعكستي والناس كلها تابت**

دورت علي الاحباب اللي غابت — **يارب ياعالي توب علي**

ياشيب رأسي

ياشيب رأسي اني قعدت بروحي — **لا أم ولا بابا يداوو جروحي**

ولا من يسايرني يطمن روحي — **غير خالقي سيدي يحن علي**

يا شيب رأسي

ياشيب رأسي الكبر ما فيه بنة — **الكبر حاداني وجي يدنه**

ابْدى بالعيون ظلهم ارتاح مني — **وجي لشعر خلاه أبيض صوفة**

ياشيب رأسي

ياشيب رأسي علي ما ترحمني — **ترحل علي تسيبني في همي**

لا ليك بيه شان ولا تجني — **أنت وبوك الكبر هلبة علي**

ياشيب رأسي

ياشيب رأسي والعرب ما شابت ياعكستي والناس كلها تابت

ضبحت علي اللي يوقفني تابت لقيته بيهزأ علي ويعايرني

ياشيب رأسي

الله يلطفْ بي الله يرحمني ويحنْ عليَّ

بكيتني ياشيب من عيني علي صحتي اللي مشت خلّتِني

ياشَيْب رأسي

قال في كبر السن مايلي:

الكبر حاداني وجي يدَّاعي غير قربوا له النار والطباعة

الكبر جي غششني خدي صحتي وفي البلاء خششني

صبحت على العكوز بيديدشني ستين مرة طحتهم في الساعة

الكبر حاداني

الكبر شينك غُتَّةْ الكبر يا الانسان لازم منه

سوى غضبتْ وإلاَّ رضيت ويلك منه

وإن شاء الله علي الخاتمةْ وشفاعة

الكبر برّم لوني خدي صحتي كمّل عَقَابْ اسنُوني

بديت نتقرب حدا الكانوني من هزوته يفصع بروس اصباعه

الكبر حاداني

تعقيب:-

إن الظواهر المرفوضة التي تناولها الشعراء والزجالون في المجتمع الليبي القديم بالنقد والاستهجان أصبحت للأسف الشديد الآن جزءً من الحياة العامة فبعد أن كان «الطواق» يلبس البدلة العربية الجميلة في غير مناسبتها أضحى الآن يلبس «فرعة» وشرت أمام أمه وأبيه وأخواته وأعمامه وأخواله دون ذرة من الحشمة أو وقار مدعيًا بأن الحياة تطورت وأن عهد التخلف قد مضى مقلدًا في ذلك ما يلبسه أهل الغرب الذين تطوروا في أفكارهم قبل لباسهم وفي تقديس العمل قبل تقديس النوم الذي أصبح رأس مال أبنائنا الذين أصبح الشغل الشاغل لهم بعد النوم إثقال كاهل الوالدين بمصروف الجيب والتسكع أمام إحدى المقاهي ومعاكسة بنات الناس وأقسم بأن ثلاثة أرباع شبابنا بهذه الصورة المظلمة.

وأضِفْ إلى صورة الطواقة الغرور وتقييد أحوال الناس والغمز واللمز بها وغيرها من الصور الهدامة التي يرفضها الدين الحنيف وما نهت عنه الأخلاق النابعة عنه نسأل الله أن يهدينا وأبناءنا إلى الطريق المستقيم.

ومن عادات وتقاليد المدينة القديمة:-

يوم عاشوراء والشيشباني والجمل والقرني والقني:

- يوم عاشوراء والشيشباني :-

منذ العهد العثماني وحتى عهد الاستقلال درج الشباب في المدينة القديمة على الاستعداد ليوم عاشوراء والاحتفاء به وذلك بالتحضير لخروج «الشيشباني» الذي هو عبارة عن تلبيس أحد الشباب حلة من (ليف) النخيل الذي يأتي به قبل يوم عاشوراء مع أحد الشجيرات التي تقطع أغصانها في الشارع أو الزقاق التي يبدأ منها الشيشباني بالخروج وهذه شجرة تسمى (النتلة) تقطع منها العصي أو الدبابيس لمرافقي ركبه عند الخروج وذلك للدفاع عنه بها إذا ما تم عليه الإعتداء من شباب الحواري والشوارع الأخرى التي سيتجول فيها والدكاكين التي يقف أمامها يرقص على الطبلة التي ترافقه.

وصياح المجموعة الذي لا ينتهي إلا بدفع صاحب الدكان الإكرامية المطلوبة وغالبا ما تكون مبلغًا نقديًا بسيطًا يصب في جيب أكبر المرافقين سنا، أما إذا تأبّى صاحب الدكان عن الدفع فسوف يحدُث لا مايحمد عقباه لما يعرضه من بضاعة خارج دكانه

وخاصة إذا كان أصحاب الشيشباني في سن أكبر من سن الأطفال أو المراهقين:

(شيشباني فوق حصان   سقد يا مولى الدكان)

وتعني هذه الصراخات ادفع ادفع:

(شيشبـاني تبي يزل   درج يا عرجون الفل)

وغيرها من الصراخات المدوية المتعددة التي تؤلف في حينها، ويستمر الشيشباني وأتباعه في جولاتهم على باب الحرية وما جاورها من متاجر من الصباح حتى ما بعد العصر، ثم يعود أدراجه إلى المكان الذي خرج منه حيث يقتسم الرئيس وأتباعه الحصيلة من النقود والخضروات ثم يبدأ الاستعداد إلى ما يسمى (بالجمل) للخروج به بعد العشاء للقيام بجولات أخرى في الحواري والشوارع بالمدينة القديمة وخارجها من الشوارع القريبة مثل بالخير، وميزران.

«الجمل» عبارة عن رأس جمل ومعه زمالة الشيشباني بقرونها المصنوعة من الليف التي كان يرتديه الشيشباني عند خروجه في الصباح ولما كانت كل منطقة لها (قبضاياتها) وشبابها فإن العادة درجت عن استعداد كل منطقة لهذه الليلة بعصيِّ شبابها وشوماتهم لرد الاعتداء الذي يحدث من أتباع هذا الجمل و كثيرا ما تحدث المشاجرات والدماء التي لا يوقفها سوى الشرطة أو الرجال العقلاء من كل منطقة، وغالبا ما تنتهي المشاجرات إذا اتفق قبضايات أحدهما من الجمل المعتدي وآخر من أصحاب الحي المهاجم يتفقان على النزال ضد بعضهما أمام الجموع المشاهدة، ومن يهزم الأخير يكتفي أتباعه بالانسحاب من المعركة وكفى الله الآخرين شر القتال فإذا انهزم المعتدون يحملون عصيهم ويعودون إلى منطقتهم يجرون أذيال الهزيمة والخيبة وبمجرد وصولهم إلى شارعهم أو منطقتهم يجتمعون ويفصلون (قبضايهم) ويعزلونه من منصبه وإذا ما انتصروا على غريمهم فإنهم يصرخون في وجه خصومهم:-

(خشينا لقوسكم   وطيحنا ناموسكم)

وتبقى تلك الهزيمة أو النصر بين أعين الجميع إلى العام القادم.

وقد شجع الانجليز في عهد الإدارة البريطانية هذه اللعبة بين المناطق في ليبيا كما شجعها في مصر حيث يتم صنع في منطقة ماسماه (فتوة) يجنده لصالحه بحيث يستفيد منه (كمخبر) ويزوده بتحركات الوطنيين المناوئين للحكم البريطاني في مصر! ويتركه بدون محاسبة على الجرائم التي يرتكبها في منطقته من حصوله هو وجماعته عن أتاوات يفرضها على أصحاب المتاجر والباعة وغيرهم، وليس منا من لم يشاهد هذه الحالات في الأفلام المصرية المتعددة، غير أن الانجليز لم يفلح في ليبيا في إدخال هذه اللعبة في السياسة لقلة عدد السكان أولا وعدم اهتمام الليبيين بالسياسة من جانب آخر.

القرني :-

وأضيف إلى الشيشباني ما يسمى «بالقرني» الذي هو عبارة عن قطعة من الورق المقوى بيضاء اللون يرسم عليه وجه آدمي ملون تفتح فيه فتحات العينين والأنف والفم للنظر والتنفس يضعها الطفل على وجهه بعد شدها على الرأس بأي نوع من الخيوط ليثبتها، ويلتقي الصبية يتقدمهم لابس القرني ومعه الطبال حيث يدخلون البيوت ليلة عاشوراء وهي الليلة التي يطبخ فيها الفول الذي تأكل منه الأسر ويتصدق منه على الفقراء المتسولين أمام المقابر كما تعطى الزكاة يوم عاشوراء للفقراء والمساكين.

ويدخل لابس القرني وخلفه الصبية إلى البيت يتصايحون قائلين:

ايه يا قرني   قرني الصغير   يا قرني

ثم يرقص ويضطجع أرضا وهو يقول:

اعطوني فولة وإلا انموت الليلة

فيضع أصحاب البيت في فمه فولة أو اثنين ويحصل باقي الجماعة على بقية الفول وبعض النقود القليل وعندما يخرج القرني من البيت بعد أداء رقصة الشكر والامتنان لأهل البيت، أما إذا طرد القرني وجماعته ورفض رب البيت إدخالهم فإنهم يخرجون من البيت ويصيحون بقولهم:

(الرحى الملعقة   والمرا مطلقة)

وكأنهم يقولون لصاحب البيت البخيل اللهم يمنع عنك الرزق ويحدث الشقاق بينك وبين زوجتك وصولًا إلى الطلاق:

ياقني قن:

لم تقتصر مناسبة عاشوراء على الشيشباني أو القرنى بل للبنات الصغار دورهن في هذه العادات حيث تأتي البنات أو مجموعة منهن إلى البيوت الموجودة في الشارع أو الزقاق بحيث تنفرد كل واحدة منهن ببيت من البيوت حاملة بيدها إناء تجلس أمام البيت وتبدأ في الغناء:-

يا قني يا قني قن　　ياقني حمار اشقر

يا قن طلعتي مونا　　يا قَّنْ بحلوقها

يا قني بحلقتها

ياقن جينا الطبيب　　ياقن لقيناه يتعشىّ

ياقن خُبزةْ ولَحَمْ　　ياقنْ يعطيه السِّمْ

ياقن سُمْ على سمْ　　ياقن سُمّ الرقطاءْ

ياقن من تحت وطى　　آرى ما آرى آرى

صبعي الصغير آرى

هذا حوش سيدنا　　يعطينا ويزيدنا

هذا حوش بو ربعية　　فيه الذهب لركبيّه

هذا حوش بو بشير　　فيه حتى من حلو البير

إن المتمعن في هذه الأهزوجة ومفرداتها يجدها تعود إلى من صاغها بهذا الشكل وسلمها للبنات الصغار ليتغنون بها على البيوت في عاشوراء لا للحصول على مطلبهن من الفول وإنما يعني بها هدف آخر هو كراهيته للطليان (فالحمار الأشقر) هو الإيطالي

ذو الشعر الأصفر، و(مونا) هي زوجته التي ظهرت لهن بحلوقها (أي أقراطها) وحلقتها وهي الحديدة التي بيدها، ثم ذهبوا إلى الطبيب في بيته ربما لعرض مريض عليه وكان الأطباء الطليان يكشفون على مرضاهم في العيادات أو في البيوت فوجدوه يأكل اللحم فتمنوا له السم المضاعف وليس السم العادي بل هو «سم الحية الرقطاء» التي تسكن تحت الارض.

ثم انتقلت الأهزوجة من السم لهذا الطبيب الإيطالي (الحمار الأشقر) إلى الإشادة بالبيت الذي يغنون عنه ويكلن إليه آيات المديح والثناء ويصفونه ببيت الذهب والخير وماؤه الحلو الذي ينبع من بئره ليزيد في العطاء وقد ذكرتني هذه الأهزوجة بعد إعلان الاستقلال حيث كان جميع الناس في ضائقة وكانت لقمة العيش تحتاج إلى صراع مع الدنيا فمع الفقر ازدادت ظاهرة التسّول والسؤال، ومن المتسولين من يجوب الشوارع والمقاهي ومنهم من يلتجأ إلى البيوت ليحصلوا على غدائهم وغداء أسرهم حاملين معهم أطفالهم في قفة أو سّلة من القش وكانوا يقفون أمام البيوت ويضعون الطفل في تلك القفة أو السّلة أمامهم وتجلس الأم لتبدأ الغناء بالأهزوجة التالية:

يالويله انبات الله   **تحجي ببت رسول الله**

لا تكشي ولا تنشي   **ولا تقولي ما عندي شيء**

وراس وليدك ما نمشي   **لين تعطي حق الله**

يالويله انبات الله

تترنم بهذه الأهزوجة مستدرة عطف أصحاب البيت عليها وحيث أن المسلم أخو المسلم كما جاء على لسان رسولنا صل الله عليه وسلم فإن أصحاب البيوت يأكلون جزءً من طعام الغداء ويعطونها الجزء الآخر لتأكل منه وتوفر قليلًا منه لمن بقي من أسرتها حيث تضعه في علبة صفيح لنقله إليهم.

كان لسُكان المدينة القديمة موسم يوم عاشوراء عادة تسمى (الرياشة) وهي غداء مكون من البازين الذي تزين مرقته بالقديد واللحمة الغاوية أى القديمة والبيض المطبوخ،

وكانوا يحفزون الأطفال على الأكل حتى لا تأتيهم (الفتاشة) بالليل كي تفتش بطونهم فتكافئ من أكل وتعاقب من لم يأكل.

ونذكر الفتاشة التي كانت تستعملها ربات البيوت للبحث عن الجردل الذي يسقط في البئر أو الماجل الموجودان في البيت الليبي وقلما تجد في المدينة القديمة منزلا ليس به بئر أو ماجل للماء العذب الوارد من مياه الأمطار وهو يشبه (الفسكية) في الوقت الحالي.

الأكلات:

من أكلات سكان المدينة القديمة :

رشتة البرمة بالقرقوش، البازين بالفول المدشش، وغالبا ما تطهى هذه الأكلات في الشتاء عند هطول المطر، ونزول البرد أما في المناسبات الدينية، والأعياد، والضيافة فالأكالات معروفة ولا تتجاوز الكسكسي ورشتة الكسكاس والياهني وما تتبعه من أكلات خفيفة مثل الضولمة، والمبطن، والكفتة وغيرها، ومن الرقائق تجد البوريك المحشي أما باللحم المفروم أو بخليط البطاطا والمعندنوس، وبعض الكمون الحلو وغيرها.

وما أن يأتي شهر سيدي رمضان وفي العشرة الأواخر تزدان الشوارع بالمدينة القديمة وأكواشها بصفر المقروض والغريبة والكعك الحلو والمالح وهناك حلويات ترسل إلى الكوشة وتسقى بالعسل حين خروجها مثل البكلاوة والمحنشية والبسبوسة منها ما يحشي باللوز الأبيض بعد طحنه وخلطه بالسمن ومنها ما يعجن بالتمر والزيت من الحلويات ما يقلى في الزيت ويوضع في العسل بعد خروجه من المقلات مباشرة.

زمان ....زمان

كانت المدينة القديمة محط أنظار محلات طرابلس كلها بل كان أبناء ليبيا من الشرق والجنوب يزورون طرابلس ومدينتها القديمة في الأعياد والمناسبات الدينية كشهر رمضان مثلا ليشاهدوا السهرات العديدة التي كانت تعم اطرابلس ومحلاتها التي يحييها المطربون الليبيون والزمزامات، وفن الجنوب من زكرة وطبل والحان مرزكاوية تشبع الفضول وتروي ظمأ العطشى للفن الليبي العريق، إضافة إلى النوبة والغيطة والغناء الجماعي الليبي كل هذا يمثل فسيفساء فنية ليبية خالصة حق لليبيين أن يفخروا بها.

وكان أهل المدينة القديمة في عيد الأضحى يحنُّون رأس الخروف مساء ويكحلون صباحا عينيه ويبخرونه تبجيلاً له عند الله تعالى لأنه أضحية وفداء وشعيرة أمرنا الله بالمحافظة عليها مادمنا قادرين ماديا على تطبيقها.

كان في المدينة قبل أن يبدأ إرسال الإذاعة الليبية المسموعة رجل طويل القامة، فارع الطول يسمى «البّراح» يدور بين الشوارع والزقاق ويعلن عن جميع المناسبات منها شهر رمضان / والأعياد وكان يسمى عمي العسكري.

الكراكة والبالوص ...اسمان لسجنيْن كانا داخل المدينة القديمة منذ العهد العثماني استعملهما الطليان لسجن الوطنين بعد استعماره لليبيا.

من العادات التي درج عليها أهل المدينة أن يكون إفطارهم يوم العيد الصغير على السمك والفطيرة المصنوعة في الحوش، كما كان بعضهم يفضل الإفطار على السمك (الحرايمي) ولعلها جاءت من بعض الأسر التي هاجرت إلى طرابلس قديما من جزيرة جربة.

عندما تبخل السماء على بلادنا بالمطر يتجمع الصبية في الشوارع ويصيحون في حلقات متوسلين إلى الله أن ينعم على بلادهم بالغيث النافع الذي به تُقْضى أمورهم ويقولون في جماعة:-

يا مطر صبي صبي ....صبي علي حوش القبي...والقبي ما عنده شي لا خبزة ولا ششي[1]

يالله ...يالله... صب الغيت ان شاء الله

يارَبّ نبُّو المطر..... لِلْحَيْوَانْ وللشَّجَرْ

يارَبّ نبُّوا الميَّةْ......واليابس يصبحْ أخضر

يامطر ياخالتي ......صبي علي قَطَّايتِي[2]

قطَّايتي مدهونةْ.....بزيتْ الزيتونةْ

كان أثاث الحوش في المدينة القديمة بالنسبة للعامة لا يزيد عن حصير فوقه حمل أو مرقوم، وسحارية أو صندوق خشب توضع فيه ربة البيت ملابسها وذهبها وفضتها إن وجدتا.

كانت أم زمان تهتم بتربية ابنتها وتنشئتها لتكون ربة بيت مثلها وتشترك في هذه التربية المباشرة وغير مباشرة عدة جهات الأب، والام، والإخوة وباقي أفراد العائلة من أعمام وأخوال وجدات أما غير المباشر فالعريفة والجيران ورُبّ سائل يقول ولماذا كل هذه الضغوط على الفتاة وأين منظمات حقوق المرأة الانسان؟

1 الششي ...يعني اللحم

2 قطايتي ...هي خصلة الشعر التي تبقى في قبعة الرأس بعد الحلاقة يطلق عليها «شوشة»

إن عظيمات الإسلام من قبل، والليبيات الأمهات اللاتي سطرن القدوة والتاريخ في ليبيا قد صنعتهن الحياة الأثيرة التي أفرزتها القيم الإسلامية العظيمة الموروثة أبا عن جد، ورغم الفقر ومدلهمات الحياة إلا أن أمهاتنا في ليبيا قد صنعن الرجال والنساء المشهود لهم بالنظال والكفاح ضد المرض والفقر والجهل (الثالوث البغيض) الذي كان يعم أرجاء وطننا من قبل الاستقلال المجيد، وقضت أمراضه المتنوعة على الآف المواطنين رجالًا، ونساءً أطفالًا وكبارًا على حد سواء ولم ينقد هذا الشعب منها سوى رحمة الله تعالى قبل أن تطل علينا نظرايات حقوق الإنسان الحديثة التي كان الإسلام قد بشر بها منذ ألف وأربعمائة سنة خلت؛ وبذلك تجد الفتاة المسلمة التي تربت في بيت قاعدتُه الدين الحنيف وسقفُه أخلاق الإسلام والرحمة المهداة يمثلها أب وأم صالحين لا يحتاجان في تربيتهما إلى نظريات العالم كله.

وتدليلا على حقوق المرأة التي صمّ الغرب أذننا بها نروي للقارئ الكريم قصة قصيرة منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين دور الإسلام العظيم منذ 1436هـ عاما في حقوق المرأة من محمد ابن عبد الله صلى الله عليه ومسلم صاحب الرحمة بالمرأة جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة .....

« إن أم الفضل وهي سيدة طاعنة في السن تعيش في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حضرت ابنته فاطمة رضي الله عنها تحمل في يدها ابنها الحسن رضي الله عنهما فدخلت بيت أبيها، وكان صلى الله عليه وسلم موجودا في البيت فبكى الحسن حين سلمته أمه إلى أم الفضل فأتت به الأخيرة لتسلّمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي طلبه منها وما إن احتضنه الرسول ووضعه في حجرة حتى تبول في حجر الرسول وما إن رأت أم الفضل هذا الموقف الحرج حتى صرخت في وجه الصبي الذي لايعلم شيئا مما يدور حوله فماذا تتوقعون من رد رسول الله عليها؟... رد عليها الرسول صلى الله عليه وسلم في هدوء غير راض عن صراخها على الحسن (ما هكذا يكون الأمر يا أم الفضل يرحمك الله) ردٌّ تجليّ فيه العتاب والرحمة في وقت وأحد ... صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لم يكن الذهاب للطبيب عند المرض شائعا بين الناس وذلك لأسباب عدة أولها بعد المستشفى عن المدينة القديمة، وندرة وسائل المواصلات للانتقال إليه بسرعة ما عدا العربات التي تجرها الخيول ويسميها أهل المدينة القديمة «الكروسة» من العائلات من يتفادى استعمالها لأنه لا يملك ثمن تأجيرها ذهابًا وإيابًا لذلك يكتفي المريض بالتشخيص وأخذ الدواء (بالتغليف) بالزيت والجاز والخل ليقوم في الصباح صحيحا معافى بإذن الله تعالى ليحمد الله الذي شفاه.

وزمان كان الطماطم الأخضر يوضع في أواني كبيرة بعد تفصيصه ووضعه في الشمس في المرحلة الأولى ثم يعجن بعد يومين بعد جفاف الماء منه ويوضع على سطح المنزل ليعرض للشمس مرة أخرى وفي هذه الأثناء تحرص العجوز على متابعته فوق السطوح بعد أن تقي رأسها من الشمس الحارقة وذلك لحراسته من القطط التي لا يحلو لها «البول» إلا في هذه الأواني المملوءة بالطماطم وطبعا تحمل العجوز الحارسة معها وسائل الحراسة من عصي وحجر وغيرها ويصبح شغلها الشاغل هذا الطماطم الذي يحتاج لعدة أيام لكي يجف ماؤه؛ وينزل من السطوح ليوضع في حفاظات من الزجاج ويستعمل في غذاء العائلة.

وزمان كانت العائلات بالمدينة القديمة جالسين على عالة الشاهي كبارًا وصغارًا ويتجاذبون أطراف الحديث في قصص وأخبار يسمعونها أو يقرؤونها من بلدان العالم الآخر، فليبيا قد دخلها الراديو وشاع استعماله في العام 1950م أما التلفزيون فقد اقتنته بعض الأسر في الستينيات وشاع في السبعينيات.

زمان كان أغلب سكان المدينة مغرمين بصيد السمك فيقضون معظم وقتهم في البحر بين القصباية والشليف والتحويت الذي أصبح عادة لمن يمارسها تتحول إلى مرض مزمن من الصعب شفاؤه مع مرور الوقت و»أسال مجرب ولا تسأل طبيب».

الختان أو ما يسميه الناس بالطهور:

درج سكان المدينة القديمة من المسلمين على ختان أولادهم أما بعد الولادة مباشرة أو حتى في صباهم، وقد اختلفت العادة بينهم في طريقة وأسلوب الإحتفال بهذا الختان منهم من يأخذ ابنه «للطهار» ويعود به إلى البيت دون احتفال يذكر وهؤلاء من غير القادرين على تكاليف هذا الاحتفال، وأما المقتدرين منهم فإنهم يأتون بالطهّار إلى البيت ويكون الاحتفال كما يلي:-

يقوم والد الطفل بدعوة أقربائه وعائلته وتلاميذ الكُتاب المجاور لمنزله وشيوخهم يقرأون ما يسمى «بالقُصّادة» وهي مدائح يذكر فيها رسول الله صل الله عليه وسلم ويمدحون بقصائد مميزة ومعبرة عن الموقف وبهذه المناسبة يذبح والد الطفل (العقيقة) تقربا لله تعالى لتهيء بها أم الطفل وجيرانها طعام الحاضرين كل هذا يحدث وعمنا الطهّار موجود بالبيت ينتظر الوقت الذي ينتهي فيه من مهمته، يُبدأ الحفل بزغاريد الأم والجيران والدعوات من الآخرين ثم يأتي أحد أقارب الزوجين بالطفل إلى محل جلوس الطهّار ويمسك أربعة رجال كل وأحد من طرف حولي يغطون به الطّهار والطفل والأقارب الذين يمسكون به، وترتفع عقيرة النسوة وفي مقدمتهم أم الطفل بالغناء والزغاريد مناشدين الطهّار أن يكون لطيف ولينا مع (احميدة) قائلين:

طهر يا مطهر يسلموا أيديك	**لا تجرح احميدة ربنا يخليك**
طهر يا مطهر صح الله أيديك	**لا توجع الغالي وَلّا نغصب عليك**
طهر يا مطهر بالموس الرقيق	**لا توجع الغالي وَلّا تصبح في ضيق**
طهر يا مطهر تحت الدالية	**وطهارة الغالي تصبح بارية**
طهر يا مطهر تحت اردي الحرير	**والحاضر يصلي على الهادي البشير**

وتبدأ مراسم حفل الختان بحلق رأس الصبي تم يرتدي قميصا أبيض طويل مخطط بماء الزعفران الأصفر مع بقع من الحناء كما توضع على راحتي يديه بقعتان من الحناء

ويغمر اصبع الصبي بها، وغالبا ما يكون الطهّار قد ورث هذه المهنة عن والده أو جده، وسرت العادة أن يربوا للطفل قبل الطهارة خصلة شعر في وسط رأسه يطلق عليها (شوشة) تطول مع الوقت إلى حين الطهارة فيغنوا عليها النسوة قبل الطهارة قائلات:-

اظفروا له شوشته   عقبال عروسته

ومن العادة أنّ توضع خلال الطهارة (بيضة مطبوخة) في فم الطفل حتى لا يصرخ خلال عملية الجراحة، كما توضع بجنبه طاقية حمراء ليستقبل فيها الطفل ووالداه ما يسمى (بالنحيلة) والهدايا التي يحصل عليها بهذه المناسبة وبعد انتهاء عملية الختان يحمل الطفل في فراشه وهو يصرخ ويبكي لأن عملية الطهارة لم يدخل فيها المخدر كما يحدث الان في المستشفيات والمصحات وهو الوقت الذي بطلت فيه عادة الختان في البيوت ولكل زمن عاداته وأحكامه.

(زمان..........زمان)

الفراشية:

زمان زمان كانت المرأة في المدينة القديمة تتدثر بالفراشية عند خروجها من البيت إلى الشارع والفراشية عبارة عن قطعة من السدوة مصنوعة من النول اليدوي أو الصناعي تستتر به المرأة المسلمة جسدها كله بما في ذلك وجهها الذي لا تترك منه سوى محط نظر لعين وأحدة تسمى (البنبوك) تستعمله المرأة لكي ترى به الطريق، وتستعمل الفراشية زمان لسكان المدن أما الدواخل فإن نساءهم يرتدون لباسا ثقيلا سميكا يغطي جسم المرأة كله.

الزداد اليهودي:

شبيه بالفراشية من حيث الطول والعرض أما الشفافية فهو شفاف مزين بخطوط من حرير ترتديه اليهودية كبيرة السن، تغطي به أسفل جسمها فقط وأما الوجه والرأس والصدر فلا يغطونه وسبحان الله على أمة دنس الاستعمار الإيطالي أرضها، وجاء بعاداته وتقاليده وانفتاحه الأوروبي ولم يستطع التأثير على حشمتها، وأخلاقها لمدة ثلاثين عام ويأتي الاستقلال لمدة 18 سنة تجدر فيه الأخلاق واستقام السلوك، وانتشرت الرحمة بين الناس إلى أن جاء هادم الذات ومفرق الجماعات بانقلاب 69 م الذي انقلب فيه كل شيء.

مجتمع الحوكية والصناعات التقليدية.

والحوكية جمع حوكي والحوكي هو صانع «الحوالي» من أي نوع رجالية أم نسائية مع الاختلاف في الصناعة والمادة فالمرأة تلبس حوالي الحصيرة المصنوعة من الحرير ودقائق تلال الفضّة وهذه الأردية أو الحوالي تستعمل مع البدلة الكبيرة للعروس ولابدّ أن تكون في الشرط على العريس بعد أن يتفق الطّرفان على الرضا والقبول بين الأسرتين وهما المفتاح التي تبدأ تفاصيل الفرح من خلاله وهناك أردية أخرى متنوعة منها الحرير الطبيعي ومنها الحرير الصّناعي (البرمبخ) وغالبا ما كانت الأسرة اللّيبية ما تطلب من القدامى الفنانين في هذه الصناعة عمل حوالي خاصة لهم حينما يقرب زفاف بناتهن لأن قدامى الصّناع ومهاراتهم شرط أساس في حبك وصناعة هذه الحوالي فمثلا حولى «القلالي» يختلف عن حوالي «قنيوة» وحولى «محمود باباني» يختلف على جوالي «الجويل» صحيح كلّهم حوالي ولكن كل أسطى أو فنان من هؤلاء وغيرهم له طابعه الخاص في خدمة وتزيين الحوالي التي كلف بصناعتها وكان أرباب هذه الصنعة بالذات القدامى منهم يتباهون بصناعاتهم عندما تلقى القبول والنجاح حينما ترتديها العرائس أو الصدارات في المحضر وغالبا ما تنقل خبر هذه المناقشات التي تقوم بين النساء للحواكي التي نجحت صناعته أكثر من الأخرين (الزمزامة) أو «الزيّانة» التي تتعامل معه بمقابل.

ويحرص هؤلاء الأسطوات على تسمية الحوالي التي يكلفونهم الناس بتطليعها لهم أو حتى ما يطلبه السّوق منهم فمن مدة طويلة سمعنا بحولي خطة بخطة وأيام جمال عبد الناصر ظهرت حوالي سميت «عفسته جمال في القتال « كما ظهرت زمان حوالي «ياحليلي وين انقعمز» ولا شك الآن أن حوالي 17 فبراير ستغزو الأسواق بمسميات جديدة تتفق مع المرحلة والعصر الذي يعيشه هذا الجيل ومن الجدير بالتنويه أن مجتمع الحوكية يشبه غيره من المجتمعات الحرفية الأخرى.

المنتشرة في البلاد فصياد السمك (الحواتة) مثلا له مجتمعهم المصغر الذي يعالج مشاكلهم ويهتم بأمورهم الحياتية ويدافع عن مهنتهم لدى الدوائر الرسمية، ويحصل لهم على حقوقهم وهو ما يُسمَّى في العالم المتحضر «بالنقابات» الفعّالة وليست نقابات

الصّور الذي أسسها أزلام النظام البائد لتكون هي والمنتسبين إليها جاهزة للتصفيق والصراخ والتشنج عندما يلقي سيدهم المقبور خطابه، هكذا كانت أدوار النقابات والتجمعات والنوادي، والمؤسّسات وغيرها من الجهات الاعتبارية التي تنضوي حتى ذلك النظام المقيت الذي دام اثنان وأربعون عاما ولم تهنأ فيهم أسرة ليبية واحدة بالخير والسعادة باستثناء أسر الأزلام ومعارفهم ومن اتبعهم من الطامعين الذين باعوا أنفسهم إلى الشيطان بمقابل مما كان يسمى بالنقابات أيضا «الذهب والفضة» وقد حاول المسؤولون عنها عمل شيء يفيد هذه الحرفة ويوسّع رقعتها المكانية فعملوا على بناء سوق جديد «الذهب والفضة» زودوه بمدرسة لتعليم هذه الحرفة لمن يشاء، ومسجد وبعض المرافق الأخرى وهو سوق نموذجي ينظم إلى السّوق الرسمي بسوق المشير غير أنه منذ الأحداث التي عصفت بالبلاد بعد ثورة 17 فبراير وما تلاها من معوقات أخرجتها عن إطار الدولة لم يعد المواطن يعرف رأسه من رجليه، فلله المشتكى.

وهناك تجمعات متعددة تضم أصحاب الحرف الأخرى، كالنقش على النحاس، وتبيض الأواني وإصلاح السّيارات وغيرها من الحرف الأخرى، ويقينا أن هذه التجمعات أسسها أعوان النظام وسموها نقابات وتركوها بعد ثورة 17 فبراير لأبنائها المنتسبين إليها لتعمل في مناخ ديمقراطي لمصلحة الفرد والمجتمع والحرفة لتعود ليبيا من ضمن الأمم التي يشار إليها بالبنان كما كانت في عهد المملكة منبعا للحرية مزارًا للعالم الآخر الدولي الذي كان سُوَّاحه يتزودون بالعلم والمعرفة من آثار ليبيا وحضاراتها أو من حرف ليبيا وصناعاتها أو من مروءة اللّيبيين وحسن سلوكهم أو من ضيافتهم النابعة من كرم وعراقة الأصل وحسن التربية الأسرية ولقد كانت في ليبيا سياحة منظمة قبل 69 تأتي أفواجا من كل أنحاء العالم وأشهد بكل تجرد أنها كانت سياحة منظمة وملتزمة من قبل السّواح الأجانب ومن الجانب الليبي المضيف.

أما الصناعات التقليدية التي يقوم بإعدادها حرفيون أكفاء منهم من ورثها عن أبيه وجده، ومنهم من تعلّمها من معلِّمين محترفين ملأت شهرتهم الآفاق، وتتمثل هذه الصناعات في السّروج المطعّمة بالذهب والفضة ولوازمها الأخرى من ركاب ومحل جلوس

الفارس وغطاء عينا الحصان أو الفرس وقد اشتهر بصناعة السّروج مجموعة حرفيين أشهرهم عمي سالم المصراتي وحسن السنوسي لاعب الأهلي طرابلس والمنتخب رحمهما الله وكان مقر هذه الصناعات في عدة أسواق، أهمها سوق الحزامات أو ما يطلق عليه بالإيطالي «قلاريا مريوتي» مكانها باب الحرية كما تجد في هذه الأسواق صناعة الغرابيل والدرابيك والطارات المستعملة في الزوايا، وسوق المشير يوجد ما يسمى بخان الخليل يزوره السّياح لشراء صفر النحاس المنقوشة وبعض الأواني الصغيرة والكبيرة المطعمة بالرسومات المأخوذة من الحضارة اللّيبية القديمة أو ما مّرت بها من أمم استعمارية تركت جزء من آثارها في ليبيا، وفي حقبة قديمة أثرى فيها مكتب الفنون والصنائع الإسلامية هذه الأسواق الكثيرة من التحف والآثار التي صنعها طالبته وكانت بحق مفخرة للصناعة اللّيبية من الجدير بالتعريف ما تنتجه ليبيا من صناعة الفخار التي تشتهر بها مدينة غريان والمتمثلة في أواني الأكل على مختلف أحجامها، والأزيار لحفظ الزيت والمخافي لحفظ اللحم «المجفف» والقلة أو البرادة التي تملأ بالماء وتترك في الهواء الطلق كي تبرد ويشرب منها الظمآن ماءا باردًا قبل ظهور الثلاجات التي تعمل بالكهرباء التي نعيش معها الآن.

ونذكر جنوب ليبيا وما يتسم به سكانها من صناعات يدوية مثل المراوح والسلال التي تصنع من الديس وكذلك الأطباق التي تغطي بها أواني الأكل في المناسبات المتعددة، نضيف إلى ذلك منشئات (الريش والنعال) القدم التي تصنع من الجلود الثمينة وأثواب الثعابين والأفاعي كبيرة الحجم.

كل هذه الأسواق التي ذكرنا كانت شعلة تنير سماء ليبيا ومكسب لدولة لها دخر لا تدعم اقتصادها سوى هذه الأسواق الذي قضى عليها حكم القذافي التعس.

نذكر من الصناعات التقليدية حَوَالي (حب الرمان) وهو قطعة من النسيج المصنوع بالنول اليدوي تمثل الزخرفة فيها فسيفساء ذات ألوان مختلفة من أسلاك الحرير القيم والتل الفضي الرفيع مضافا إلى ذلك الصّانع الماهر والنول الجيد المجهز بالأدوات اللازمة من أعواد وانزاق وشفرات لتخريج هذه التحفة التي كثير ما يشتريها السواح الأجانب لوضعها كأداة تزيين بيوتهم بها وحولى «حب الرمان» يرتديه أهـل الشرق

في ليبيا بينما يرتدي أهل طرابلس حوالي الحرير والضامة والبرمبخ الحرير الصناعي وهي عادات درج عليها المجتمع النسائي في ليبيا كلها منذ العهد العثماني وما بعده من عهود زادت فيهم هذه العادات تجذُّرا وترسخًا حتى أضحت موروثًا انضم إلى غيره من المواريث الحضارية التي اكتسبتها ليبيا من الأمم التي تعاقبت عليها.

وقد برع في عمل هذه الحوالي ثلة من الصنايعيّة نذكر في مقدمتهم الحاج عبدالله الوراق وعبد الرحمن الشماخي ومحمد الوراق وغيرهم من الذين فارقوا الحياة رحمهم الله ومن المؤسف حقا أن هذه الصناعة تكاد تقترب من التلاشي كغيرها من الصناعات التقليدية التي كانت تفتخر بها ليبيا وتضعها في مصاف صناعاتها الحرفية والتقليدية المعروفة والمسجلة لدى وزارة الصناعات ما قبل عام 1969م.

والحديث عن الصناعات التقليدية التي يحترفها أولاد البلاد لا ينتهي فيها الكلام ونحن نذكر فرسانًا آخرين في حرف كانت تصدّر إلى البلدان المجاورة ووسط أفريقيا مثل الشباشب المطرزة بأسلاك الفضة وتنتعلها العرائس، وكان فارسها على مستوى طرابلس والمدينة القديمة المرحوم «فوزي القريتلي» بسوق الترك والمرحوم «حفوظة الموحش» ودكانه بسوق الترك وقد تعلم على يديهما الكثير من صغار السّن وأصبحوا بعدئذ من أشهر الحريفين.

ونذكر مهنة (صناعة القُمائج) مفردها «قمجة» وهي ماترتديها النساء اللّاتي «يُصدِّرْن» في الأعراس، كما أنها تتبع بالضرورة للبدلة الكبيرة للعروسة مع حولى الحصيرة وما يتبعه من حوالي حرير أخرى، وقد تفنن في صناعة القمجة اليهود الذين كانت دكاكينهم ملاصقة لسوق الربع، وسوق اللَّفّة، وكانوا يتكتمون في تعليم هذه المهنة للمسلمين والعرب فجعلوا من بيوتهم مصانع ومن نسائهم وبناتهم أسطوات بعد أن علموهن الصنعة وأصبح العرب المسلمين مجرد مستهلكين فقط، ومهنة القمجة صناعة يدوية خالصة ولا تدخل فيها سوى الإبرة وخيوط الحرير، وتقنية الحرفي الماهر، وأصحاب الأعراس من العائلات الميسورة لا يقبلون على شراء القمجة العادية بل لابد من التوصية عليها دون النظر للتكلفة . وبالرغم من التحفظ الشديد الذي أبداه اليهود لكيلا تتسرب

هذه المهنة للعرب إلا أن بعضهم استطاع التوصل إلى المفتاح الذي كسر به القمقم الذي وضع فيه اليهود أسرار هذه الحرفة فتعلمّها الرجل الفاتح « محمد المزعفر « وفتح دكانه بجانب دكاكين اليهود، وعلم العديد من الصبّية أسرارها فمات اليهود كمدًا بعد أن خسروا التحدي الذي أبدوه للعرب الليبيين لمدة طويلة من الزمن.

ومن المهن التي اشتهرت بها النساء في المدينة القديمة، القابلة أو توليد النساء، ومهنة تبخير الأردية والحوالي بعد غسلها وتجفيفها توضع على البخارة المصنوعة من جريد النخيل بعد أن يجرد من السعف والشوك ومهنة تقطير الزهر والعطر وغيرهما تقوم بهذا العمل عائلات محترمة من المدينة القديمة أشهرهما عائلتي بوكلة والشبة.

عائلات أخرى تفنّنت بإعداد ((الرُّب)) وبيعه يأتيها المشترون من كل مكان، كما عرفت عائلات بتفصيل وخياطة فساتين النساء والبنات، وسواري وسراويل الأولاد ولاسيما ليلة العيد حيث ينتظر البنات والأولاد ملابسهم ليرتدونها صباح يوم العيد.

الأسطى سركز:

أحد الأسطوات الذي يشار اليهم بالبنان في صناعة الأحذية «وتطليعها» لمن يشاء وحين يجهز الحذاء أو البوت وتأتي لتستلمه منه يعطيك ضمانة عشر سنين أي أن الحذاء يعمر في رجلك أكثر من عشرة سنين لجودة الجلد الذي يصنع منه و المسامير الخشبية التي يستعملها الأسطى سركز مما أكسب هذا الرجل وأحذيته شهرة كبيرة دفعت بالموظفين الكبار في الدّولة والتجار المشهورين في طرابلس بل وحتى الأجانب من الإيطاليين والانجليز يأتون لدكانته بمنطقة الفنيدقة بالمدينة القديمة ليجري لهم عملية قياس للأحذية التي يريدونها وبالرغم من ارتفاع سعر الحذاء لدى «عمي سركز» وإقبال شريحة معينة فقط من الناس على شرائه والاستمتاع بلبسه فإن أغلبية الشرائح الأخرى تتمنى لبس حذاء من عمي سركز لولا ضيق ذات اليد.





الأكواش في المدينة القديمة



الفصل الخامس

الخـرافة

ما من طفل أو صبي عاش في المدينة القديمة إلاّ وحظي بقصص جدته أو أمه في ذلك الزمن البعيد الذي انعدمت فيه جميع وسائل التسلية والترفيه التي نراها الآن عند الأطفال سوى منها المرئي أو المسموع الأمر الذي يؤدي بطفل زمان إلى الارتماء في حضن أمه أوجدته ليطلب منها أن تقص عليه «خرافة» تجلب له النوم وما كانت الجدة رغم سعالها الدائم وضيق تنفسها إلا أن تلبي طلب الولد أو البنت وأخواتهم وتسألهم أن يختاروا من الخرافات التي سبق أن حكتها لهم عشرات المرات ماذا يفضلون منها ويستقر أمرهم بعد عراك على واحدة من الخرافات الكثيرة التي سمعوها من قبل لتبدأ الجدة أو الأم بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بما يلي:-

1.خرافة «مني القصيرة»:

اللي دويرتها صغيرة جيت تكنس فيها لقت «عثماني» وهو عملة صغيرة أيام العصمانلي العثماني قالت نشري به رويس خروف فيه قرينات أو لحيمات فيهم عظيمات أو دوارة فيها فرت أي (الروث) إذن نشتري به «تعشيرة» أي « لية خروف» وهي خالية من العظامات والقرينات والفرت اشترت التعشيرة وضعتها تحت الغربال في المطبخ لأن الثلاجات لم يعرفها الناس في ذلك الزمان جاءها القطوس الذي أرسلته أمه لتستلف الغربال من خالته «مني» فردت عليه بأن الغربال في المطبخ عليه أن يأخذه ولا يأكل ما تحته دخل القطوس إلى المطبخ أخد الغربال فوجد التعشيرة وكوبا من اللبن أكل تعشيرة و شرب نصف كوب اللبن وحين خروجه لاحظت عليه خالتك مني أن الحليب فوق شنابه وعندما خرج دخلت خالتك «مني» للمطبخ فوجدت المأساة التي قام بفعلها القطوس أكل لها التعشيرة وشرب كوب اللبن بكت خالتك « مني» ولطمت على وجهها ثم ذهبت لامه تشتكيه، ولكن أمه رفضت قول خالتك مني في ابنها وحدثت مشادة كلامية بين أم القطوس وخالتك «مني» التي لم يكن أمامها سبيل سوى الذهاب إلى القاضي لتشتكي القطوس، أمر القاضي بإحضار القطوس إلى المحكمة وبدأت الجلسة بمواجهة القطوس بجريمته فأنكر الدعوى المرفوعة ضده وطلب القاضي من خالتك « مني» سرد القضية فقالت :-

ياسيدي القاضي: جيت نكنس في دويرتي فرد عليها القاضي «نظفت نفسك» قالت لقيت عثماني فرد عليها القاضي «رزقك الله « فقالت فكرت شن نشري بيه رويس فيه قرينات رد القاضي عليها صدقت لحيمات فيهم عظيمات رد القاضي صدقت.... دوارة فيها فرت رد القاضي صدقت اشريت بها تعشيرة رد القاضي كرمت نفسك قالت حطيتها تحت الغربال.

جانى «القطوس» ولد بيشة طلب مني الغربال فقلت له خش خوده من المطبخ واللي تحته راك تاكله، خش وخان الأمانة شرب الحليب وأكل «اللّيّة» و لما مشيت لامه «بيشة» قالت ولدي ما ياكلش في اللية رد القاضي وقال يا خالتي «مني» مش تعرف القطوس «يفدد الرية كيف تأمنيه وقدامه اللية «وحكم ببطلان الدعوى فردت عليه خالتك» مني» قايلة ياقاضي ياقضية تجي مع القطوس وتخلي خالتك «مني»الولية» ودعت عليه بقولها رب يعطيك دقة ورزية انتهت القضية.

رفعت الجلسة بعد تهديد خالتك «مني» القصيرة بالحبس لولا كبر سنها وعادت خالتك «مني» لبيتها تبكي وتنتحب متهمة القاضي بعدم العدالة رغم صدق الواقعة ونجاة القطوس المجرم من العقاب وقد ذكرتني قصة خالتي «مني» التي مرت عليها قرون بما حدث في القضاء الليبي في بعض القضايا المعاصرة في عهد الظلام الذي امتد 42 عاما، كم من حرمات انتهكت وكم من جنايات ارتكبت انتهكت فيها حرمة العدالة من بعض القضاة الذين برءوا المجرمين وحكموا بالسجن على المظلومين فهل يتعظ غيرهم في عهد الحق والنور بعد ثوره 17 فبراير المجيدة.

2. خرافة بنت السلطان و المرايا المسحورة:

وفي الليلة الثانية تحلّق الأولاد حول جدتهم وطلبوا منها حكاية بنت السلطان و المرايا المسحورة:-

بدأت الجدة حكاياتها فقالت: أن من كان يوجد سلطان له ابنة بكماء لا تتكلم وحار جميع أطباء المملكة في العلاج؛ فأعلن السلطان أن من يجعل إبنته تتكلم يفوز

بزواجها ونصف مملكته بشرط أن يقطع رأس كل من يجلس معها رفقة «العدول» أي المراقبين ويتحدث معها مدة ساعة فقط فإذا تكلمت فاز بها و بالجائزة الكبرى وإن لم تتكلم خلال الوقت المحدد يقطع رأسه بحكم الشرط الذي وقع عليه امام العدول حاول الكثيرون من سكان المملكة ولم يفلحوا فقطعت رؤوسهم وعلقت في أعلى السرايا التي تقيم بها إبنة الملك وشاع خبر هذه الفتاه لتتعدي مملكة والدها إلى الممالك والمدن الأخرى وتوافد الخطاب من جميع الجهات وقطعت رؤوس الكثيرين منهم وكان لأحد هؤلاء المفقودين أخ ذهب لهذه المملكة وغامر وقتل وما أن سمعت عائلته بنبأ قتله حتى صمم أخاه بإتباع نفس الطريق التي سلكها أخوه مؤكدا على الانتقام من هذا الملك وابنته وفي حالة فوزه في هذه المعركة التي سالت فيها دماء كثيرة وامتلأت بها سرايا هذه الفتاة برؤوس المغامرين ومنهم شقيقه.

وكان ملك المدينة هذا من الطغاة الذين لا يعرفون سوى قطع الرؤوس ولكل من خالفهم الرأي أو ناقشهم فيما يعملون كما كانت مخابراته منتشرة في كل مكان من المدينة مكممين أفواه الشعب كاتمين صوت كل من يتحدث عن الاميرة إبنة الملك دخل الشاب المدينة فوق صهوة حصان واستطلع أمر المدينة وعرف من بعض أناسها الطيبين بعض المعلومات التي تفيده في مهمته مع إسداء النصح له بالعودة إلى بلاده قبل أن يفتك به المجرمون من أتباع الملك ولكنه أصر على مقابلة الأميرة وليفعل به الله ما يريد.

قابل الشاب العدول» المسؤولين» ووقع عقد الموت وانتظرا مدة من الزمن لتبليغ الأميرة حتى تتهيأ والسلطان ليكون شاهد على هذه المقابلة وحان وقت المقابلة ودخل «العدول» والشاب إلى حجرة الاميرة واتخذ كلا منهم موقعه «العدول» يجلس كل منهم في جانب من الاميرة و»الشاب» يجلس امامها سمحت الاميرة للشباب بالكلام فتحدث وقال حضرات «العدول» أريد أن أحكي لكم قصة يتخللها سؤال أريد إجابته من الجميع :- كان يوجد إخوان شقيقان أحدهما لديه مرايا مسحورة يرى بها كل مكان في الأرض والآخر لديه فرس أصيل والإثنان يتمنيان الزواج بابنة عمهما نظر صاحب المرآة في مرآته فوجد إبنة عمه على فراش المرض فأبلغ أخاه صاحب الفرس بالامر فسارع

إليها بالدواء الشافي فعادت إلى حالتها الطبيعية فمن منهم يحق له الزواج بها يا حضرات العدول؟ فأجاب العدول هي من حق من قدم لها الدواء فنطقت الاميرة البكماء بعد طول سكون مات بسببه مئات من الشباب قطعت رؤوسهم قالت: لا يا حضرات العدول حق لمن يتزوجها من رآها في المرايا أولا لأنه لو لم يراها لما كان قد بلغ من زودها بالدواء بأنها مريضة وأُبلغ السلطان بالأمر، وانتقل الخبر إلى الشعب ففرح الناس لا لأن الاميرة «البكماء» قد نطق لسانها بل لوقف المذابح التي سببها «بكمها» والرؤوس المعلقة أعلى قصرها سوف تنتهي وأقيمت الحفلات في قصر الملك الطاغية وفي أرجاء المملكة كلها وحان اليوم الذي وعد فيه الملك بزواجها وكتابة نصف مملكته لمن يكون سببا في نطقها وتزوجها الفارس لا حبًا فيها بل ليحصل على نصف المملكة ليوزعه على فقراء تلك البلد والمساكين ويبني لهم به الدور والمستشفيات ومات الملك وحقق الفارس للشعب ما يريده ثم طلقها ورجع إلى دياره ودعوات الشعب بالخير تلاحقه في كل مكان.

3. خرافة (يا بئر اعطيني فْيلتي) :

أعجب الأولاد بالخرافتين فجاءوا في ليلة الثالثة يطلبون المزيد من جدتهم فقالت:-

يوجد أخوان يقيمان في بيتين بجانب بعضهما أحدهما متيسر الحال والثاني فقير الحال وكان يعمل حطابا في غابة يقوم عند الفجر يحمل فأسه وحبله يذهب للغابة يكسر الحطب من الشجر ثم يجمعه يعود به للسوق لبيعه ويشتري لزوجته وأبنائه مايسدون به جوعهم بينما الآخر يعمل في التجارة يكسب الكثير من المال ولكنه شرير لا يصل رحمًا ولا يحمل من الرحمة ما يتصدق به على أخيه أو الآخرين وكانت زوجته مثله في البخل والشر حاسدة فاسدة تكره زوجة أخ زوجها وأبنائها ولا تحب لهم الخير ولديها ابنة شريرة مثلها اسمها «العويرة» لست أدري إن كانت عوراء العين أو هذا اسمها وكانت العويرة هذه كثيرة التجسس على بيت عمها وإذا أتى عمها الحطاب بشيء إلى زوجته وأبنائه تنقل الخبر في الحال إلى أمها لتنقله الأم إلى زوجها فيتلصص الأخ على أخيه من أين جاءه هذا الرزق حتى لو كان قليلاً.

وفي يوم حمل الحطاب الفقير حبله وفأسه وإفطاره من الفول المطبوخ إلى الغابة وبدأ كالعادة تكسير الخشب وفي لحظة راحة جلس فيها على حافة بئر مهجور من المكان الذي يحطب فيه يتناول طعام إفطاره من الفول وحدث أن سقطت منه آخر فولة في البئر فلم يتركها وأخذ يدق على حافة بئر ويقول «يابئر أعطيني أفيلتي» ويعيد الجملة مرات عديدة وفوجيء أن خرج من البئر عفريت يقول له « لقد أزعجت سيدي الأمير» فماذا تريد أجابه الحطاب أريد فولتي التي سقطت مني في هذا البئر وسوف لن أبطل دق إلا بعد أن أحصل على فولتي فهي رزقي الذي أرسله لي الله وحاول العفريت أن يقنع الحطاب الطبيب بالذهاب ففشل ولما رأى إصراره على الحصول على «فولته» طلب منه الانتظار وعاد إلى البئر لينقل ما حدث مع الحطاب لسيده كبير العفاريت الذي وجه لمخدومه العفريت بعض الأسئلة عن حال الرجل وماذا يفعل في هذه الغابة المقطوعة.

وبعد أن أجابه العفريت بفحوى الحديث الذي دار بينه وبين الحطاب رق لحالته وأمر العفريت أن يزوده بصحن كبير مسحور يمتلأ بأي طعام بعد أن يامره الحطاب بأي طعام يريده حتى يمتلأ، أخذه العفريت وصعد به إلى الحطاب قائلا:- أما الفولة فقد احتفظ بها سيدي وأعطاك هذا الصحن لتقول له في وقت الإفطار والغداء والعشاء امتلئ فسوف يمتلأ لتأكل منه أجود الطعام أنت والعائلة وحاول أن تحافظ عليه.

وأخذ الحطاب الصحن من العفريت بعد الشكر والامتنان إلى الله على هذا الرزق ورجع به إلى بيته وزوجته فرحا مسرورًا وجاء وقت الغداء فتحلق الجميع حوله طلبوا ألذ الطعام مثل الذي كان يتمتع به عمهم وعائلته كل يوم، فامتلأ الصحن بطعام ولحم لم يتذوقوه من قبل، وبعد يومين من العز دخلت «العويرة» لبيت عمها وكان وقت غداء قد أزف فطلبوا منها البقاء لتتغذى معهم وأتوا بالصحن و طلبوا أشهى الطعام فامتلأ الصحن بما امروه به فأغشي على»العويرة» التي بلغ منها الحسد والحقد مبلغها، ولكن العائلة الفقيرة الطيبة أسعفوها وأجلسوها لتأكل معهم وبعد الأكل ذهبت لأمها تبلغها ما شاهدته في بيت عمها بالتفصيل الممل، والأم تسمع لابنتها بذهول حتى كاد أن يغشى عليـــها مثلما حدث للعويـــرة ابنتها وبيَّتَ الاثنتـــان أمـرا هو سرقة الصحن

من بيت الحطاب واستبداله بصحن مثله مشابه، ونفذتا جريمتهما بسرقة الصحن من بيت الحطاب بعد أن تسللت العويرة إلى بيته ووضعت الصحن المزيف مكانه في هدوء.

وجاء اليوم التالي كما جاء موعد الغداء فاجتمعت عائلة الحطاب كالعادة وأتوا بالصحن ليأمروه بالامتلاء بالطعام المطلوب ولكن دون جدوى رغم المحاولات المتعددة معه وأصابت خيبة الأمل عائلة الحطاب كلّها و أخبروا أباهم بما حدث فحزن حزنا شديدًا لكنه لم يقطع حبل الرجاء مع الله وقرر العودة إلى البئر ومن يسكنه ليطلب «أفيلته»من جديد، أمّا المجرمتان العويرة وأمها فقد هيأ أنفسهما لاستقبال غذاء باتا يحلمان به فجاءتا بالصحن المسروق وجلستا أمامه يطلبان أشهى الطعام منه ولكن الصحن لم يُلَبِّ رغباتهم، أولم يناولهما غرضهما وبعد عدة محاولات غير مجدية معه ركناه في مكان منزوي حتى لا ينكشف امرهما.

أما الحطاب الطيب فقد عاد إلى فأسه وحبله وقصد البئر من جديد بعد أن جمع الحطب وربطه بالحبل ليطالب بفولته القديمة التي سقطت منه، وخرج العفريت مرة أخرى وسأله ماذا تريد فأخبره بقصة الصحن الذي فقد صلاحيته في الامتلاء بالطعام ونزل العفريت إلى البئر ليبلغ سيده بما سمعه من الحطاب، وبعد دقائق خرج العفريت حاملا معه»رحى» تِرْحي الطعام والشعير من تلقاء نفسها دون أن يوضع فيها شيء فقط أن يأمرها الحطاب أو أحد أفراد عائلته برحي ما يشاء من الحبوب، استلمها الحطاب ورجع بها إلى المدينة إلى بيته فرحًا، وضعها أمام زوجته وأمرها الرحي، وماهي إلا دقائق حتى وجدت العائلة أكوام من الدقيق في البيت.

فعجنوا وخبزوا ما يأكلون وخزنوا الباقي إلى وقت الحاجة، وما أن انا سمعت العويرة بوقع الرحى في بيت عمها حتى دخلت تتلصص من جديد فوجدت الرحى تخرج من بطنها دقيقا دون أن تزود بالحبوب فدهشت من هول المفاجأة وسألت أبناء عمها فأجابوها عما سألت، خرجت لتخبر امها بما رأت وسمعت فاعتلى وجه أمها الإصفرار وصكت أسنانها غلًا وحسدًا وطلبت من ابنتها سرقة هذه الرحى وكان لها ما أرادت وبعد أن تسللت العويرة إلى بيت عمها وأعادت فعلتها الشنعاء في سرقة الرحى.

وبعد نفاذ الدقيق من عائلة الحطاب، بحثت الأم عن الرحى فلم تجدها في البيت فندبت حظها وبكت حتى بللت ثيابها ورفعت يدها إلى السّماء تدعو الله أن يعاقب من سرق قوت عيالها وأخبرت زوجها بما حدث فكان وقع الخبر عليه شديدًا، ولكنه صبر واحتسب وترك الأمر لله وحده ولم يشك لحظة واحدة في أن امرأة أخيه وابنتهما يحملان من الحقد لعائلته ما يدفعهما إلى ارتكاب هذه الجرائم البشعة التي تؤدي إلى تجويع عائلته، رغم يسر العيش الذي تتمتع فيه عائلة أخيه، ثم تساءل هل يدري أخوه بما تفعله ابنته وزوجته دون أن يمنعهما من ذلك؟ في حال أنهما فعلا ذلك ثم يستدرك الرجل ومن فعل ذلك؟ وليس بين بيته وبيت أخيه بيوت غريبة أخرى!!! ثم يلعن الحطاب الشيطان ويسلم أمره إلى الله ويقول لنفسه سوف تتضح الحقيقة يوما.

يأتي صباح اليوم التالي فيأخذ فأسه وحبله ويقصد البئر من جديد وينادي «يابئر أعطيني إفيلتي» كررها عدة مرات بصوت عال فخرج له ذلك العفريت حانقا متعصبًا قائلا لقد أزعجت سيدي وأزعجتنا جميعا فماذا تريد بعد أن أعطيناك «الصحن والرحى» تأسف الحطاب للعفريت على ما بدر منه من إزعاج لسكان البئر وسيدهم وشرح له الموقف بضياع الهديتين اللتين استلمهما من سيده ورجاه العون في حل مشكلة عائلته فسكن غضب العفريت ونزل إلى البئر بعد أن طلب منه الانتظار لشرح موقفه إلى سيده وما هي إلا لحظات حتى صعد من جديد وبيده «شبكة وعمود من خشب» طلب منه أن يستضيف أهل بيت أخيه ويوهمهم أن هذه الشبكة حين تضم عائلة أخيه كلها سوف تغني وترقص وتوزع الهدايا على كل من يدخلها وحذره من دخول أفراد عائلته إليها وبين له أن يقول حين تمتلأ الشبكة بالمعازيم (يا شبكة لمينا ويا عمود قرقعنا) وإذا أردت أن توقف العمود فقل له كلمة (بس) وحذره بأن هذه آخر مرة نراك فيها هنا وإلا......

أخذ الحطاب الهدية الثالثة من العفريت شاكرًا ورجع بها إلى زوجته مبلغا إياها ما قاله العفريت وطلب منها تطبيق هذا الكلام حرفيا ودعوة زوجة أخوه وإبنتها وأخيه أيضًا الحضور هذا الحفل الشيق وفعلت الزوجة الطيبة ما وصى به زوجها..... وحضر المدعوون بما فيهم أخوه الذي أشاد بمنظر الشبكة وما فيها من رسومات ونقوش وجلسوا

جميعهم داخلها وبعد أن قدمت لهم الحلويات والمشروبات طلبوا أن يسمعوا الغناء، وقف الحطاب وزوجته وأبناؤه خارج الشبكة بينما عائلة أخيه داخلها فطلبت منهم زوجة الحطاب أن يبدؤوا الحفل بأن يقولون بتلطف والرجاء»يا شبكة لمينا ويا عمود قرقعنا» وما أن أكملوا هذه الجملة حتى قفلت عليهم الشبكة بابها وبدء «العمود» يعمل عمله وارتفع الصراخ والعويل داخل الشبكة بدل الغناء والرقص واللذان كانوا ينتظرونه واشتد العمود في ضربهم حتى فقدوا الوعي وأعقب فقدان الوعي الإعتراف بسرقة الصحن والرحى.

كما اعترفت «العويرة» بأن أمها دفعتها إلى السرقة واعترف الرجل بأنه وقع فريسة زوجته فيما حدث بأن زوجته الحقودة تكره أخاه وزوجته وأطفاله وتوغر صدره على أخيه الفقير وأعلن توبته على كل ما بدر منه، و طلب من أخيه الحطّاب الرحمة ووقف العمود حتى يأتيه بالمسروقات أولا وسيكون لكل حادث حديث.

استجاب الحطاب لرجاء أخيه فقال للعمود (بس) ووقف العمود وخرج أخوه فقط ليأتي بالمسروقات وبقيت العويرة وأمها داخل الشبكة والعمود ليكمل مهمته معهما حتى جاء أخوه بالصحن والرحى ليعيدهما إلى أخيه مع الإعتذار حينئذ أوقف الحطاب العمود عن العويرة وأمها فخرجتا من الشبكة تحت لعنة زوجها الذي طلقها في الحال لسوء سلوكها وحقدها الدفين غير أن الحطّاب الطيب لم يرضَى بطلاق زوجة أخيه كعقاب لها، ورجا أخاه العدول عن هذا الأمر وظهر الحق لصاحب الحق، وتأسفت الزوجة الخبيثة عن حقدها وحسدها لزوجة أخيه وأولاده كما تابت العويرة على التلصص وسوء السلوك وفازت أسرة الحطاب بالصحن مصدر معيشتها وبالرحى مصدر ثان أما الشبكة فهي العدالة التي تردع كل مخالف عن سواء السبيل.

وكم يحتاج المنحرفون منا إلى هذه الشبكة التي تمثل الأمن، الرجال المخلصين الذين يطبقون بتجرد وأمانة القانون الذي يمثله العمود الذي يضرب المنحرفين دون هوادة هدفه تحقيق العدالة دون النظر إلى حسب أو نسب أو مال.

4. خرافة «الخنيفيسة»

مرضت الجدة إثر بردة قوية وساد جو الأولاد نوع من السأم والملل لفقدهم لخراف جدّتهم وطلبوا من أمهم أن تغلفها بالزيت والجاز الذي كان دواء فقراء سكان المدينة القديمة في الشتاء حيث تعم الزكمة والكحة والسعال واستجابت الأم لطلب أولادها الذين كانوا متحلقين حول جدتهم الملقاة على الفراش تسعل وتكح وغلفت صدر الجدة وجسمها كله ونامت بعد أن تغطت بعدد اثنتين من البطانيات الصوف الثقيلة.

وعند الصّباح قامت بحمد الله صحيحة معافة بعد أن زالت عنها الكحة والزكام، وقام الأولاد الواحد تلو الآخر فرحين بعد أن زفت إليهم أمهم خبر شفاء جدتهم.

وفي المساء قبل النوم تحلقوا حول جدتهم طالبين خرافة جديدة تختارها هي، وبالفعل فقد اختارت لهم خرافة «الخنيفيسة» فقالت:-

كان ياما كان عائلة من الخنافيس يسكنون بيت مهجور في إحدى الخرب تزوج أكثر الخنفسات فيها ما عدا الإبنة الكبيرة التي رفضت أغلب العرسان الذين تقدموا لها ووصلت إلى مرحلة من العمر بلغ حد العنوسة، هنا استيقظت والدتها فأخذت تلومها على تصرفاتها التي ضيعت بها العديد من الفرص، وطلبت منها عرض نفسها على العرسان لعل وعسى تجد نصيبها في واحد منهم وزينتها بزينة عرائس زمان (الكحل) في العيون، والجير الأبيض في الحاجبين، والقشرة في الشفاه والملابس كلها بيضاء، وأجلستها أمها في ضوء الشمس كي تلمع هي وأسنانها.

بدأ النصيب يتهافت عليها فمر الحمار مخاطبا إياها «ياخنيفيسة يامحرقصة يا الزبيسة يا مقعمزة في الشميسة « تتزوجيني فردت عليه اسمعني صوتك فنهق الحمار عدة نهقات فخافت منه وصرخت ياما رأسه كبير ياما رجليه كبار ياما صوته مزعج ياما مانتزوجاش، فذهب الحمار يبكي حظه المشؤوم.

ومر بعده الحصان وحدث معهما نفس الشيء، ثم مر الثور، والجمل وحدث معهما نفس الشي وأخيرًا مر عليها الفأر يمشي بخيلاء معجبا بنفسه واثقا من فوزه بقلب

العروس الخنيفيسة التي لم يفوز به أحد سواه وقال بأنه راهن أصدقاءه على ذلك.

وسألها تتزوجه؟ طلبت منه أن تسمع صوته فأسمعها زيو، زيو، زيو فقالت ياما جسمه صغير ياما عيونه قنش ياما رجليه قنش وياما صوت قنش ياما بناخذه، وحدث الزاوج بين الفأر والخنيفيسة في تلك الخربة والبيت المهجور ثم طلب منها الفأر أن تجهز نفسها للرحيل إلى بيته.

فودعت امها وأخواتها وركبت فوق ظهره وانطلق بها وما أن ابتعد عن البيت قليلا حتى تبولت على ظهره ووجهه فسألها ما هذه المياه فأجابته إنه ماء زهر أتيت به من امي فسكت الفأر واستمر في سيره وبعد قليل» تغوطت «عليه فقالت له إنه رائحة مسك أتيت به من بيت امي فأسقطها على الأرض وأخذ يدوسها بقدميه ويقول إذا كان البول والبراز زهر ومسك عندكم فأنتم عائلة «معفنة»و»نجسة « وتركها تتلوى في مكانها بعد أن طلقها ومضى إلى حال سبيله.

ضحك الأولاد على زواج الفأر والخنيفيسة حتى الثمالة وشكروا جدتهم وقاموا للنوم منتظرين الغد وخرافة جديدة.

لاح فجر اليوم التالي واستيقظت الجدة فتوضأت وأدت صلاة الفجر داعية إلى الله تعالى أن يحفظ إبنها وأولاده ويظلل برحمته على هذا البيت ثم جلست تسبح إلى ربها حتى استيقظ الأولاد من نومهم واستقبلوا ضوء النهار بفرح وسرور ثم ذهبوا إلى الكتاب يقرؤون القرآن الكريم وعادوا من الكتاب إلى اللعب متلهفين إلى عودة الليل لكي يسمعوا خرافة جدتهم الجديدة.

5.خرافة (سبعة صبايا في قصبايا).

وفي شطر من الليل بعد العشاء تحلق الأولاد حول الجدة التي بدأت تقول بعد أن صلت على الرسول صلى الله عليه وسلم كالعادة.

كانت في أحد الممالك «غولة اسمها عجلونة» قوية الشكيمة شديدة المراس عظيمة الباس قتل جنود الملك ابنتها بعد أن استفحل خطرها في المملكة وزادت شكاوى الناس منها فأقسمت امها أن تنتقم لابنتها فخطفت «الاميرة» ابنة الملك و ست البنات من وصيفاتها ووضعتهم جميعا في قصر في الغابة يصعب العثور عليهم فيها وبالرغم من انتشار جنود السلطان ومخابراته في كل مكان للبحث عن الأميرة ورفيقاتها ولكن دون جدوى واستمر الامر على هذه الحالة مدة من الزمن كانت «الغولة» تزورهم فيه بعد أن تنادي من تحت القصر الاميرة «غالية» قائلة (يا غالية مدي لي دلالك نرقالك) وكان للاميرة غالية شعر طويل جدا تلقيه من أعلى القصر إلى أسفل حين تسمع النداء فتتسلق به الغولة القصر إلى أن تصل إلى غرفة الاميرة ورفيقاتها فتصرخ في وجوههم « سبعة صبايا في قصباية اللود اللود وناكلهم».

وتأخذ وحدة من الصبايا وتأكلها امامهن اما الأميرة فقد قررت أن تأكلها هي الأخيرة تشفيا في والدها الملك الذي قتل ابنتها الوحيدة وقد حاولت الاميرة ورفيقاتها الخلاص عدة مرات من السجن والموت اللذين وضعتهما فيهم الغولة ولم يفلحن فالقوة لم تفلح معها والحيلة لا تنفع مع خبثها وسعة معرفتها لذلك استسلمن للامر الواقع وسلمن امرهن لرب العالمين.

اما الغولة فقد استمرت في تهديد الاميرة وأكل رفيقاتها كلما تزورهن بعد أن فشل أعوان الملك وجنوده في العثور على الاميرة ووصيفاتها اضطر الملك أن يعلن للممالك المجاورة أن ابنته قد خطفت ولم يعثر عليها وأن من يجدها يزوجها له ويؤمره ليكون خليفة له على عرش المملكة وما إن سمع الشباب في الممالك المجاورة بهذا الإعلان وجائزة الملك المغرية حتى بدؤوا يتوافدون على تلك المملكة مبدين استعدادهم لمواجهة أي خطر ييسر لهم الحصول على الجائزة وكل من يوقع العقد الخاص بينه وبين الملك ينتشر في الحال في أرجاء المملكة بحثا وتنقيبا عن الاميرة لعل وعسى أن يعثر عليها حية أو ميتة.

ومرت الأيام وتلتها الشهور والغولة تأتي بين وقت وآخر تنادي ياغالية «مدي لي دلالك نرقالك» وتستجيب غالية إلى اسقاط شعرها لتتسلق به الغولة القصر لتأكل

أحد الوصيفات وامام هذا الوضع الخطير المزري فكرت الأميرة أن لا تمد دلالها «شعرها» إلى الغولة حتى لا تصل إلى أعلى القصر ولا تؤذي رفيقاتها في وقت قريب بعد أكل الغولة الوصيفة الثالثة عادت الغولة تصرخ «يا غالية مدي دلالك نرقالك» ولكن الغالية تجاهلت النداء ورفضت أن تسقط شعرها حتى تتفادى الخطر المحدق برفيقاتها فدخلت رفيقتهن إلى غرفتها وقفلت جميع الأبواب ولكن للغولة شأن آخر فبعد أن بح صوتها من الصراخ على غالية ولم تسمعها استخدمت وسائلها الأخرى في الصعود إلى القصر وكسرت الغرفة الذي يختبئن فيها واختارت أحدى الفتيات طعاما لها امامهن وهددت الاميرة بأن الدور القادم عليها ومضت وبقيت الاميرة التي اعتلى وجهها الرعب والخوف من المصير المحتوم وتصلي وتدعو ربها أن يحفظها وباقي رفيقاتها من هذا البلاء الذي حل بهن وبالفعل فقد استجاب الله لدعواتهن حين لمح أحد الفرسان الذين انتشروا للبحث عنها لمح ثم سمع صراخ الغولة ياغالية ..... الخ.

فاختبأ تحت الشجرة يراقب كل شيء حتى تأكد بأن شيئا ما يجري في هذا القصر غير طبيعي وانتظر حتى نزلت الغولة ففكر في مواجهتها ولكنه رأى أن الامر يحتاج إلى كثير من الاستعداد والكتمان والعون وفي الحال بعد أن انصرفت الغولة قصد ثلاثة من الأصدقاء محل الثقة وأخبرهم بالأمر فاتفقوا جميعا على القضاء على هذه اللئيمة ووعدهم بأن يكون له شأن كبير بعد زواجه الاميرة وحصوله على إمارة البلاد واتفقوا على هذا الشرط بقراءة الفاتحة والتوكل على الله تعالى وبدءوا بتنفيذ الخطة بأن امتشقوا سيوفهم وأخذوا زادهم ليعسكروا امام القصر مختفين عن أعين الغولة.

وصلوا إلى المعسكر ورتبوا أنفسهم وبدؤوا المراقبة وما هي إلا أيام قليلة مرت حتى شعروا بسخونة الجو وجعجة سبقت قدوم الغولة وهي تضرب الأرض برجليها وترقص من الفرح لأن يومها هذا يوم أكل الاميرة الذي يمثل عندها يوم ثأر لابنتها المغدورة فاستعد الفرسان الثلاثة بسيوفهم وانتظروا حتى صرخت الغولة يا غالية مدي لي دلالك نرقالك....الخ ولكن الاميرة غالية كانت خايفة ترتجف من المصير المحتوم فدخلت غرفتها وضعت الباقي من وصيفاتها بجانبها وقفلت الغرفة من الداخل بكل ما في البيت من أثاث حتى تتفادى غدر الغولة المرتقب واتجهت إلى الله بالدعاء.

أما الفرسان الثلاثة فقد خرجوا للغولة حسب الخطة وطوقوها من كل جانب حتى يمنعوها من الهرب ونظرت حولها فوجدت الموت يحاصرها من كل مكان فحاولت أن تستعمل جميع الحيل والاغراءات بالمال والتزويج للفرسان بالاميرة وأجمل البنات معها ولكنها فشلت في الخداع والتضليل فبدأت بالتهديد فأشعلت في رأسها النار وأخرجت للفرسان أسنانها الطويلة لتخويفهم دون جدوى وأخيرا التجأت لسلاح البكاء والتذلل تنعي ابنتها التي قتلها الملك وشعر الفرسان الثلاثة بالخوف من دموع التماسيح التي تذرفهم الغولة لكي تسنح لها الفرصة للانقضاض عليهم فانقضوا هم عليها وبادروها بالطعن بسيوفهم حتى سقطت على الأرض جثة هامدة.

وفي الحال بعد موت الغولة نادوا بصوت عالٍ يا غالية يا غالية.... لقد ماتت الغولة فلا تخافي وانزلي فوالدك في انتظارك وسمعت الغالية هذا الصوت الآدمي فلم تصدق في الأول ثم نظرت هي ومن بقي من وصيفاتها من الشرفة فشاهدت جثة الغولة مضرجة بالدماء فسارعت بالنزول إلى الشارع وفرحت حينما وجدت الفرسان الثلاثة في انتظارها فقدمت الشكر لهم بعد حمد الله وأخذها فارسها امامه وفوق حصانه أما الفارسان فأحدهما نقل وصيفاتها والآخر نقل جثة الغولة قاصدين جميعهم قصر الملك.

وما ان وصل الركب إلى قصر حتى أبلغ الملك بالأمر فقام من فراش المرض فرحا بلقاء ابنته التي كانت في حكم المفقودة وأمر بالزينات في أرجاء المملكة وأقيمت الأفراح سبعة أيام بلياليها استفسر عن الكيفية التي تم بها القضاء على الغولة فأبلغه الفرسان الثلاثة بالامر وسأل عدولة ومستشاريه من منهم أحق بالزواج من الأميرة؟ فابلغوه بما اتفق عليه الفرسان الثلاثة قبل تحرير ابنته فطبق الاتفاق وتزوج صاحب الحق الأميرة بعد أن عينه الملك وليا للعهد اما زملاؤه فقد أصبحوا وزراء في الحكومة وأمر الملك بحرق جثة الغولة التي دوختة ودوخت شعب المملكة كله حيث ذهبت إلى غير رجعة.

وأعجب الأولاد بقصة الغولة التي روتها لهم جدتهم وقاموا للنوم وكل وأحد منهم يتمني أن يكون فارسًا مثل الفرسان الثلاثة ولكن قبل أن يغادروا وقفتهم جدتهم قائلة لم

يعد لي من الخراف سواء خرافتين اثنتين فقط وعلى «جحا» وعمائله وبعدها تتركوني أخلد للراحة فاستقبل الأولاد قولها على مضض ثم ودعوها وذهبوا للنوم.

6. خرافة جحا «مسمار جحا»:

وفي مساء اليوم الثاني حضر الأولاد كالعادة وطلبوا من جدتهم آخر الحكايات لديها واستجابت الجدة لتلبية رغباتهم وقالت بعد أن صلت على الرسول (صلى الله عليه وسلم).

أن جحا رجل شديد الحيلة وافر الذكاء ذا شخصية تجمع بين المرح والجد والخبث متى تطلب الأمر ورجل سوق يعرفه جميع التجار وأصحاب المهن الأخرى يحصل على القرش والدينار بذكائه أمام غفلة الآخرين وبالرغم من الحذر الذي يعتمده المتعاملون معه إلا أن فوزه مضمون في كل الأحوال.

و بدأت الجدة بقصة « مسمار جحا» فقالت:

كان لجحا بيت كبير موشى بالرسومات والزينة يأخذ بالباب من يراه وتنفتح نفس من يدخله به مسمار كبير في وسطه احتاج جحا للمال لتجارته فعرضه للبيع وحضر المشترون ورفضوا الشراء امام الشرط الذي وضعه لبيع البيت وهو أن يتم البيع من كل شيء ماعدا «المسمار الكبير» الموجود في الوسط لأنه ملك مقدس لعائلة جحا وجده الأكبر وتعاقب المشترون وأحدا تلو الآخر لكنهم يصطدمون بشرط جحا وخطر لوأحد منهم فكرة أن اشترى البيت ويقلع المسمار وانتهى الأمر.

وتمت عملية البيع قانونا وسجلت في السجل العقاري متضمنه شرط جحا، وقبل أن يقدم الشاري على إزالة المسمار جاء جحا يحمل خروفين ميتين تزكم ريحتهم الآنوف وعلقهما في المسمار وجلس تحته وجاء المشتري الجديد ليتفاجأ بما قام به جحا وقامت بينهما معركة تدخل فيها الناس ولم يفلحوا في حسمها لتشبث كل طرف بموقفه وذهب المشترى إلى الشرطة ثم المحكمة حيث وقف الإثنان أمام القاضي لشرح موقفهما ويبرز ما لديهما من مستندات وحكم القاضي بأحقية جحا في وضع ما لديه من حاجيات في مسمار مادام المشتري قد وقع على المبايعة المتضمنة لشرط جحا.

كما طلب من جحا أن لا يأتي بالجيف ليعلقها في مسماره لأن ذلك يضر بالمشتري ورضيا الطرفان بالحكم وذهب كل إلى سبيله بعد أن تعهد المشتري بعدم التعرض لمسمار جحا بالإزالة أو الضرر وما أن خرج جحا من المحكمة حتى بادر بإحضار كلب وحمار أجربين تعلوهما الحشرات والقراد ونباح الكلب ونهيق الحمار عاد المشتري فوجد ما لا يسره فجاء إلى جحا والجالس تحت مسماره وطالبه بتفسير لموقفه ولما لم يجد التفاهم المطلوب معه أخذ يرجوه ويتوسل إليه أن يرجع له ماله ويعيد له بيته ورفض جحا هذا العرض وتنازل المشتري على نصف ثمن البيت ثم إلى ثلاثة أرباع الثمن حتى ينهي هذا المشكل الذي وقع فيه ورضي جحا بدفع الربع ولكنه اشترط تقسيط المبلغ لأن تجارته أخذت كل المال الذي لديه.

وهكذا كسب جحا مالا بالذكاء والحيلة امام خصمه الذي ثبت فيما بعد أن المال الذي اشترى به البيت مال حرام سرقه من يتامى فانطبق عليه القول المأثور» رزق الحرام لا يدوم» وقول أخر «رزق الماء يمشي للماء « وعجي.

«صبعين وتلحق الطين» :

استمرت الجدة في قصة جحا الثانية فاختارت لها عنوان (صبعين وتحلق الطين).

وبدأت القول بأن «جحا» لف جميع الأسواق التي تبيع المواد الغذائية فوجدها خالية من العسل فانتهز الفرصة القريبة لميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم والتي يحتاج فيها الناس إلى العسل لعمل «العصيدة» فاشترى عشرات من «الأزيار» و»المخافى» الذي يحفظ فيها الزيت وملأها بالطين اللزج الذي لا يمتص أي مادة حتى الماء إلى أسفل عنقها، ثم صب فيها العسل حتى آخر العنق ثم أتى بها إلى السوق يصيح على بضاعته.

العسل النحلي الأصيل «صبعين وتلحق الطين» وكرر هذه الجملة عدة مرات وكان يرفع العسل من الأزيار والمخافي بإصبعيه ليشاهد الحاضرين نوعية العسل وهي خذعة لترغيب الحاضرين في الشراء وفعلا فقد تهافت الناس على شراء هذه الأزيار والمخافي إلى آخرها وهو ينادي «صبعين وتلحق الطين» ونفدت بضاعة جحا من العسل وقبض الثمن، وما أن رجع المشترين إلى بيوتهم وصبوا العسل في أوانٍ أخرى حتى اكتشفوا أن

الزير لا يحمل أكثر من لترين أو أكثر قليلا فصدموا من هول المفاجأة وعادوا إلى السوق يبحثون عن جحا المخادع، وبعد لأي شديد من البحث وجدوه جالسا تحت حائط يفكر في حيلة أخرى يكسب منها المال فمسكوا في تلابيبه وأرادوا أن ينهالوا عليه ضربا بعد الشتائم التي حصل عليها و لكن عقلاء منهم منعوهم واتفقوا على نقله إلى القاضي لمثوله أمام المحكمة، و كان الأمر كذلك.

وقف جحا أمام القاضي مرفوع الرأس غير خائف أو وجل وحكى الجمع قصتهم إلى القاضي فاستغرب القاضي من فعلة جحا الشنعاء، وجاء دور جحا في الدفاع عن نفسه، فقال سيدي القاضي كل اللي قالوه صحيح ولكنهم أخفوا عليك حقيقة هامة، وهي بماذا كنت أنادي على بضاعتي؟ فسأل المدّعين بماذا كان جحا ينادي على بضاعته، فرددوا ما سمعوه من جحا قبل أن يشتروا منه العسل.

وبعد أن سمع القاضي دفاع جحا عن نفسه سأل المدعين وهل سمعتم منه ماذا يقول في ندائه وهل فهمتموه؟ فردوا قائلين كنا نعتقد أن ما كان يقوله مجرد كلام، ولكن القاضي شرح لهم ماذا يقصد بندائه الصريح الموجه للشاري، ونطق بحكم البراءة على جحا وحذر الآخرين من التعرض إليه لأنه وضح لهم « أن بعد إصبعين من العسل سوف يصلون إلى الطين» وكان عدم فهمهم لما كان ينادي به أمر يعود إليهم «والقانون لا يحمي المغفلين أمثالهم».

وهكذا انتهت الجدة من خرافاتها مشكورة، ومن كانت هذه الجدة إلا جدتنا أو أمنا نحن رحمهما الله وما كان الأولاد الصّغار بنين وبنات إلا نحن الذين عايشنا هذا الزمن سنة 1950م وما قبلها قليلا، وما بعدها بسنوات أيضا.

اليهود في المدينة القديمة

تشير المصادر الشفوية بأن ثلاثة أرباع سكان المدينة من المسلمين العرب والربع الآخر من اليهود الذين يقومون في ثلاث حواري هم «الحارة الصغيرة والحارة الوسطى وثم الحارة الكبيرة»

- وكانت الحارة الصغيرة في محلة حومة غريان والأربع عرصات.
- والحارة الكبيرة بين شارع الأكواش والسور الغربي.
- أما الحارة الوسطى فموقعها بينهما من الشوارع والزقاق

وكان لهم سوق يسمى باسمهم وأقلية بسيطة أغلبهم من الأغنياء يسكنون في عمارات بين شارع الاستقلال وجامع المغاربة وكان فقرائهم يعملون في شتى المهن في مقدمتها اماكن الخمور أو ما يسمى بالعامية (طبارن) ناهيك عن صناعة الذهب والفضة وتبييض النحاس وبيع الحلويات والمكسرات.

أمّا المعدومين فيبيعون البطاطا الحلوة المشوية والحمص اللبلابي والأصفر ويصلحون «قصعة» الخشب إذا تآكلت كما يصنعون أيضا «محاريث» الخشب للزراعة و»المحاش والمناجل» التي تقلع بها المزروعات الأخرى وكان في عادة أغنياؤهم الذين يقيمون خارج المدينة أن يزوروا فقراءهم ويقدمون لهم العون المادي حتى لا يحتاجوا إلى مد أيديهم للمسلمين ومن ليس له صنعة أو حرفة ما يزودونه بالمال لفتح دكان أو على الأقل يعمل طبق كبير به الحمص والمكسرات يبيعها لبني جلدته من اليهود دعمًا وإعانة له بالمال الذي يعيش به.

كذلك لديهم صندوق للإعانات تموله الوكالة اليهودية وقد نقلت هذه الوكالة أكثر من 22000 اثنان وعشرين ألف يهودي من ليبيا بالتعاون مع السلطات البريطانية التي كانت تحكم ليبيا في عهد الوصاية البريطانية عليها خلال سنة 48م بعد إنشاء دولة إسرائيل المزعومة ولم يبق في ليبيا سوى 4500 أربعة آلاف وخمسمائة يهودي أصبحوا

إبان الاستقلال 6500 ستة آلاف وخمسمائة منهم 4000 أربعة آلاف في طرابلس و100 في بنغازي وتوزع الباقي على باقي المدن اللّيبية.

أما العلاقات الإجتماعية بينهم وبين المسلمين فقد سادها نوع من المصلحة المشتركة والتعاون ولا سيما في مجال التجارة بكل أبعادها ولكن بعد نكبة فلسطين تغير الحال فبدأ اللّيبيون ينظرون إلى اليهودي على أنه مغتصب لأرض المسجد الأقصى المقدس عند المسلمين وانعكست هذه النظرة على

وزاد الطين بلة عندما عين الحاكم العسكري البريطاني ضباط مراكز البوليس من اليهود فبادر شبابهم الذين كانوا فزعين خائفين من الشباب المسلم يشكلون عصابات منهم للرد على المسلمين إذا دخلوا حواريهم، وحدث أن قتلت هذه العصابات «فتى» عربيًا مسلمًا اسمه «سالم «كان «الفتوات» تجمعوا عليه عندما دخل إلى احدى حاراتهم وقضوا عليه بليل ولما لم تكتشف الحكومة القاتل أو تغاضت عن اعتقاله قامت قيامة المسلمين وردوا الفعل بقتل ثلاثة من اليهود الفتوات ثأرا لموت «سالم» المغدور واستمرت المناوشات مدة طويلة وخاصة في الأعياد الدينية كمولد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وماجرت به العادة على حرق (البرميل) في مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في أحد حواري اليهود بعد أن يتسلح الشباب الذين يحملونه بالسكاكين والعصي الغليظة ويتسلح شباب اليهود «بالماء المغلي، وماء النار أحيانا «وكان الضحايا من الطرفين بالعشرات لدرجة أن الحاكم العسكري البريطاني أصدر قرارًا يمنع إشعال هذا البرميل بحكم القانون، ولكن شباب المدينة من المسلمين رفضوا هذا القرار ولم يعملوا به مما أدى إلى حبس بعضهم بموجب حكم صدر عن المحكمة الإبتدائية.

وبالرغم من توددهم للمسلمين وترضيتهم بالمال أو إشراكهم في التجارة فإن ذلك قد صدر عن خوف من المسلم لكي يحميه من غيره من الفقراء الذين يتعاملون مع اليهودي بالقرض أو الرهنية ثم يقبلون لهم ظهر المجن، ولما كان المال والثروة يملكها اليهود منذ احتلال إيطاليا لليبيا حيث بادروا إلى شراء الأرض الفضاء منها وشرعوا في بيعها بعد مسحها وتقسيمها إلى قطع صغيرة ثم تسليمها إلى الوجهاء الليبيين لبيعها والحصول على

نسبة من ثمن البيع فكان اليهود سببًا في ثرائهم كما استأثروا بالتجارة وتوكيل الشركات المختلفة التي تورد إلى ليبيا من خارج كل ما يتعلق بحياة الليبيين واستمروا على ذلك حتى بعد استقلال ليبيا 1951م.

• المعاده

زمان عندما يموت يهودي أو يهودية في حاراتهم بالمدينة القديمة تتجمع النسوة في بيته ويتحلقون على طاولة وبأيديهم عصي في وسط الحلقة عجوز يهودية تفتح العزاء بصرخة مدوية، ترددها النسوة في الحلقة ويبدأن في ضرب الطاولة بعصيهم ويرددون ماتقوله «القوالة» من كلمات أغلبها كفر واعتراض على قدر الله تعالى وللأسف فقد حدث بعض العائلات المسلمة الجاهلة بتعاليم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في النواح، والعويل وكسر الطاولات علي الميت هو ماتنكره الشريعة على هؤلاء غير أن زيادة الوعي عند الناس قد أبطل هذه العادات السيئة.

شخصيات من المدينة القديمة

وكما عرفت المدينة القديمة العديد من الشخصيات الدينية والأدبية والفنية عرفت أيضا في المقابل الكثير من الشخصيات المهنية التي تمس حياة الناس اليومية، كالخباز والنجار وصياد السمك والحداد والصّياغ والكواش واللبان ومهن أخرى لا يمكن للحياة اليومية الإستغناء أو التنازل عنها لأنها من الضرورات.

وسنذكر من هذه الشخصيات التي أثرت في الناس وحياتهم ما عرفناه وسمعناه عنهم من الذين عاصروهم وعرفوا عنهم الكثير منهم:-

«محمد الصادق خليفة الجنزوري شيخ الخبازين»:

من أبرز المهنيين الذين كانوا يتعاملون مع رغيف العيش سبكًا وخلطًا ومنية وكان يتعامل مع الخبز والقمح لا الدقيق الأبيض الذي كان من الصعوبة بمكان الحصول عليه فكان خبز دقيق الشعير والقمح هما السائدان والمنتشر في الأسواق في ذلك الزمن 1924م .

هو من مواليد 1884م فارع الطول قوي البنية ممتلئ الجسم مرح في كل الأحيان ما عدا في المواقف الجادة كان فيها شديد الصرامة يدافع عن الحق رخي اليد ينصر المظلوم ويقف ضد الظالم مهما كان منصبه أو دينه يحضن الفقراء ويعطف عليهم، ورغم أميته كان نير الفكر متفتح الذهن يحب المزاح ويكره الاستغفال أو النصب عليه كانت الحياة في وقته صعبة للغاية لم تعرف فيها طرابلس أو مدينتها القديمة الانفتاح أو فرص العمل بل كان المواطن فيها إمّا عاطلا أجيرًا باليومية مع الطليان وإمّا عاملا حرًا في عربة يجرها حصان وتسمى (بالشريول) أو عربة أدنى من ذلك يجرها حمارًا أو حمالاً في سوق الحوت يحمل على ظهره سلة يحمل فيها اللحم والخضروات التي اشترتها «السنيورة» ربة البيت الإيطالية، أو يلتقط السجائر التي ترمى في الشوارع وأمام المقاهي التي يؤمها الإيطاليون أو غيره من المهن الدّنيا التي يحصل منها على لقمة العيش التي ينتظرها أطفاله الجوعى.

انتقل سوق الخبز سنة 1924م إلى شارع أبي الخير بعد أن كان في ميدان الشهداء أو ما كان يسمي «بفم الباب» آنذاك وكانت طاحونة عجين الخبز والكوشة، أما الخبزة فكانت من الدقيق الخالص مميزة على جميع أرغفة الخبز التي يصنعها الآخرون.

كان ينادي على خبزه الذي عرفه القاصي والداني سواء من داخل طرابلس أو حتى في حدّها الشرقي الذي كان يسمي ب»الكردون» منطقة الهاني حاليا، وقد جعلت السّلطات الإيطالية هذه المنطقة حدا يفصل بين طرابلس وخارجها ووضعت للداخلين والخارجين مجموعة من البوابات لتفتيش الداخلين من الكردون والخارجين منه خوفا من تسرب المجاهدين إلى داخل طرابلس.

ويذكر لنا تاريخ الجهاد الليبي أن معركة الهاني كانت من أشرس المعارك التي قام بها المجاهدون الليبيون ضد العسكر الإيطالي حيث أبلوا فيها البلاء الحسن في تكبيد السلطات العسكرية الإيطالية أفدح الخسائر في الأرواح والعتاد، وكان اسم شخصيتنا الذي نتحدث عنها «محمد الصادق خليفة الجنزوري» اسمًا مركبًا من محمد والصادق، وكان ينادي على خبزه حين يخرج من الكوشة يقول :»خبز الصادق» توصل للكردون مشيرا إلى كبر رغيف العيش حتى أن المشتري إذا حصل على رغيف ويبدأ في أكله من أمام السوق سوف ينتهي الرغيف أمام «الكردون» علماً بأن المشتري يمشي راجلاً دون أي وسيلة مواصلات.

وقد أفادت المصادر المعاصرة لهذا الرجل بأنه كان ينادي على خبزه إذْ مرّ به ثلاثة من الأفاقين (الرديف) فأرادوا التهكم عليه قائلين أن خبزتك التي توصل إلى الكردون كل وأحد منا يمكنه أن يأكلها في فم واحد فمد لكل منهم رغيف وطلب منه أن يأكله «في فم وأحد» واشترط عليهم امام الملأ في حالة عدم وفائهم بما قالوه سوف يعاقبهم، وبالطبع فإنهم لم يوفوا بالوعد لأن الجمل أو الثور نفسه لا يستطيع أن يأكل رغيفا مثل ذاك في فم وأحد، وحينما فشلوا وجب العقاب وأرادوا أن يفلتوا فلم يتمكنوا فاعتقدوا بأنهم ثلاثة ومحمد الصادق واحد فلم لا يتخلصون منه بالقوة، ولجؤوا للقوة ولكن الصادق فاجأهم بضربتين طرحهم أرضا فأوقفهم مرة أخرى ليمسك بتلابيبهم ففر واحد

هربا، أما الإثنين الآخرين فأمسك واحدًا باليمنى والآخر باليد اليسرى وضربهما ببعضهما فسقط الاثنان أرضا فاقدي الوعي؛ حدثت هذه القصة أمام جمع كبير من مرتادي السوق فأطلقوا على الضربة التي وجهها «محمد الصادق»لهذين الاثنين الآخرين كلمة «فنقة» ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه الكنية لقبا ملتصقا بالصادق خليفة الجنزوري وأصبح بعد التحوير»محمد الصادق فنقة» وبات يقول «خبزة فنقة توصل للكردون».

وقد روى لي هذه القصة أصدقاءه الذين حضروها وعمري لا يتجاوز العشر سنين رحمهم الله جميعا واسكنهم وإياه فسيح جناته وإنا لله وانا إليه راجعون.

شيخ الفنانين مختار شاكر المرابط:

كان ومضة من جيل قديم بزيه ولهجته، وتراثه، وحياته الفنية كان مرجعًا حيًا متحركًا للأدوار، والتواشيح، والطقاطيق، والألحان، والطّبوع له معجبون وعشاق ومستمعون وما أن تراه يمشي في الشارع بهيبته، أو يجلس بأحد دكاكين أصدقائه بباب الحرية أو في طريق الحلقة حتى تصاب بالدهشة مما تسمعه من كلمات الإحترام والتقدير والإعجاب، والإكبار دلالة على حب الناس له وللفن والفنانين امثاله.

في زمن ذابت فيه الفوارق وبرز فيه كل مطرب صادق أو صانع ماهر، أو شاعر فحل أو أديب تناول حياة مجتمعه وكتب عليها بعمق النظرة وصدق المشاعر ونقد السيئات ونادى بنقيضها من الحسنات حتى يتعلم الشعب منه ويقطف ثمار ما تعلمه.

كانت السهريات والزرادي في البساتين والحوايز ملتقى الليبيين من أصحاب الهوايات: والميول التي تتوق إليها الآنفس فمنهم من هوى الرياضة ومنهم من هوى القراءة وغيرهم هوى الفن بجميع صنوفه وألوانه، وفن الغناء هو ما يهمنا لأن شخصيتنا التي نتحدث عنها متيمة بهذا الفن منصهرة فيه تتحف مستمعيها بما حفظه من روائع الألحان، وبدائع الأنغام التي صدح بها حتى الفجر.

عاش فنانًا في هذا الجو لحنًا، وطربًا طائرًا مغردًا يعانق الحياة ولو في أقسى ظروفها يشتري اسطوانات الفنانين المصريين الكبار فيحفظها عن ظهر قلب ثم يعيدها ويضيف

إليها فيتقن الإضافة ولو في دائرة المحاكاة والتقليد كان الشيخ مختار سيد الساحة الفنية في عصره هذا صحيح ولكن كان هناك آخرون من الفنانين المحترمين أداروا رؤوس السميعة، ولفتوا أنظار جماهير الطرب ولو لم يكونوا في مستوى الشيخ مختار نذكر منهم المطرب الشاب أحمد شاهين الذي غنى على مسرح الميراماري فألهب الأكف بالتصفيق، وشد إليه مشاعر من يسمع من الحاضرين ووافق هذا الحدث زيارة سيدة الطرب مصر منيرة المهدية إلى طرابلس فكان حدث هذه الزيارة ذا أهمية بين الفنانين المصريين والفنانين اللّيبيين أمثال كامل القاضي الذي ردّد الأدوار والألحان الطرابلسية، وبشير فحيمة أو فهمي كما سمى نفسه كان يردد الأزجال من نوع الأغاني غير أن شاكر المرابط كان هو المنشد والمطرب في الحفلات الخاصة والعامة بمناسبة وبلا مناسبة موسمية و غير موسمية أعراس، طهور، ذهاب للحج، عودة من الحج أمسيات في حوازة أو سانية تمتد السهرة إلى أيام – حسب المزاج النفسي – والشيخ شاكر يطنطن ويدندن، مدرسته الأسطوانة التي يتسرب منها اللحن ويتشرب الفنان منها بحسه المرهف وأذنه اللاقطة التي ترتوي بالفن وتتشنف باللحن والغناء، وعلى نغمات العود وأوتار القانون والحنجرة القوية الصافية التي تثير كوامن الإحساس المرهف وتحرك شجن الحب والوله في جمال روحه ورقة ظرفه التي تناقض جسمه ومظهره الخارجي الذي يمثل ضخامة الجثة، وتزايد البناء الذي دخل من خلاله الشحم واللحم إلى درجة الضخامة والترهل عبر ما مر عليه من سنين حتى اقترب من الأغنية التي تقول «الكبر حاذاني وجي يداعى– وغير قربوله النار والطياعة» (رحم الله خالتي قميره) وقد غطى على عيوب جسمه ظرف معشره، وحضور بديهته، وحلاوة نكتته وكانت هذه السجايا دليلًا علميًا على أن أبناء هذا الشعب ليسوا عبوسين بطبيعتهم، وليسوا ممطُوتي الشفاه لا يضحكون بل فيهم تحت همومهم فرح ومرح ودعابة.

الذين عاشروا الشيخ شاكر وعرفوه عن يقين يصفونه بجمال الروح وطيبة النفس، والانفتاح على الحياة، فهو لا يتجهم ولا يقطب إلا في لحظات الآنصات والاستيعاب الفني، ولحظات التهيئ إلى الدور الفني الذي سيؤديه أو الأغنية التي سيتحف بها المستمعين فيعطيهما لمحة من الإطراق والغيبوبة الفنية قبل الإندماج في الأداء، وظل مخلصًا

لفنه ولا يتركه ولا يحيد عنه يتمسك به برغم هجوم الأغنية العصرية السهلة السريعة على ساحة الفن في الأغنية المذاعة والمشاعة فقد بقي مخلصا لفنه وللأسلوب الذي بدأ به مسيرته الفنية التي تتمثل في الارتياح النفسي عندما يندمج في دوره ويتسلطن فيتحلق حوله المعجبون ويرنو إليه السميعة رجال ونساء، وفتيات اللاتي يسمعنه من خلف الشبابيك ومشربيات البيوت دون أن يلتفت إلى احتياجه وما كان أكثر هذا الاحتياج الذي بدله عن طيب خاطر بإحياء الليالي الملاح التي تستمر حتى آذان الفجر أحيانا وانبلاج خيوط الصباح بعد صياح الديكة وهو مستمر في وصلته ومقاطع من الآهات وياليل ياعين حتى ينشر الصباح أضواءه في الأفق.

كان يرتدي الزي الوطني، والجبة الفضفاضة والمبرقشة التي كان يرتديها آنذاك وجهاء مدينة طرابلس وهي صناعة يدوية أبدع في تطريزها طرابلسي يهودي اسمه «ياقوت» هاجر بعدئذ إلى الإسكندرية.

كان أفراد فرقته أو بعضهم يرتدون البدلة التي جلبها الطليان والعثمانيون معهم ولكنه لم يلبس هذه البدلة ولو مرة واحدة في حياته.

حاز في محيطه عن جدارة واستحقاق على لقب «شيخ المطربين « وعرفه الجميع بهذا اللقب الذي اكتسبه بسهر الليالي وعظمة حنجرته وكان في المجتمع الطرابلسي كثيرون ممن اكتسبوا هذا اللقب في المهنة التي أجادوها بجدية وشرف، وأمثال مختار حورية شيخ المقرئين ومحمود بن موسى شيخ الصحافة والشيخ علي حيدر الساعاتي شيخ الفلكيين، وعلي سيالة، شيخ القادرية وعبدالرحمن البوصيري، شيخ المدرسين، والشيخ البلبالي شيخ المتصوفة، وهناك شيخ الصنعة أيضا.

كان الشيخ شاكر المرابط قد بلغ السبعين عاما وهو لازال يدندن بصوت صاف واضح النبرات منسجما مع مقاطع ترديد أغانيه ورغم ظهور بعض التجاعيد على وجهه تركتها الأيام وحفرتها العقود السبعة بأيامها ولياليها إلا أنه بقي صافي الذهن، قوي الذاكرة، جيد الحفظ وخاصة للأدوار والتوشيح والطقاطيق الطويلة والخفيفة ويجاوب معها

صعودًا وهبوطًا....مجيد تقليد المدرسة القديمة وفطاحلها وفي الغناء المصري أمثال عبد الحي حلمي، وعبده الحامولي، والشيخ المنلاوي وسيد الغناء الذي أغرم به وأحبه وحفظ جميع تواشيحه وأغانيه وقلده في غنائه الشيخ «الصفتي» الذي نشر الشيخ شاكر المرابط أغانيه في المجتمع الطرابلسي وتأثر كثيرا بسيد درويش والشيخ السبع وأبو العلا محمد، وداود حسني، و محمد عثمان وهؤلاء مطربوا ذلك الجيل وقبل أن تضع ام كلثوم، ومحمد عبد الوهاب أقدامها على سلم الفن والمجد وكان للفن المصري في طرابلس أنصار وأتباع وسمّار على الشاطئ قبل الحرب العالمية الأولى وما بعدها بل وحتى قبل ظهور المذياع في البلاد وانتشار مكبرات الصوت والأشرطة أيام كان المطرب يعتمد على الحنجرة القوية وذبذبة الصوت لا على الميكرفون الذي يريح الحنجرة، ويكبر الصوت.

يذكر الشيخ شاكر المرابط أن أول دور غناه في مطلع شبابه كان من أدوار الشيخ سيد الصفتي (هاجر الغرام) ودور آخر كان مشهور اسمه -قبل ما تميل المحبة- وانسجم في الغناء وزاد في الأداء، وتفنن، وتمايل وزاد في الليالي، وأضاف للطرب والكلام أبياتا أعطيت الدّور مزيدًا من الحلاوة ونمقته بخيوط الذهب، وكان شيخنا يحفظ ما يزيد عن مئة دور يرتبها بلا أرقام في خزينة صدره وكل دور له لزمته ومقطعه ومطلعه كما يحفظ أكثر من خمسين قصيدة يوم أن كانت الأغنية تتزود من القصائد وبجانب هذا كان يحفظ العديد من التواشيح الآندلسية، وكان شيخنا حينما يغني يتلبس بصدق الأداء، ونبض المشاعر وخفقان القلب حتى يذوب في تجلي النغم، وتناسب المقام الذي يحلق به في سماء الكلمات التي يقولها الدور أو الأغنية ويعيد ويزيد حتى يخرج عن الوقت المحدد له من الإذاعة وهو نصف ساعة فقط وهي أكثر مدة كانت تعطي لمطرب ومع ذلك يراها قليلة وضيقة بالنسبة له، وما (اتسخنش) على حد قوله فهو يرى أن المطرب لا بد أن يسخن ويعمل على الإحماء العام والخاص من حنجرته وتسريح الحنجرة قبل البدء في الأغنية أو الدور وإذا قطع شوطا أولًا، فلا بُدَّ له في الشوط الثاني أن «يتسلطن» ويسلطن المستمع معه وبذلك يتم الانسحام بين الطرفين، ويأتي الوقت في الزمن الحاضر الذي ينتهي فيه مصطلح التسلطن والانسجام الفني وينتهي معه عمالقة ذلك الجيل

الجميل من فنانين وشيوخ علم وأدباء وشعراء وقِسْ على ذلك من شيوخ وعمالقة في كل مناحي الحياة.

ومن المطربين الذين كانوا يشدون انتباهه في عصر النهضة الفنية في مصر «محمد عبد الوهاب» خاصة في قصيدة شاعر النيل الأول «شوقي» خدعوها بقولهم حسناء «و أغنية «أخاف عليك من نجوى عيوني» وكان يكره الوقوف على خشبة المسرح كان يفر من الفن المعاصر غناء أو مسرحا وكان خاتمة المطربين القدماء «عبده السروجي» الذي ظل آخر عمره في دكان بيع الجرائد والمجلات وقد أحبه شيخنا شاكر الرابط لأنه كان آخر تلاميذ صالح عبدالحي الفنان العصامي الألمعي الكبير.

وكان الشيخ شاكر يفضل الحفلات الخاصة في البساتين والحوازات لا الوقوف امام ميكروفون الإذاعة على الهواء ويكره بشدة عملية التسجيل ويعتبرها ضحك على ذقون المطربين وتعدي على حقوقهم من قبل متعاهدي التسجيلات.

كان يعجبه من المطربين الطرابلسيين محمد سليم لأنه يراه من المحافظين على أصول الفن القديم، كما كان معجبا بالفنان محمد مرشان الذي كان من هواة الفن من جيل الشباب، كما كان يضرب للفن المرزكاوي الذي يحمل مضامين الأصالة في الفن الشعبي الفزاني، ولعل الغريب الذي يدهشك في حياة هذا الشيخ الفنان أنه لم يزر مصر ولو مرة واحدة في حياته بالرغم من تحدثه باللهجة المصرية وكأنه أحد أبناء البلد في الحسينية بالقاهرة أو الآنفوشي بالإسكندرية ولكنه سافر مستضيفا من قبل أحد المعارض إلى ألمانيا عام 1935م حيث سجل عدد عشر إسطوانات واحتسبت من التراث الضائع في عالم الطرب والغناء وهو مما يدعو للأسف حقا ولا يدري أحد هل سجلت له بدون علمه أو أنه لم يستطع أن يعترض على التسجيل لأن السلطة التي سفرته مع فرقة موسيقية هي القابضة على دفة الأمور في البلاد فهي تقبض على أعناق الناس وحناجرهم وربما يكون سبب كراهيته للتسجيلات ما حدث له في ألمانيا من خدعة، ودام بقاؤه في ألمانيا خمسة شهور أحياها في حفلات غنائية مختلفة، وكان المطرب الليبي والعربي الوحيد الذي أحيا الحفلات الغنائية وسجل في بلاد الراين، وبالمناسبة فإن حوارا يدور بين الناس مفاده

هل كل من يغني عازفا ؟ وهل كل عازف مغني؟ إن علم القياس يقول يندر أن تجد مطربا غير عازف أو نافخ على آلة موسيقية ولو على سبيل الهواية.

ومن العسير أن تجد العازف مطربا إلا على سبيل الهواية، ولقد لمسنا في شيخنا المطرب الضرب على آلة البندير، والطبلة،-الدربوكة- نقرات مثيرة تتوافق مع سطح الآلة الجلدية تمنحك جاذبية اللحن في قربه وبعده من أذنك في نقرات تأخذ بلبك وتتفاعل مع أحاسيسك تحسده عليها زمزامات الأعراس المبهرات امثال خالتي صالحة وفرنيز أو خالتي الريس على رحمهن الله ومن هواياته لعبة الشطرنج التي تدعو إلى الصمت والتأمل والمناورة والخبرة الطويلة وكان يسميها رياضة المثقفين والذوات، ومن صفاته أنه أكول بشكل مفرط يقول عنه أهل الشرق «دباغ» ويقول عنه أهل المغرب «بطناجي» اما أصدقاؤه فيطلقون عليه فاقون (الفاقون) هو أحد جرارات القطار التي تحمل الكثير من البضائع والركاب غيرها دلالة على كبر بطن هذا الجرار حتى أن معارفه كانوا يقولون عليه أنه في الزرادي والأعراس والحفلات الخاصة كان نصيبه من الغداء أو العشاء أو شواء» قصعة لوحده» لا ينازعه عليها منازع، يعرف اللغة العثمانية، ويخلص نفسه باللغة الإيطالية كلمات من اللغة الألمانية حصيلة خمسة وعشرين أسبوعا امضاها هناك زارت المطربة الأولى في مصر منيرة المهدية طرابلس في مطلع العشرينيات وهي تحمل لقب سلطانة الطرب قبل أن تنتزع منها هذا اللقب الفتاه الصغيرة التي قدمت من صعيد مصر إلى القاهرة المسماة» ام كلثوم» التي بدأ نجمها يصعد في سماء الفن «القاهرة» ومنجمها الذي يخرج الفنانين «شارع محمد علي» زارت السيدة منيرة طرابلس وهي في أوج عزها ومجدها وهي ذات الحزام الألماسي، والخواتم الفيروزية الماسية والقبقاب الذهبي عيار 24 غنت على مسرح الميراماري وغنى شيخ مختار أمامها وأمام جوقتها في بستان السيد قنابة صاحب العمارة وابن عم شاعرنا الكبير أحمد قنابة ابن المدينة القديمة، وكانت القصيدة التي غناها مطربنا الشيخ توشيح «حسب الأفكار» لسيد الصفتي،وتسلطن، وانسجم واندمج لدرجة أن لو كان من السميعة أحد يؤمن بتناسخ الأرواح لقال مؤكد أن روح الصفتي قد حلت في مختار شاكر المرابط.

قال هذا الكلام من حضر وسمع الشيخ مختار ومنيرة المهدية التي حرك مرابط فيها كوامن روحية فنية فغنت آنذاك (اسمر ملك روحي) وغنت أيضا أغنية «ياللي جرحت القلب داويه» وتسلطنت هي الأخرى وتسلطن معها الحاضرون وكأنها ترد على الشيخ مختار الذي غنى قبلها فأبسط الجميع وأعجبت المطربة المصرية بالمطرب الطرابلسي وأشادت بفنه وصوته وإن كان من النادر العسير أن يشهد مطرب لآخر أو لأخرى إلا في حالات لا يكون تنافس بينهما قائما.

كان شيخنا يكره السينما ويستغرب لمشاهدي السينما كيف لهم أن يجلسوا الساعات الطوال بين أربع حوائط في الظلام ليشاهدوا فيلما؟ أليس جلسة تحت شجرة ورنة عود تتلوها فرحة وضحك أحسن من السينما هذا مايقوله، كان يتردد على دار الإذاعة التي كانت بشارع السيدي «مقر الصمعة الحمراء» كل أسبوع ليغني بلا تحديد مدة ويكره الميكرفون المنصوب امامه لأنه يشكل حاجزا نفسيا كيف يغني بين أربعة حوائط؟!! يريد أن يغني لجمهور يتجاوب معه ويستمد منه العون الفني والدفع النفسي ليصل إلى قلوب مستمعيه وأفئدتهم ويقنعوك بوجهة نظره حين يقول لك هل ينسجم لاعب الكرة بدون جمهور؟ وهل ترى خطيبا في جامع بدون مصلين؟ والواقع أن كلامه يقنعك ولكن لكل زمن مقتضياته، ولكل عصر أجياله وعاداته ويخطئ من كان يتصور أن العصفور في القفص يغني لأنه فرحان وطربان، وإنما كان غناؤه نابع من حزن القفص الذي حد من حريته والتي وهبها الله له وحتى ولو غنى في قفصه فهو غناء للضرورة والضيق الذي أحاط به.

ونظرا لضخامة جسمه فإن الكرسي العادي لا يستوعب قاعدته لذلك فقد فصل له نجار الإذاعة كرسي دون أن يقيس حجم الجسم وجعل للكرسي مسندين وتم تجهيز الكرسي وجلس عليه الشيخ مختار وانحشر جسمه وشعر بالضيق واستغاث عند الحركة والتململ لحظات السلطنة وليل ياعين واه يانا .... وتوقفت حفلة التقديم الإذاعي واستعان بزملائه لخروجه من الانحشار من الكرسي وكان الاعتذار للمستمعين عن تأخير الحفل لأسباب فنية، وفرش لها بساط أرضي ليغني عليه وفي سؤال صحفي له هل

أحببت؟ فكان الجواب نعم أحببت الفن وبه أغرمت ضيعت فيه شبابي وزهرة عمري ..... رحم الله شيخنا.

عاش الشيخ شاكر وتربى في ربوع المدينة القديمة وأمضي حياته بين شوارعها وزقاقها بين بحرها، ومساجدها القديمة والعريقة، وعاصر شيوخ العلم والمهن اليدوية بها، وكان ينتقل في يومه في باب الحرية تجده جالسا عند أحد أو في سوق الترك جالسا في سوق الحرير أو مضيفا من أحد الوجهاء والأعيان الذين غنى في أفراح زواجهم وزواج أبنائهم فقد كان عفيف النفس طيب القلب بديهي النكتة لقد كنت محظوظا في صباي إذ حضرت للشيخ شاكر عدة عّراسات - غنى فيها - من التواشيح والأدوار، الطقاطيق مما لازال عالقا بالذهن والذاكرة.

أمي عيشاتو أم المدينة القديمة:

عجوز ذات ملامح أفريقية هشوشة بشوشة تحب جيرانها وتفتح لهم قلبها وبيتها كما تحب أطفالهم وتودّهم بما لديها مما يسعد الطفل ويدخل على قلبه السرور والبهجة أسرت جميع سكان المدينة القديمة وأهل زنقتها على وجه الخصوص بحبها وعطائها وإن كان من يوجد يتجنبها بل ويتهمها بالسحر والشعوذة.

تقيم في بيت كبير في زقاق يطلق عليه زقاق قشور قرب حومة غريان وتقيم معها في نفس البيت عدد من الجيران كل يستحوذ على حجرة يقيم فيها مع أبنائه وزوجته ليس لخالتي عيشاتو أولاد ولا زوج بل جميع من يعرفها أو حتى يشاهدها في الشارع يحييها بكلمة أمي دون أن يسألها أحد عن زوج أو أبناء أو حتى من أين أتت؟..

يعتقد البعض أنها من السودان بينما يجزم آخرون أن تجار القوافل الليبيين قد أتوا بها من أواسط افريقيا في زمان العثماني أيام أن كان الوجهاء الليبيين يقايضون البضائع مع «برنو» والنيجر وباقي بلدان وسط أفريقيا حين كانت طرابلس خليط من الجنسيات والأجناس من عثماني عصمانللي وإلى يوناني ومالطي وإيطالي و سوداني إلخ من الجنسيات المهاجرة والمجلوبة والمطلوبة من حكوماتها واللّيبية أصلا وجذورا وفروعا ناهيك عن اليهود

الذين بلغ عددهم خمسة وعشرين ألفا تقريبا 95% منهم مقيمون في طرابلس يمسكون زمام أمر التجارة فيها والقليل في بنغازي وتوزع الباقي على مدن ليبيا في الدواخل.

هذه العجوز الأمية التي كانت لا تفك خطًا ولا تقرأ كتابًا ولا تفهم سوى لهجة جيرانها الذين يعرفونها رأيتها بأم عيني وأنا صبي صغير عام 1945م حينما أصدرت بريطانيا كتيبها الأسود الذي قسمت فيه فلسطين بين اليهود والفلسطينيين تحقيقا لوعد بلفور المشؤوم رأيتها ونسوة آخرون تقودهم في ثورة ضد اليهود الليبيين الذين هددوا بحرق دار القاضي في طرابلس متحزمة في فراشيتها تمسك في يدها ومن يتبعها من النساء الأميات الوطنيات دبابيس وشومات وقطع حديد قاصدات دار القاضي بقوس الصراري بالمدينة القديمة لحماية هذه المحكمة التي تمثل شرف الأمة وكرامتها ودينها ومثلها العليا كيف يتعدى عليها كمشة من رعاع البشر ويهددون بحرقها؟ تقول أمي عيشاتو فهي تقف في المظاهرة النسائية امام دار القاضي لحمايتهما بما يملكون من عصي تتقدمهم رافعة يدها بالسلاح التي تملكه مهددة اليهود وتعدهم بالسحق واللحق إذا ما تجرأوا واقتربوا من هذا المكان وترفض «عيشاتو» وبقية المتظاهرات ترك دار القاضي إلا بعد أن علم مركز شرطة المنطقة بالأمر في عهد الحماية البريطانية وأرسل «باتوليا « من البوليس لحماية المحكمة من تهديد اليهود.

وفي نكبة فلسطين 1948م حينما أذنت دول الغرب وأمريكا إلى إسرائيل لتحقيق الحلم اليهودي بإنشاء دولة إسرائيل على أرض فلسطين ودخل الجيش اليهودي لاحتلال فلسطين ولاقى من المقاومة الفلسطينية والعربية ما شرف أهل فلسطين اندلعت الثورة العارمة ضد اليهود في ليبيا وطرابلس على وجه الخصوص نظرا لآلاف اليهود الذين كانوا يعيشون ويملكون كل شيء بها وكانت حربا صليبية على الإسلام والمسلمين في فلسطين تبعتها ردة فعل في طرابلس ضد اليهود المناجيس شملت الرجال والشباب بل وحتى النساء اللاتي كن بقيادة عيشاتو أجرأ وأشد وأقوى هذه المرة كنا صبية خلف المظاهرات الدموية التي التحم فيها المجاهدون الليبيون مع اليهود في حرب حقيقية؛ اليهود كانوا يجهزون أنفسهم قبل الأحداث بأسبوع لأنهم سمعوا من رجال الأعمال الجواسيس أن الجيش

الإسرائيلي سيدخل فلسطين ولابد ليهود ليبيا أن يستعدوا ويحذروا من ردة فعل الليبيين – وبالفعل الليبيين – استعدوا بالماء المغلي وماء النار والحجر من أعلى السور جنوبي للمدينة القديمة قرب باب جديد قد جرح الكثيرون من الشباب الذين دخلوا الحارة الصغيرة نظرا لما يملكه اليهود من أسلحة تفوق الهراواة والعصي التي وفرتها لهم «عيشاتو» المحاربة وبقية النسوة اللاتي لا يعرفن للسياسة اسمًا ولا رسمًا وإنما ساقتهن الغيرة على الإسلام لنصرة دين محمد صلى الله عليه وسلم على الكفار اليهود الذين دنسوا المسجد الأقصى والقدس الشريف الطاهر دون شرعية أو وجه حق ديني أو سياسي ما عدا ما يتشدقون به من حق مزعوم وهو وجود هيكل سليمان عليه السلام دمروا أرض القدس كلها بالحفر تحت المسجد الأقصى والمسجد ولم يجدوا الهيكل سوى في مخيلتهم فقط.

كانت مساهمة عيشاتو في حضور المظاهرات وتزويد المتظاهرات بالعصي والمهاريس الخشبية التي تلين بها حبيبات القصب لتعمل منها كرات تكرة التي يصنع منها السحلب لفطور الصباح وكانت طرابلس وشمال أفريقيا بكل دولة يستعمل حبوب القصب بعد رحيّها ونخلها كسحلب أو عصيدة للكبار والصغار على كل سواء أن المرء يعتريه الذهول ويصاب بدهشة حقا وهو يشاهد هذه العجوز الأمية التي لا تملك سوى قوت يومها الذي تحصل عليه بعرق جبينها.

ومن التكرة التي تبيعها في باب الحرية أو للبيوت نشاهدها وهي تسير وتتقدم المظاهرات النسوية كالنمر الجامحة أو الفرس الأصيل ترغي وتزيد وتقبل وتدبر عندما يعتليه فارسها ولا فارس لدى عيشاتو سوى الوطن التي عاشت بين ربوعه وأكلت من خيره ولعقت ترابه وتحصنت بأوليائه بعد الله ثم تلفعت بوطنيها الصادقة لا تطلب من ورائها ظهور و لا ادعاء ولا تطلب جزاءًا ولا شكورا بينما غيرها من السيدات المتملقات المتسميات اللاتي كن في هذا الهدير المتماوج والزحام الصاخب بتفرج على المظهرات والمواقف الوطنية من فوق أسطح المنازل أو في الشروفات وراء الحواجز الخشبية وستائر القماش الحراري وقليل منهن واقفات متلفعات في فراريشهن متبنكات يساهمن ولو بالخروج مع المظاهرات لإلقاء زغرودة على الخطيب الذي يلعن الاستعمار وأهله وقد

تجد العذر لعدم المساهمة الفعالة للمراة في ذلك الوقت لأسباب عديدة لا تخفى على أحد من أبناء ذلك الجيل.

كانت مواقف هذه السيدة العجوز تنبع من أصل طيب و معين غير محدود من الوطنية والاخلاص، والقيام بالواجب الانساني باتجاه كل محتاج للنجدة من أيّ نوع، فإذا مرض أحد من الجيران كبير أو صغير تجد (عيشاتو) حريصة على شفائه أكثر من أهله، لا تبخل بثمن الدواء إن كانت الأسرة غير قادرة على دفعه وإذا توفي كبير في السن من الجيران تجدها في مقدمة من يقوم بواجب الوفاء حسب مقدروها، وإذا سجن أحد شباب الزقاق وليس له عائل تجد «عيشاتو» أباه، وأمه، وخاله، وعمه، تجرى في مراكز الشرطة، والمحاكم وتدفع أتعاب المحامي إلى أن يتم الإفراج عنه... تقول أنا لم يهب لي ربي بنين أو بنات لذلك كل أولاد الجيران وبناتهم لي فكيف أترك أبنائي وأهلهم قاصرين على متابعة تربيتهم والعناية بهم وكما تجدها في المدلهمات والهموم تجدها أيضا في الأفراح واللّيالي الملاح فكل ولد يريد الزواج أو بنت خطبت أو تزوجت تجد « امي عيشاتو» كما يطلق عليها سباقة إلى عطاء ما نقص من مصاريف الفرح أو الخطبة عن رضا وطيب خاطر بل تتبنى العرس وما يحتاجه من زمزامات، ووقافات، ومستأذنات وكل هؤلاء كن طوع أمر عيشاتو التي كانت أمًّا للجميع ومن جانب معاكس ترى الذين لا يحبونها ولا تنزل لهم من زور كما يقال ... يتقولون عليها ويتهمونها «بالسحر والشعوذة والتبييت» ومعناه أنها تتعامل مع الجن وحينما تطالبهم بالدليل يقولون إنها تعيش في حجرة دامسة الظلام دون أن يكون معها أنيس وهو دليل عار عن الصحة ينقصه المنطق العقل.... واكتشف جيرانها أن هذه السيدة تتوارد خواطرها مع الناس الطيبين الذين أحبوها وأحبتهم واقتربت منهم واقتربوا منها ولم يلاحظوا عليها ما ورد في أقاويلهم التي أشتم منها رائحة الكراهية لعجوز بلغت من عمرها سبعون عاماً كانت فيهم مثال الوطنية، الجيرة الطيبة، والفزعة المفرطة في الآلام والأفراح لكل الناس.

ومرت الأيام ومضت السنون وفقد الأحبة الجيران فارتحل البعض بعد أن صدع الزمن بيوتهم وتهدمت دور أخرى بعد أن وضع فيها القدر معاول الهدم ومنهم حوش»عيشاتو»

الكبير الذي عاش ردحا من الزمن غير قليل واستوعب العديد من العائلات وأخيرا وهبته عائلة الزواوي الكريمة صدقة حين ضم إلى مسجد شارع الباز الملاصق بعد أن أصبح أرضا اكتسحتها القمامة منذ سنوات عديدة وبالتحديد منذ أن ضاعت الشرعية بدأ قفز الليبي على منزل أخيه وجاره الليبي تحت مسمى القانون الذي ابتدعه الظالم المقبور وعصابته الذين خلقوا الفتنة وشعلوا نارها وأوارها بين فئات الشعب إلى أن جاء الحق وزهق الباطل بثورة 17 فبراير التي قوضت الظالم وأركانه.

وجاورت أمي «عيشاتو» سيدي منيدر منذ خمسين عاما كانت فيها امبراطورة على رعيتها بالمدينة القديمة، وأمٌّ لها كل صفات الأمومة مالك لكل أبنائها وبناتها، العاقل منهم والمجنون، الصالح والطالح الشقي والسعيد والمعربد والشيخ الصوفي كل هذه النماذج عاشرتهم عيشاتو وتعاملت معهم كل حسب فهمه وسلوكه في لحظات رضا وصفا دبلوماسية وكأنها تمسك بشعرة معاوية بين أصابعها لا تنفلت منها ولا تنقطع، غادرت الدنيا بأسرها وغادر معها الكثيرون من الأحبة رجالًا ونساءً ولكن هل يذكر أحد الآلاف من سكان المدينة القديمة الّذين غادروا هم الآخرون هذه الدنيا التي لا أمان لها؟ تضمك تحت جناحيها مدة وكأنها أم رءوم وما تفتأ أن ترميك دون سابق إنذار وكأن الذين قالوا لقد صدقوا وحين اكّدوا» أن المتغطي بالأيام عريان «ذهبت «عيشاتو» في خضم الزمن.... وطواها نسيان الناس الذين ما أسهل عليهم النسيان لكل من أحبهم مد لهم يد العون في أحلك الظروف، إنه الجحود والنكران من أصحاب القلوب التي لا تخشع، والعيون التي لا تدمع بعد أن تتذكر ما يجيش في خواطر إزاء هذا النموذج الذي أصبح في قاع الزمن السحيق، رحم الله أمي عيشاتوا التي علمتنا كيف نحب غيرنا ولم تعلمنا كيف نكره وأسكنها فسيح جناته هي وغيرها من والدينا و أهلنا وأقاربنا الجيران القدامى الذين غرسوا فينا التربية على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي استلهم منها شاعر النيل القديم حافظ إبراهيم بيت من قصيدته الخالدة:-

إنما الأمم الاخلاق ما بقيت　　　　فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

رحمهم الله جميعا ورزقنا فيهم جميل الصبر والسلوان.

حمدي صاحب المواهب المتعددة:

هو حمدي محمد أبو بكر من مواليد سبها عام 1914 م بشخصية فريدة من نوعها أسمر اللون، مربوع القد أقرب إلى السمنة منه إلى الضعف والهزال خجول ضحوك يعيش يومه ولا يهتم بعده ابن ناس عاش في طرابلس على الحلوة والمرة تعددت مواهبه فهو فنان مسرحي ملاكم محترف لعب ضد أشهر الملاكمين الإيطاليين المحترفين في نادي الطليان بجانب سينما الغزالة سابقا عام 1933م وانتصر في عدة حفلات ملاكمة على الملاكمين الطليان وهم اسكمبيل– واتشيني–اجديلادو– وجودجاردين وغيرهم ممن فقدوا قيمتهم الرياضية أمام زملائهم في ليبيا وإيطاليا ولم يكتفى بهذه البطولات الباهرة بل أخذ يحرض الشباب الليبي على التدريب على الملاكمة لكي يرفعوا عن أنفسهم ولا يتركوا الشباب الإيطالي المستعمر ساحة الملاكمة يرتعون فيها كما يشاؤون وتجاوب الشباب الليبي مع دعوة حمدي البطل فمارسوا التدريب على يديه وصنع منهم أبطالا أمثال عبد القادر جاد الله وعبد السلام القطوس رحمهم الله ودرب المرحوم «حمدي» الملاكم القدير الذي خلف حمدي فيما بعد -علي فتحي- رحمه الله الذي تخرج من بين يديه العديد من الملاكمين الذين استلموا شعلة الخمسينيات وانطلقوا بفنها النبيل لغاية 69م العام الأسود الذي تغير في كل جميل ونبيل إلى قبيح ووحشي بالرغم من أن جميع النوافذ كان مقفولة أمام الشباب الليبي فيه المعد الإيطالي الفاشستي في التعليم والثقافة والحياة الكريمة والموهبة ما عدا ثقب صغير تسلل منه نور الأمل لكي يحضن هذه المواهب التي منها «حمدي» وهي أحد حسنات العهد العثماني.

إنها مدرسة الفنون والصنائع الإسلامية التي أنشأها الوالي نامق باشا بتبرعات الأهالي ووقف الناس الميسورين وجعلت لإيواء أولاد الفقراء واليتامى من أبناء الشعب، وتعليمهم صناعة وتزويدهم بحرفة تنمي ملكاتهم في الذوق الصناعي الفني الرفيع وقد دخل وتخرج من هذا الصرح الراقي العديد من الصناعيين الحرفيين والموسيقيين المهرة الذين فادوا بلادهم على مر الأجيال... كان حمدي من طلاب هذه المدرسة حيث أمضى مدة ثمانية سنين من عام 1924م إلى غاية 1932م تعلم فيها عدة حرف كالطباعة

وتصنيف الحروف وتسفير الكتب وتجليدها والنقش على النحاس وشتى أنواع الطلاء مع الخبرة في خلطه وتنويعيه ومن أجود المهارات الفنية التي تعلمها هي الطباعة وقراءة الحروف معكوسة وتصحيح التحريف والتصحيف وبقي بها عدة سنوات ثم أخذ بمهنة أخرى هواها وأحبها بعد أن قيض له ربه معلم إيطاليًّا تتقمصه شخصية المسيح تجرد من أحقاد الفاشيين وتمسك بنبض ضميره العلمي ولم يبخل على الطلبة الذين علمهم بشيء من علمه في» الهندسة الكهربائية» وكان من ضمن هؤلاء الطالب حمدي الذي استهوته هذه المهنة فانتقل إلى عالم الخيوط الكهربائية والأسلاك والموجات غير البحرية فبدأ بإصلاح الراديو، فكل ما خنخن أو خربش أو تداخل في موجاته وتشابكت محطاته أسرع إليه حمدي يجسه كطبيب إذاعي أو مهندس للأسلاك حتى يكتشف داءه يسعى إلى دواءه و من المطبعة وتصنيف حروفها إلى مهنة الطلاء و تخليطه إلى الهندسة الكهربائية و إصلاح الراديوات وما تبعهم من معدات الكهربائية إلى أن وصل إلى باب المسرح...

ولعثمانية حمدي البيولوجية والنفسية والإجتماعية توافق كبير مع المسرح الذي يصنع فيه الممثل الأول مشخصاتي كما يطلق عليه زمان الفرح والحزن والضحك والبكاء في آن الواحد هكذا كان «عمي حمدي» يبكي ويضحك في نفس الوقت.... كما كان يميل إلى الكوميديا أكثر مما يهرع إلى التراجيديا التي تتكون من الحياة كلها كما كان يقول: وضع أول قدم له على المسرح حين كان بمكتب ومدرسة الصنائع الإسلامية في فرقة التمثيل التي أسسها و أشرف عليها الدكتور- مصطفى العجيلي-كما أشرف عليها أدبيا المرحوم الشاعر أحمد قنابة عام 1936م.

فقدمت عدة روايات ذات نكهة تاريخية مثل فيها حمدي فأجاد التمثيل من جميع جوانبه كجودة الإلقاء والبراعة في تقمص الدور والحركة السليمة على المسرح وعشقه للدور الذي يمثله وفرض على الجماهير المحبة لهذا الفن الرفيع أن تصفق له وتقول إنه ممثل «بارع وممتاز» صاحب موهبة واتجاه فني لم يجد من يحتضنهما وينميهما حتى يثمرا ويشقا طريقهما في عالم المسرح صانع الشعوب بدل أن يظميرا ويموتا بالسكتة القلبية كم أحدث في ذلك الوقت...

ولقد مثل حمدي مع مجموعة من هواة التمثيل لم يستمروا على دربه كان يذكر أسماء مثل عبدالمجيد النعاس، وأحمد البيزنطي، خيري فرحات وخليفة الغدامسي وعثمان نجيم، وعلي القروش، وبشير عريبي و فنان مصري يدعى حسن الشربيني وقد عمل حمدي فصولا فكاهية من نوع «السكتش»من اللون الخفيف الذي كان متداولا استعراضات المسارح المصرية في الثلاثينيات، وفيها من القفشات والنكات المصرية ما يغسل أدران القلب و يكنس هموم الصدر في موجة من الضحك المتواصل التي افتقدها ليس الليبيون فحسب بل حتى المصريون و الشعوب العربية التي أرخت عليهم الدنيا سدولها، وإلى جانب الروايات والاسكتشات الفكاهية عمل بالروايات ذات الطابع التاريخي الفني مثل رواية –فيروز– وحلاق بغداد– مما استمد من الروايات ألف ليلة وليلة وقد اتخذ حمدي من أيامه المسرحية الأولى بيت آل قنابة مكانًا لتدريب فرقته المسرحية، كما تتدرب فرقته بمسرح «البوليتياما» بباب البحر مكان سينما النصر بسوق الترك.

ونظر لقلة الوعي الإجتماعي نتيجة تخلف التعليم في عهد الإستعمار الإيطالي الذي كبس على الطبقة المتعلمة وحرمها من مجال تعليم اللّيبيين في النوادي والجهات الخاصة مضافًا إلى ذلك قلة العمل وضآلة الأجور، ورفض قبول اللّيبيين إلا في الأعمال الدنيا، مثل القمامة أو الحمالة أو مسح الأحذية وبالرغم من ضمانة حمدي لعيشة في ليبيا نظرا لما تعلمه من مهن تكفيه غوائل الزمن... ومع ذلك عزم على السفر إلى مصر مهاجرا واتخذ من الإسكندرية و أحيائها الشعبية مقرًا ومقاما كانت هجرته عام 1943م فاختار حي الآنفوشي «حي بنات بحري» ومن أجل لقمة عيشه ودع حياة التمثيل والفكاهة وعمل مع الجيش البريطاني في احدى المراكب الحربية حيث ضمن لقمة عيشه مع حصوله على الكثير من الفلوس من الانجليز ولكنه تساءل مع غربته الانجليزية وصخب الحياة الذي يعيشونها هل الحياة قروش وكروش؟

وترك العمل مع الإنجليز ليعود إلى الصنعة التي برع فيها وتعلمها من ليبيا وعلمه الإيطالي مهنة تصليح الراديو اشتغل مع مواطن مصري اسكندراني يدعى الحاج أمين صاحب محل كهرباء وتصليح راديوات ونجح حمدي في هذه الحرفة وفتح دكانا لنفسه في

شارع توفيق بميدان المنشية كما فتح فرعا آخر لما سماه هو (مصنعه) بحي المنتزه بالإسكندرية وظل حمدي في عالم كهرباء الموجات والأسلاك الموجبة وعالم أنواع المذياعات ثلاثة عشر عاما احتفظ بها في صدره وعقله ممزوجة بالذكريات الفنية ينثرها ويتحدث بها في سمر خاطف من زحام الحياة وأسلاك الكهرباء كان يستعرض صوره مع زملائه حين كانوا يتدربون على المسرحيات التي قدمها على المسرح البوليتاما في طرابلس في يوم تنبض فيه صورة بالحياة ويتساءل هل يذكره أصدقاؤه في طرابلس كما ذكرهم هو في دكانه محاطًا بكم من الأسلاك والراديوات بالإسكندرية وفتح الله عليه فانتقل إلى القاهرة فاتحًا بها دكانا في شارع القصر العيني ودكانا آخر في شارع سعيد الأول بشبرا قرب ميدان مسرة.

كل هذه الفترة التي عاشها في الإسكندرية والقاهرة لم يرتبط (حمدي) بخيوط الفنان التي كانت في مصر قاعدته في العالم العربي كله وأن لحمدي خلفية واسعة فيها غير أنه كان لحمدي صديق مصري يدعى عبد الحميد بدوي ممثل مسرحيا و يعمل في المجال السينمائي كان يسافر في بعض الأحيان خارج مصر تصاحبه في رحلات مجموعة من الفنانين والفنانات المصريين زارت طرابلس في عهد الإيطالي وقدمت بعض الأعمال الفنية في فرقة مدرسة الفنون والصنائع تحت إشراف حمدي والرابطة الفنية بين الشعبيين العربيين الشقيقين في العهد الإيطالي، الذي يؤرقه اتصال العروبة ببعضها في أي مجال ولو كان فنيًا أو رياضيًا.

توطدت صلة حمدي بعبد الحميد بدوي حيث ألقى حمدي لونًا من الفاكهة والاستكشات من تأليف عبد الحميد كما استمر في لعب الأدوار الكوميدية وأحب اللون الفكاهي واستمره حتى كان فلسفته فيه « أن الانسان يدخل المسرح يتفرج و يفرج على نفسه أوّلًا وتصيبه الكوابيس» وعرف حمدي بشخصية فكاهية مسرحية لبسته وألبسها حتى الناس نسيان اسمه الحقيقي المسجل بشهادة ميلاده هي الشخصية»عثمان عبد الباسط «دور الخادم السفرجي وهو تقليد للممثل الفكاهي المصري الفنان «علي الكسار» والله إن هذه الشخصية المسرحية بظروفها وملابساتها ليس مكانها طرابلس لأنها لم تكن موجودة في المجتمع الليبي ولكنه تقليل من البعيد ومن القريب والداعي

للدهشة أن حمدي الممثل الذي سار على درب علي الكسار ولم ير في حياته علي الكسار ولم يدخل لمرة واحدة إلى إحدى مسرحياته، والأغرب من ذلك أن علي الكسّار عندما كان حيا يرزق و يمثل كان حمدي يقيم في دكاكينه ومحلاته بجانب المسرح الذي يمثل فيه و لم يشاهده.

وما إن عاد حمدي من مصر إلى وطنه عام 1956م حتى حين دفعه الحنين القديم إلى إعادة مسيرته الفنية بعد انقطاع طويل، فعمل في الفرقة الوطنية للتمثيل ثم خطر له أن يعمل مؤلفا مسرحيًا فتوكل على الله وكتب مسرحية (طيش الشباب) ومسرحية «طريق الشيطان» وعمل معه الفنان حسن المصري الذي كان مُبعدًا سياسيا من الإسكندرية وبقى في ليبيا أكثر مّما بقي في مسقط رأسه كما مثل معه إحسان عزيز وآخرون بعضهم استمر والبعض الآخر توقف.

وعندما أنشأ نادي العمال في طرابلس عام 58م عمل له حمدي قسمًا للملاكمة واشترك معه السّيد فؤاد الكعبازي الفنان الرسّام في عمل الديكور للمسرح في نفس النادي وكثيرًا ما كان حمدي يتردد على مسرح «الميراماري» ليشاهد المسرحيات الإيطالية الفرق المسرحية الأجنبية التي تزور طرابلس تزوج «حمدي» في الإسكندرية بزوجتين عام 47-48 طلقهما بعد أن اكتشف بأن إحداهن سليطة اللسان وخريجة مدرسة الاستعراض اللساني واليدوي والثانية رفضت العودة معه إلى بلاده.

لم يخلف مع طليقتيه صبيان أو بنات لأنه فضل العيش في ثبات ونبات وآثر هذه الحياة الخالية من المشاكل كما رفض أن يكون له خلفا ولا وارثا، في عام 68 إلى 71م غامر بالزواج مرة أخرى وهو في آخر شوط المسير من امرأة في الخمسين من عمرها حماها وهي في صقيع عمر غير أنها كافأته برفض العودة معه إلى سبها بفزان أرض الجنوب وكأنها لا تريد الغربة لو داخل الحدود فما كان منه إلا أن أعطاها حقوقها الشرعية وطلقها.

وعاش بقية عمره عازفا عن الزواج إلى أن توفاه الأجل في سبها بالجنوب كان رحمه الله يهوى الرسم و يعزف على الآلة النحاسية الكبيرة (الطربول) وفي نوفمبر 1978م ودّع عمي حمدي الحياة بسبها جنوب ليبيا بين أهله وقرابته، ولي قصة مع عمي حمدي رحمه الله فبينما كنت أعمل في القاهرة أجريت عملية الزائدة في مستشفى الشبر أويشي وفجأة دخل عَلَي المرحوم البدري مفتاح رفقة عمي حمدي الذي كان يشتكي من مرض البروستاتا، عُرِضَ على الطبيب الذي طلب منه إجراء التحاليل والكشوفات اللازمة لتشخيص الحالة ووافق حمدي على إجراء كل ما طلبه الطبيب ما عدا الكشف على «البروستاتا» الذي رفضه بشدة ورغم محاولات إقناعنا له وإصرار الطبيب آنذاك على إجرائه وإصرار مضاعف لحمدي بعدم إجرائه وعاد إلى الوطن دون علاج كان تاريخ هذه القصة 1977م رحم الله الفقيد عوضنا فيه خيرا .

ومن الشخصيات العديدة بالمدينة القديمة عمي «جمعة الحاراتي» وشيخ عبد الرزاق الحاراتي والشيخ الدعبوب، والحاج محمد العايب هؤلاء جميعا أصحاب دكاكين بقالة يعمرها القرآن الكريم فما من يوم أو ساعة تدخلها لتشتري منهم شيئًا إلا وتجد أصحابها يتلون في كتاب الله من الصّباح إلى المساء دون كلّل أو ملّل حدث أن جاءهم أحد لشراء بعض الاحتياجات تجدهم يقومون بسرعة البرق يناولونه ما يريد و يرجعون إلى مصاحفهم يحفظونها ويعودون إلى السورة لتكملتها وهذه حياتهم و كما عشناها وعرفناها عنهم رحمهم الله جميعا وجعل لهم القرآن شفيعا عند ربهم.

وأحد منهم عمي جمعة كان أكبرهم سنًا يبلغ الثمانين من عمره أبيض اللّحية لين الكلام مع الأطفال والصبية الذين كانوا يشترون منه الصبغة الحمراء والصفراء ليلونوا بها العاشوراء التي يبيعونها ولعلّه أفقرهم مالاً حيث أن دكانته التي تبيع الحطب التي توقد في بعض الأسر نيرانهم ومقاش ومكانس ومراوح السعف الذي تستعمل في الصيف لطرد الحرارة وأشياء أخرى بسيطة يشتريها الأطفال في لعبهم كالزرابيط، والبتش، وحلوة الحمص وبالرغم من حصوله على القليل من الكسب من دكانه، ولكن حمده وشكره لله دائما في مقدمة الأشياء قد يسّر له الله تعالى خليفة متمثلة في ولد اسمه محمد كان بارا

بأبيه إلى أقصى الحدود حيث أن عمي جمعة قد توفت زوجته وليس له أولاد أو بنات يعولونه فقد كان محمد البار هو الحضن الدافئ لأبيه، وزاد عطاؤه حينما مرض والده ولازم الفراش كيف كان يأخذه إلى الحمام ينتظره ثم يقوم بواجب غسله وتطهيره وتحميمه إذا لزم الامر ثم يطعمه ويسقيه ويبقى بجانبه إلى أن ينام وينام هو بعده، وفي الصباح قبل ذهابه إلى العمل يقوم بواجب إفطاره وعند عودته من العمل يطعمه ويسقيه واستمر على هذه الحالة مدة طويلة قبل أن ينتقل إلى جوار ربه ليلحقه إبنه بعد مدة قصيرة رحم الله عمي جمعة ومحمد إبنه وجميع الصالحين (امين).

ومن شيوخ تحفيظ القرآن الكريم الذين تركوا بصماتهم على المدينة القديمة ورجالها نذكر:-

الشيوخ محمد الطويبي وعلي الزرقاني، والزنتاني، ومختار قنور ومحمد البزنطي، ومختار حورية، ومحمد بابانى وغيرهم رحمهم الله جميعا وكان دورهم محفوظًا ولامعًا في تأصيل القرآن في قلوب الشباب الليبي لمقاومة الغزو الإيطالي وما جاء به من بدع غريبة بعيدة عن الدين والأخلاق الإسلامية فوقف له هؤلاء الفرسان بالمرصاد حيث رغبوا الشباب بحفظ القرآن والمحافظة عليه وتطبيقه في حياتهم وتعليمه لابنائهم حتى تحافظ ليبيا على دينها وتبقى دولة مسلمة كما أراد لها الله تعالى وبالفعل فقد نجحوا في مساعيهم الطيبة وجذبوا بلادهم مخاطر الغزو الإيطالي الثقافي الغربي الذي يعد من المصائب التي حلت بدوَلِ الشمال الأفريقي المجاورة.

من شيوخ الفقه والصوفية نذكر:

الشيوخ عمر الجنزوري وقد تحدثنا بشيء من التفصيل في مكان من الكتاب، والشيخ المصراتي، أبوشعالة وكراتي والعالم وعلي سيالة وقد أشرنا له في السّابق في هذا الكتاب، والمسلاّتي والشيخ علي خضر بالكرامات وسيد البلبالي الذي يعتبر من أصحاب الكرامات البائنة التي رواها عنه المعاصرون له حيث سمعنا منهم القصة التالية:-

«خلال الحرب العالمية الثانية الذي دار رحاها في العالم وليبيا أحدى الدول التي كانت فيها القوات البريطانية قصفت الطائرات الألمانية مدينة طرابلس يومًا وكان جمع من المصلين يحتمون بأحد المساجد كان من بينهم الشيخ البلبالي وقبل أن تنزل القنبلة من الطائرة على المسجد نبه المصلين إلى التوجه إلى جهة آمنة من المسجد وما إن توجّه المصلون إلى الجهة الآمنة التي أشار إليها حتى سقطت القنبلة في نفس المكان الذي كان فيه المصلين ونجوا من الكارثة بفضل الله تعالى، وقد ذكرتني هذه القصة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنما المؤمن الحق يرى بنور الله» صدق رسول الله.

وقد وافاه الأجل رحمه الله الاستقلال بسنوات قليلة، وترك في قلوب جيلنا ذكرى لا تنسى منها أننا كنا صبيان المدينة القديمة ونحن نقرر في أي مكان نتجول من باب الحرية على وجه التحديد لابد أن تمر على المكان الذي يجلس فيه الشيخ فنجده رحمه الله وضعا رأسه على جهة اليمين متكئا على كتفه الأيمن بين يقظة ومنام سابلًا يديه على ركبتيه نقف جميعا الواحد خلف الآخر يأخذ أولنا بيده اليمنى فيقبلها ويضعها في مكانها ويأتي الآخرون ليفعلوا ما فعله الأول وهو نائم لا يشعر بما نفعل، وبالملاحظة نرى أن «رياقته» تسيل من الجانب الأيمن لفمه، وكان جميع أصحاب المتاجر بباب الحرية يتفاءلون بمرور الشيخ البلبالي عليهم، كانت احدى عائلات المدينة المحترمين يستقبلونه في بيتهم ويهتمون بشئونه حيث أن لا أسرة له ولا زوجة ولا أولاد وعرفت عنه عزة النفس فهو لا يقبل مالا من أي كان وللأمانة أقول أنني لم أشاهد هذا الشيخ يتحدث مع أحد من الناس إنما كان جل يومه سابحًا في ملكوت الله.

وفي هذا الصدد لا يفوتني أن أذكر إحدى العائلات التي أكرمها الله بحفظ القرآن الكريم عملت بتعاليمه وطبقته عمليًا في حياتها سلوكًا، ووجدانا وعبادة أسقطت ذلك السلوك والعبادة على أبنائها وأحفادها حتى اشتهرت هذه الأسرة المثالية بعائلة القرآن، ولقد عرفنا منهم المعملين في كتاتيب القرآن وخطباء الجمعة، و الوعاظ والعاملين في أغلب مجالات الدّين وقلّما تلاحظ من آبائهم وأجدادهم القدامى من لا يتلو آيات الله في كلّ وقت وحين، وحتى وهو يمشي في الشارع يلتقط من الأرض قصاصات الورق

وصفحات الجرائد الملقاة يلتقطونها حتى من القمامات فربما تكون فيها أية من القرآن أو كلمة تحمل اسم الله ملقاة على الأرض دون قصد بالطبع على أن المسلم الحق لا يرضى بأن يرى كتابة فيها اسم الجلالة ملقاة دون أن يحني هامته ليلتقط هذا الاسم الجليل من الأرض ويتصرف في حفظه بالوسيلة اللائقة، إن هذه العائلة وشيوخها الأفاضل كانت قدوة لكل مؤمن بالمدينة القديمة حتى لو تصور أحد من قصارى النظر أن هؤلاء عائلة من الدراويش إنها عائلة البزنطي الكريمة رحم الله منهم الخلف والسلف.

الأم اللّيبية

ومن الشخصيات اللّيبية فيها التي تستحق الذكر والإشادة بها «الأم اللّيبية» التي كانت شعلة وضاءة في بيتها تقوم بأعباء البيت كلها، من غسل وكنس وتنظيف علاوة على مشاكل الأطفال من تربية ورضاعة وغيرها، يضاف إلى ذلك الاهتمام بزوجها وشؤونه الخاصة، وتزداد أعباء الام وتضاعف مشاكلها إذا توفي الزوج أو أصيب بعاهة تقعده عن الحركة فتصبح الأم رجلاً وامرأة في نفس الوقت وكم من أمهات مات أزواجهن وتركوا لهن البنين والبنات فغزلن الصوف وقمن بحياكته، وكم من زوجة منهن عملت في تنظيف المصالح الحكومية تكنس الأرضيات، وكم من أمهات خدمن في بيوتهن أعمالا شتى الدُوَارة والصّباغة كأجيرات لصناع «حوالي» الحرير النساوية وحوالي الضامة وحوالي القطن وغيرها من الأعمال التي تكسب منها قوت أطفالها الصغار البنين والبنات الذين تركهم لها الزوج ورحل، وكم كانت النتائج باهرة بحق إزاء هذه التضحيات الجسام اللاّتي قامت بهن الأُمهات بعزم وإصرار فاقا حد الخيال حتى بلغ إبنائهن مبلغ الرجال، واستطاعت هذه الأم الأمية أن تصنع المعجزات حين تتخرج من مدرستها المعلمة والمعلم والطبيب والطبيبة والمهندس والمهندسة علاوة على أصحاب المهن الحرة الذين ذاقوا اليتم وشظف العيش حتى الصعود إلى قمة الهرم الإجتماعي والمالي ببركة دعائها ونير أفكارها التي أشارت بها عليهم ونجحوا في تطبيقها فأضحوا من كبار التجار وأصحاب الشركات بل كبار الأدباء والشعراء والكتاب الذين عاشوا يتامى الأب وعوضهم كفاح الأم وحنانها و دعاؤها إلى الله تعالى أن يساعدها على تحمل هذه المسؤولية الكبيرة التي ألقيت على عاتقها واستجاب الله لدعائها ونجحت أكثر من الرجل في مساعيها الحميدة وأقسم بأني عرفت أطفالاً كانت أمهاتهم كفيفات البصر ومنهن القاعدات لا يتحركن إلا مردًا أضِفْ إلى ذلك الأمية التي كانت تعصف بالمجتمع الليبي آنذاك وخرَّجْن من مدرستهن البيتية أروع الرجال دينًا وخلقًا ومروءة وعلمًا - سبحان الله على ما أخذ وسبحان الله على ما وهب وأعطى.

ومن هذا المنطق يلح علينا سؤال يطلب الإجابة يقول:

هل أمهاتنا أولاء يستحقون منا التكريم كما تكرم دول العالم الأخرى عربية وغير عربية أمهاتهن اللاتي ضحين بالغالي والنفيس في سبيل تربية أبنائهن دون أن يمررن بالظروف الصّعبة جدا التي صادفت المرأة اللّيبية؟ إننا نقرأ ونشاهد ونسمع من ما تحظى به الأمهات العربيات من تكريم ليس على مستوى المجتمع المدني فحسب بل على مستوى الدولة أيضا فهل سمعنا يومًا أن الأم اللّيبية قد تم تكريمها ماعدى مستوى ضيق جدًا كدُور الرعاية أو الملاجئ لبعض من ضحك عليهن الزمن من الأمهات اللّاتي رمينهم أولادهن العاقين في دور الرعاية ومراكز إيواء أخرى، فهل نحن شعب تجرد من الذمة والضمير؟ أم أننا دونما النظر إلى امور هي أسمى وأكبر ألف مرة من جمع المال و إهداره من غير طاعة الله تعالى دون حتى مجرد الالتفات لوالدته المريضة التي هي في حاجة إليه»هو« لا لماله الذي تسببت هي فيه وهي محتاجة إليه لكي يواسيها ويتحدث معها ويخفف عنها آلامها وأشجانها قد يكون يعلم ولا يعلم - فإن ربك لبالمرصاد - لأمثال هؤلاء العاقين بأمهم، أو أبويهم فيتصوروا بأن المال القليل الذي يغطي به احتياجاتهما أو الذي يرميه لهما ويخرج سوف لا يساوي رفسة من رفساته المتعددة والمؤلمة في بطن أمه، أو دمعة فرح يذرفها والده حينما يخرج إلى النور فرحة به أوعند مرض حين تدعو جميع جوارحه إلى الله بشفائه.

ومجمل القول أن حضن الأم، ودغدغت حواس الأب بالكلمة الطيبة الرحيمة كلّها لا تساوي أنهر العطف والحنان التي غمرونا بها ونحن أطفال أو صبيان إلى أن أصبحنا رجالاً أمرنا الله أن نعمل بها وهي واجبة التنفيذ شرعًا، فعلى كل رجل وولد وابنة أن يولوا أمهاتهم وآباءُهم الأهمية القصوى في التعامل بالكلمة الطيبة والمال الحلال في تلبية حاجياتهم دون تأخير و أن يجعلوا كل أيامهم عيدًا للأم والأب إذا ما بخل عليهم المجتمع بالعيد المثاليّة التي أقرتها الحكومات العربية والأجنبية كل عام.

عمي علي الجمل و النوبة في رمضان:

ومن الشخصيات الجديرة بالتعريف «علي الجمل» وأخوه (ميلود) وهما أخوان الأول كفيف البصر لكنه فنان في الضرب على «النوبة» وهي طبلة كبيرة الحجم تحمل على الظهر بعد شَدِّهَا بِسَبَت من الجلد حتى يتمكّن العازف من حملها معه يدق عليها بعصاً مصنوعة لهذا الغرض، وتستعمل هذه النوبة كثيرا في المناسبات والأعراس والمهرجانات الاستعراضية ببلاد الشام ولبنان وقد شاعت «النوبة» في جميع بلدان العالم شرقًا وغربًا في البلدان التي وضعت الامبراطورية العثمانية سلطانها عليها وترسخت في هذه البلدان حتى أضحت ثقافة دخلت في موروثها الحضاري .

في ليبيا وعاصمتها ومدنها الكبيرة ظهرت»النوبة» في الزوايا كحجر أساس في نوبات الفن وخاصة عندما تخرج الزاوية في يوم (الميلود) لابد لها أن ترافق أخواتها الأخريات كَالطَّار، والجُل، والنَقرَةِ، والبَازة والغيطة التي تُكمّل النوبة، ولأهميتها بدأت تستخدم في العديد من المناسبات كحمّام العروسة بالنوبة وزفة العريس بالنوبة، وكثير ممّن يستخدمونها في كثير من المواضع العامة والخاصة.

كان عمي علي الجمل رحمه والله وأخيه ميلود الذي يقوده إلى منازل المدينة القديمة المعروفة أبًا عن جد باسم العائلة، وليست كل المنازل التي سكنها أُناس جدد لا يعرفهم فقد كانت المدينة القديمة عبارة عن أسر معدودة ومعروفة قبل أن ينزح إليها الناس من كل مكان وضاحية لتصبح مصدر رزق لهم.

يأتي عمي علي وأخيه قبل موعد السّحور بقليل ليغازل أهل البيت بكلمات عثمانية جميلة يدعهم فيها إلى القيام للسّحور ويتمني لهم يومًا جديدًا في الشهر الكريم، ويناشد ابنهم الكبير الذي يطلق عليه «بي افندم « وإن نسيت فلن أنسى تلك الذكريات الجميلة – في الخمسينيات و هو الزمن الذي كانت فيه شوارع وزقاق المدينة القديمة تعش في ظلام دامس ما عدا بؤرة الضوء التي تشع من فنار عمي ميلود الجمل.

حين كان يسير خطوة بخطوة مع أخيه علي وهو يعزف لحنه المميز حين يقول بالكلام العثماني:-

(شِيشَا قَالدِين، شِيشا تالدِين)

عَبدُ الله سون ماذا قالدين بم بوم بم (نوبة).

إيكي كوزِين بي نأُفندم... الله يبّارِك ويِسَلِم بم بوم بم (نوبة) تخرج هذه الكلمات سهلة سلسة توافق دقاته التي تأخذ بالألباب على «النوبة» فتضفي على سكون اللّيل ذاك نوع من الفرح والسّرور تختلطان بالمشاعر المتهيأة لاستقبال وقع تلك الكلمات على النفس دون أن تدرك معناها بالرغم من إلحاحها في البحث والسّؤال على من يعرفها لكي تترجم وليفهمها القارئ عدا الجملة المفهومة» الله يبارك ويسلم «ويستمر هذا الرجل وأخيه يجوبان المدينة القديمة بيتا، وزقاقا، وشوارع حتى آذان الفجر، وقد جمع عمي علي بيوت المدينة التي يرتادها، قسّم عليها الأيام التي يزورها في شهر رمضان إلى يوم العيد حيث كان الأطفال وعائلاتهم ينتظرون قدومه هو وأخيه وفي الغالب كان يتبعهم أطفال كثيرون مُعجَبونَ بنوبة عمي على وما يقوله فيها من كلام لا يفهمه سواه، يأتي للبيوت التي زارها خلال شهر رمضان فقط كالعادة فتكرمه العائلات بالمال والحلويات ومنها من يهدي له ما هو أثمن من ذلك وبقيت هذه العادة سارية حتى انتقال عمي علي إلى جوار ربّه ثم لحق به أخوه بعد مدة قليلة لتنتهي هذه العادة التي عاشت منذ العهد القرمانلي إلى عهد استقلال ليبيا.

وما بعده بسنوات قليلة ولم يخرج بعدهما أحد يؤدي نفس المهمة إلى حد الآن رحمهما الله.

الطبيلة:

هو رجل يمسك الطبلة يدق عليها مخاطبًا النائمين القيام «للسّحور» عادة كانت في سياق العادات العامة في المدينة القديمة وخارجها مثل شارع بالخير، وميزران و شارع زاوية والظهرة وفشلوم وزاوية الدهماني كل هذه المناطق أرضعتها الأم الرؤوم المدينة القديمة التي سكن بين جنباتها وفي قلبها كل العائلات اللّيبية قبل البناء والتوسّع الذي حدث بعد استعمار الطليان لليبيا وبعد إجراء الإحصائيات السّكانية ونظرتهم الفاحصة للضرورة في التوسّع خارج أسوار المدينة القديمة قد بدأ التوسع ببناء الشارعين بلخير وميزران .... فيها قطعان الطليان وعائلاتهم.

علي الفزاني وعصيدة على بطنك:

هو من الشخصيات الهامة التي لها وجود في المدينة القديمة رغم أنه يسكن في منطقة الظهرة لكنه كان مقيما مع ابنته بالمدينة القديمة أسمر اللّون ذو شخصية جادة ومحترمة لِبسُه أبيض في أبيض السروال أبيض يتوسع من الحزام ويضيق عند الأرجل كل رجل من رجلي السُروال تدخل في جورب أبيض طويل ثم يحتضن الجوربان حذاء رياضي أبيض لِكُلِّ رجل ويحزم وسَطه برباط صوفي أحمر يطلق عليه بالعامية «قشطة» وسرت العادة أن القشطة لا يتحزم بها إلا «القبضايات» ربما يكون «عمي علي» منهم أما رأسه فكانت تغطيه طاقية حريرية وكان عمي علي هذا يصنع في حلوته بنفسه وهي ناصعة البياض محورها السّكر وبعض العقاقير الأخرى وبعد الانتهاء من إعدادها يضعها على رأس العصا النظيفة جدا المخصصة لحملها إلى زقاق وشوارع ومدارس المدينة القديمة فكان جميع الأطفال بل وحتى الكبار يتهافتون على حلوة عمي علي التي هي أجود من اللّوبان وأحلى من أي حلوة أخرى، وبعد أن يستلم منك المبلغ الذي تريد شراء الحلوة به يعطيك حقك ثم يضيف لك قطعة صغيرة أخرى ويقول «عصيدة على بطنك» وسمي منذ ذلك الوقت (بعَلي عصيدة على بطنك).

ومـن الباعة المتجولين في المدينة:

الصادقية... وكان يبيع الفول القرماشى في الشارع ماشي وبجانب المدارس علي التومي... وكان يبيع الحمص المطبوخ لأولاد المدارس عند خروجهم منها.

أحمد عبد العزيز.... رجل كفيف البصر كان يجوب أرجاء المدينة كلها امامه صندوق خشبي مستطيل الشكل مشدود بسبتة في رقبته الصندوق مقسّم إلى مربعات في كل مربع يوضع جزء من المكسرات التي يبيعها وفي جهة الصندوق الملاصقة لصدره فتحة يدخل منها يده ليزود الشاري بما يريده من الكاكاوية والحمص وحب العزيز والقضوم والفول وغيرها بعد أن تصهد في الكوشة وكان عمي أحمد ينادي على بضاعته «هيا يافول يا كاكوية وياقلوب ويا قضوم وياحمص ويا حب عزيز».

دراويش المدينة القديمة:

ضمت المدينة العديد من الدراويش، وأقصد بكلمة درويش رجل يسبح في ملكوت الله لديه شيء من التخلف العقلي غير الضار لغيره من الناس قليل منهم من كان له أهل والكثير منهم تكفلهم أسرة كريمة تحب الله ورسوله إلى أن يتوفاهم الأجل، ليس لهم عمل رسمي سوى البقاء مع أصحاب الدكاكين يقومون ببعض الأعمال البسيطة مقابل أجر بسيط يصرف منه الدرويش على نفسه في أموره الشخصية اما أكله وإقامته فعلى الأسر التي تتكفل به منذ طفولته إلى أن يصبح رجلًا وإذا أراد الآنفصال عن الأسرة التي أشرفت على تربيته فله الحق في ذلك وإذا ما أبدى استعداده للزواج بعد التيقّن أن مَرَضَهُ لا يؤثر على هذا الزواج فإن الأسرة نفسها التي ربته هي التي تتكفل بكل المصاريف والإشراف على الزواج وكأنه ابنهم الذي من صلبهم وتختلف نسبة الإعاقة عند هؤلاء الدراويش كمًّا ونوعا فمنهم عَيّ الفهم ومنهم العيّ في الكلام.

منهم الأبكم والأصم، ومنهم كفيف البصر ومنهم المتأتأ في الكلام وتختلف بينهم نسبة الفهم أيضا فمنهم الذكي اللّماح ومنهم متوسط الفهم أو عسيره ولابأس أن نذكر بعضهم.

1. عنان دولة ومعاها الجرمان:

وعنان كان أسير عند الألمان في الحرب العالمية الثانية أعتقد بأنه يمني الجنسية جاء إلى طرابلس بعد الإعفاء من الأسر وعاش بالمدينة القديمة قرب سوق الحوت ينام على أبواب السّوق يأكل ويشرب، ولا يعمل ليس له سوى مساعدة أصحاب الدكاكين في إخراج وإدخال بضائعهم منها وإليها كان الشباب يأتون إليه خصيصا ليخرجونه عن حالته المألوفة فصيحون عن بعد «تيت عنان» مرتين أو ثلاثة فيقفز الرجل من مكانه قفزة رياضي محترف يقفز، ويصرخ ويرمي بيده «شومة غليظة لو أصابت أحدًا منهم لقتلته، ثمّ يجري خلف ذلك الجمع من الشباب ولسان حاله يردد «دكن مكن ماكوا» يجري ويقذف تلك العصا والناس تنتظر نهاية الموقف ومن لطف الله أن شومته لم تصب أحدًا وبعدها نقل الرجل إلى مستشفى الأمراض النفسية ليكمل بقية عمره فيه.. رحم الله عنان دولة ومعاها الجرمان أي»الألمان».

2. عبد السلام التاجوري (إشكيري):

هذا الرجل ابن المدينة القديمة كلها بيوتها ومتاجرها ومقاهيها فالكّل يعرف اشكيري ويرحب به رجال ونساء بل حتى الأطفال والشباب المشاكس فقط يكرهه إشكيري حين يصرخون عليه مجتمعون «إشكيري مات»، «إشكيري مات» فيصب عليهم جام غضبه ويلعنهم وسنسفيل أجدادهم ولكنه لا يجري خلفهم كما يفعل عنان وعرفت بيوت المدينة القديمة إشكيري لأنه كان يقضي حاجة ربات البيوت اللاتي ليس لهن أولاد ليرسلونهم للدكان لشراء بعض الاحتياجات اللآزمة لكل يوم والمئونة زمان كل يوم ويومه لا يوجد في الدار إلا حكة زيت، ولا فلفل وطماطم يدوم أسبوع بل كل يوم ويومه، وهذا ما كان يقوم به إشكيري رحمه الله .

3. عرادة وسيارته:

أما عرادة فهو أصغر هؤلاء الدراويش سنا وكانت والدته ترعاه رعاية فائقة في صغره وحين بلغ مرحلة الشباب خرج إلى الشارع يلعب امام البيت تحت رعاية أمه لكنه كثيرًا ما كان يتوهم بأن لديه سيارة يقودها ويهرب من مراقبة أمه إلى أن يحضروه لها،

وهكذا عاش وعاشت معه وبه أمه إلى أن تركا المدينة القديمة دون أن يدري أحد أين حل بهما المقام .

4. علي بي. ملحُ المدينة القديمة:

صدق من قال أن الأكل بدون ملح «لا يُستساغ» وأن المدينة القديمة بدون «علي بي « لا تطاق فهو مَلِك الجلسة، وهو النكتة الفوارة وهو الحكاية ليس في المدينة فحسب بل في طرابلس وشوارعها وملاعبها القديمة مثل الملعب البلدي لكرة القدم أو ملعب رجب عكاشة الذي تقام جميع الأنشطة الرياضية عليه وفي دورات المعارض الرياضية التي شهدتها مدينة طرابلس في الستينيات وكانت بمثابة أولمبياد مصغر جرت فيه كل الألعاب في عصر ليبيا الذهبي وفي ظل رجل الرياضة ونشاطاتها آنذاك الأستاذ الدكتور علي يحي المنصوري ضحية القذافي وأزلامه حين اعتقلوه في بيته في إقامة جبرية أودت به إلى الموت من القهر والغبن والظلم الذين أصابوه من زمرة مجرمين لا شفقة لديهم ولا رحمة جزاهم الله شرّ أعمالهم ولطخ الشباب الرياضي تاريخهم بالخزي والعار.

كان «علي بي» مدمن في مشاهدة مباريات الكرة التي ينافس فيها المنتخب أقرانه من الدول العربية أو المالطية على أرض الملعب البلدي ملتقى أجيال الأربعينيات والخمسينيات حتى منتصف الستينيات حيث خبأ نور هذا الملعب العتيق بعد هذه المدة بعد أن تنافست على أرضه أقوى الفرق المحلية والدولية وعاش فيه رياضيو هذه المراحل ومشجيعوهم أجمل أيام عمرهم وأروع ذكرياتهم غير أنه أهمل في عصر الظلام الذي جثم على قلوب الليبيين في 1969م.

حظر علي بي أواخر العهد الإيطالي حيث كان أحد أفراد «الباليلا» أي الكشافة الإيطالية وكان أحد ابناء مكتب الفنون والصنائع حيث فرضوا على طلبة هذا المكتب حفظ خطابات موسيليني بكل تشنجاتها وما يرافقها من انفعالات وتفاعلات حتى أن بعض المجيدين للغة الإيطالية يثنون عليه حينما يتحدث بها ومن طرائف علي بي أنه سجن أيام الحاكم العسكري الانجليزي «بلاكلي» وكان يقوم بزيارة لسجن «بورتا بينيتو»

الحصان الأسود وكان في طأبور المستقبلين من السجناء علي بي الذي لفت نظر الزائر الانجليزي بشعره الغزير الأسود وقصر قامته ووجهه الذي يختلف على وجوه وسحنة اللّيبيين وسأله الحاكم الانجليزي من أين أنت فأجابه هذه بلدي ليبيا وأنت من أين أتيت فتسبب في إحراج الحاضرين المرافقين للحاكم العسكري، وأرادوا أن يتخذوا إجراء تأديبيًا ضده ولكن الانجليزي رفض عقوبته أو مؤاخذته على ما تفوه به من كلام أكدّ وطنية المرحوم في وقت كانت فيه ليبيا تحت وصاية الانجليز وكان الكلام ضدهم فيها يكلف قائله الكثير.

ومن نكات علي بي الزوية أنه سافر إلى القاهرة مع صديق له كان كريم العين وبعد مدة شهرين وهما في القاهرة لا يسمعان سوى كلمة بيه وأستاذ وغير ذلك من الألفاظ التي تدخل الفرح والسّرور على قلب ومشاعر المتلقي ويقول علي بي في روايته أننا عدنا إلى أرض الوطن في تاكسي وكان زميله نائمًا اجتزنا الحدود المصرية ووصلنا الحدود اللّيبية ففوجئنا بأحد شرطة الحدود يقول لنا انزلا من السيارة وخاطب زميلي قائلا «وانت يا لعور « قم من النوم وانزل من السيارة وإلا ما زلت تحسب نفسك بية، باشا ويقول علي بي هنا علمت أننا وصلنا إلى بلاد الغوال والأهوال وعدم الإحترام وهكذا كانت ليبيا في عهد القذافي وأزلامه.



خروج الزاويا

الفصل السادس

جولة ومقاهي:

زار الرحالة ليبيا وطرابلس بالذات ووصفها أرضًا وزرعًا وبساتين تزخرف بشتى أنواع الفاكهة والورود والريحان وغيره وأثنى أغلبهم على ما شاهدوه من حسن ضيافة وكرم وشد بعضهم بالنقد والتجريح على التعليم والمعرفة ووصف أهلها بالضحالة الفكرية والجهل والسطحية في التعامل مع الآخرين ولكنهم جميعًا أشادوا بمنطقة باب البحر ومنظرها الجميل ونسيمها العليل، وموج البحر الذي يتكسر على صخورها، ثم وصفوا مينائها والقوس الروماني الأثري الذي يشهد على عظمة روما القديمة وما سجله التاريخ لها في إطار أساليب الحكم، والتطور الفكري والفني في شتى أمور الحياة.

ولا بأس أن نصحب القارئ الكريم في رحلة تاريخية قصيرة تبدأ من القوس الروماني الذي أطلق عليه العامة «مخزن الرخام» مرورًا بالعديد من الشوارع النافذة إلى داخل المدينة القديمة غربا وشرقا وجنوبا حيث نلتقي بالعديد من الآثار القديمة من مساجد وأضرحة للأولياء، ودور العلم من كتاتيب وخلاوي وزوايا وهو ما يكبدنا مشقة الوقت الذي لم يتوفر لنا سوى في عجالة نبدأ بها من القوس أو مخزن الرخام حيث استقرت جميع القنصليات الأجنبية في زقاقه التي سميت بأسماء دول هذه القنصليات فمثلا زنقة اسبانيول توجد بها قنصلية اسبانيا وكذلك زنقة فرنسيس بها قنصلية فرنسا وكذلك قنصلية بريطانيا وايطاليا التي أخذت اسم البندقية لقنصليتها وبعض القنصليات لدول أجنبية أخرى لها علاقة مع الدول العثمانية، ثم نشاهد المسجد العظيم الذي بناه ريس البحر مصطفى قرجي وندخل على هذه الزقاق النافذة جنوبا لنجد أنفسنا أمام ميدان السيدة مريم حيث توجد كنيسة للأجانب المقيمين خارج أو داخل المدينة كما يصادفك المتحف القديم، وفي نفس الموقع تجد إلى الشمال قليلا الحمام الكبير التي سمي بحمام درغوت باشا حيث يوجد مسجده العتيق وقصره الملاصق للمسجد ولم يعد موجودا الآن ومن خروجك من جامع درغوت إلى الشارع الرئيسي المقابل للبحر تحيد يمينا حيث تصادفك المباني التي كان يسكنها العاملون في السلك الدبلوماسي المواجهة للبحر مباشرة وكلما تقدمت إلى الأمام تجد الزقاق النافذة إلى داخل المدينة التي تستطيع بالنفاذ منها الوصول إلى أي مكان وتتقدم إلى أن تصل إلى مسجد سيدي الشنشان، ومصرف ليبيا

المركزي الذي كان خزينة في العهد الإيطالي ثم تحول إلى محكمة المملكة ثم إلى مصرف ليبيا المركزي فيما بعد.

وكان في واجهته الجنوبية سوق النصر الذي يصنع فيه الذهب والفضة وبه مطعم أبو حلقة يتغدى فيه العاملون في الصناعة وكان أغلبهم من اليهود مقابل هذا المبنى تشاهد السّاعة الشمسية التي تعتبر تحفة العهد العثماني الثاني وربما أنشأ مبناها في عهد الوالي رضا باشا الذي أراد أن يضاهي بها ساعة «بنج بنج» في بريطانيا العظمى وقد عين الأستاذ حيدر الساعاتي (رحمه الله) للاهتمام بها وصيانتها، وفي أسفل مبناها قهوة عمي سعيد قانة ذات الطابع الأجنبي وهو ما يطلق عليها في إيطاليا قهوة اسبريسّو» وكان رواد عمي سعيد في مقهاه مشجعو نادي الاتحاد من العرب والأجانب واليهود الذين كانوا يعاملون في تلك المنطقة التي تبدأ من سوق النجارة إلى داخل سوق الترك وأسواق الربع إلى أن تصل إلى جامع أحمد باشا بسوق المشير الذي تمتد على جنباته دكاكين البضائع التي يقتنيها السّياح الذين زاروا ليبيا في ذلك الوقت وبصدد المقاهي في هذه المنطقة لابد من ذكر قهوة عيسى المواجهة للميناء حيث كان يتجمع فيها الحواتة بعد ترقيع شباكهم وعمال الميناء ورؤساء النوبات في حلقة نقاش تهم العمل وشئونه وتتطرق أيضا إلى الجوانب الإجتماعية الخاصة بهم من مرض وزواج واحتياجات حياتية أخرى ربما يحتاج بعضهم إلى إعانة يجمعها أحدهم من الجالسين لتصل إلى من يحتاجها في الوقت المناسب، كذلك نذكر مقهى آخر لصاحبه «فوزى عيوني» ولكنه لا يأتي في مرتبة قهوة عيسى التي أمر كبير أزلام القذافي عبد المجيد القعود المسئول عن البلدية آنذاك بهدمها دون مبرر سوى أن أولاد طرابلس يجلسون فيها تماما مثل ما امر بهدم (الوليان الصالحان) سيدي الهدار في القبة وسيدي الشريف اللذان كانا ضريحهما قرب ميناء طرابلس وكانت هذه المعالم الأثرية الثلاث التي احترمها العثمانيون لمدة أربعمائة عام واحترمها الطليان الذين جاءوا بعد العثمانيين لاثنين وثلاثين عام دون أن يمسوا مشاعر المسلمين الدينية أو الإساءة إليها عكس ما كان يدّعي الإسلام ويتظاهر به نفاقًا وهو أشد أعداء الله سلوكا وعملا فأمر بهدمها دون مبرر وأحد ولكن الله بالمرصاد فهدمه هو وسيده والأزلام الذين على شاكلته.

ومن المقاهي المشهورة في باب البحر وباقي شوارع المدينة نذكر قهوة «دحمان» ويؤمها شباب باب البحر وقهوة «الأبيض» وهي بميدان السيدة مريم وقهوة نادي المدينة بالأربع عرصات داخل حدود المدينة وبمنطقة الحلقة بباب الحرية نذكر العديد من المقاهي العربية التي توجد في الفنادق العثمانية التي تحيط بالأسواق العامة، والمتاجر ونذكر منها الحسنى بسوق الترك، وقهوة فتاح البدوي بجانب الزاوية الكبيرة ويؤمها كبار السن من الرجال يجلسون على مقاعد طويلة بجانب بعضهم يستمعون إلى راديو لندن الذي لا يفارق هذا المقهى في نشراته منذ الصباح حتى المساء ،ولا يقبل صاحب المقهى من أحد أن يطلب منه نقل محطة الراديو من لندن إلى غيرها حتى أن بعضهم وصفهم أنه عميل للاستعمار البريطاني وأنه كان مدمن على السماع لمحطة «هنا لندن» وهناك خلف مصلحة الضرائب مقهى «تمومن» يتواجد فيه سماسرة العقارات والأراضي وكل شيء يباع ويشترى وقد تكون هذه أشهر المقاهي في المدينة القديمة ولكن توجد العشرات غيرها ممن تسد حاجة الحياة العامة في المدينة القديمة بجميع محلاتها الأربعة.

هذه المقاهي كان لها دور كبير في حفظ، وتحفيظ شيوخ الفن الذين كانوا يرتادونها مع شيوخ آخرين «لفن المالوف» الذي أحضره إلى ليبيا وتونس والمغرب والجزائر الأخوة الفارون من جبروت الملك الإسباني فيليب الثالث الذي طرد المسلمين من الآندلس سنة 1613م فاضطروا لحمل فنونهم وصناعاتهم، وأساليب حضارتهم التي صاغوها لعدة قرون وكان حظ طرابلس جيدا مع فن المالوف الذي أصبح له شأن كبير عند أهلها فانتشرت قصائده ولحنه المميز وتكونت الفرق الخاصة لإنشائه لاسيما في الزوايا ومحلات السهر وظهر له شيوخ حفظوه وعلموه لكثير من الشباب نذكر منهم الشيخ علي منكوسة والطاهر عريبي والشيخ قنيص وغيرهم أما الأستاذ حسن عريبي فقد مد المالوف بقفزة نوعية حين دمج القصائد بالموسيقى حتى بات المالوف الليبي ذو شهرة كبيرة في منطقة الشمال الأفريقي كلها.

المدينة القديمة وكرة القدم في العهد الإيطالي

بالرغم من سوء الحظ الذي حالف محلات المدينة القديمة الأربع في تأسيس الأندية الرياضية، والثقافية في العقد الأول من الاحتلال الإيطالي، وعدم مقدرة أهلها على تأسيس هذه الأندية التي تحتاج إلى الكثير من الرعاية المالية والمعنوية وعرف عن سكان المدينة القديمة العرب والمسلمين ندرة العمل والبحث عن مصدر عيش يقيم الأود وينقذ الأطفال من الجوع بدل التفكير في الرياضة وفوائدها شريحة واحدة ميسورة الحال كثيرة المال تقبض على اقتصاد البلاد وتفعل به ما تشاء بل هي التي خططت وزودت الاستعمار الإيطالي بما احتاجه من معلومات استخباراتية ولوجستية عن العهد العثماني الثاني الذي يعتبر آنذاك في حكم المنتهي من الناحية العسكرية والسياسية على حد سواء وأتاحت الفرصة لكثير من الصحفيين العسكرين الإيطاليين أو من يلبسون قناع الدكتور أو عالم الآثار أو الرحالة وهم في واقعهم جواسيس يدخلون البلاد ويتجولون في ربوعها دون قيد أو شرط من السلطات العثمانية كل ذلك بفضل النادي اليهودي الذي أنشأه كبار تجار اليهود لتسهيل مهمة احتلال إيطاليا لليبيا، ولما كانت لمة اليهود الكبرى في حواريهم الثلاث الصغيرة،والوسطى، والكبيرة ولما كانت الأندية اليهودية التي يستخدمونها (للجاسوسية والتخطيط للمؤامرة وللتواصل بينهم وبين يهود المشرق في مصر، ويهود المغرب في تونس الجزائر، والمغرب الأقصى) وحيث أن هذه النوادي قد أثبتت جدارتها فيما جناه القيمون عليها من فوائد أفادت الصهيونية التي كانت تسعى منذ زمن بعيد لتنفيذ وعد «بلفور» المشئوم وأقامت علاقات جيدة مع الدول الأوروبية التي وعدت جميعها بالمساعدة وكانت إيطاليا في مقدمتها لذلك راي يهود ليبيا من الضروري زيادة عدد هذه الأندية نظرا لما أغدقته عليهم من معلومات تمكن من خلالها الإستعمار الإيطالي من دخول ليبيا بعد أن مهد لذلك بما زودته به هذه الأندية من معلومات عسكرية عن العثمانيين وقواتها المنهارة، أضف إلى ذلك مداخل المدينة ومخارجها وغيرها من المعلومات ذات الفائدة.

وفي خطة محكمة شبك خيوطها كبار رجال المال والتجار اليهود قرروا فتح وتأسيس ثلاثة أندية بأسماء مختلفة وهي:-

النادي الصهيوني:

نسبة إلى جبل صهيون الذي يقدسه اليهود في فلسطين المحتلة والذي كان رهبانهم وأحبارهم يؤدون فيه صلواتهم منذ نزول كتاب التوراة على سيدنا موسى عليه السلام، كان مقره الأربع العرصات وهي منفذ لكل حواري اليهود الثلاثة، موقعه بالحارة الكبيرة ومنازلها تعتبر من التحف إذ كان يقيم فيها باشوات الدولة العثمانية ورجال السّلك الدبلوماسي الأجانب.

أسسه اليهودي «ايليا النحايسي» اليهودي تحت شعار «نادي صهيون الثقافي الإجتماعي الرياضي» وقد تولّت صحيفة دغل صهيون «علمنا الصهيوني» مهمة الدعاية له من خلال نشرها للإعلانات السياسية، والرياضية، والثقافية وكانت إدارته برئاسة رفائيل باردة، ونائبه قليش ناحوم، وقويتا أمينا للصندوق وأمين السر باباني مغناجي، ورفائيل مغناجي، وجميس ناحوم أعضاء.

نادي الشبيبة اليهودية الطرابلسية:

تأسس في ماري 1923م عن طريق اميليو ناحوم، واميليو اربيب، وإيلو حسان، فيتوريو زارد، وشالوم ناحوم، وفيديركو ارتوتار، وألفرد تونس فارس، بوبيبو كوستا، وإسحاق صيمون، ورفائل حبيب ويحق لنا أن نضع اشارة استفهام على اميليو اربيب الذي كان يملك باخرة نقل على متنها أكثر من 22000 اثنان وعشرون ألف يهودي بالتعاون مع الوكالة اليهودية إلى فلسطين بعد احتلالها من قبل الصهاينة بمدة قليلة عام 1948م والتي رافقتها أغنية المطربة اليهودية «مالو خنافر» حين كانت تحرض يهود ليبيا على الهجرة إلى فلسطين قائلة.

توتيا لو جاك البأبور يقعادك في الحارة تدور

«أي ... يا يهودي كن جاهزا عندما تصل الباخرة (البأبور) لنقلك إلى فلسطين» أرض الميعاد «كما أطلقوا عليها زورا، وإذا لم تجهز نفسك للسفر فسوف تبقى تدور في الحارة لوحدك دون عائلة أو أصدقاء» وقد أتى هذا النداء مفعوله لدى اليهود حيث سافر منهم كما أسلفنا 22 ألف وبقي في ليبيا أربعة آلاف يهودي أصبحوا عام 1952م بعد الاستقلال 6500 يهودي غادر أغلبهم بعد نكسة العرب عام 1967م، وفر الباقون بعد الانقلاب الذي وقع في ليبيا عام 1969م.

نادي للكادي اليهودي:

تضاربت المصادر في تأسيس هذا النادي منها من نسب تأسيسه إلى سنة 1920م ومنها من حدده بـ 1924م واستمر نشاطه حتى سنة 1941م وقد أوقفت السلطات الإيطالية نشاطه بعد اتهام العاملين ورواده الذين كانوا من المثقفين والأثرياء اليهود الأكثر ميلاً لمحاكات الجاليات الأوروبية وتنوع أنشطتها التي تتهمهم بالتجسس لصالح الحلفاء الذين يحاربون دول المحور التي تعتبر إيطاليا أحداها، وتنوع نشاط هذا النادي بعد عودته 1942م ليشمل منع اليهود من الاختلاط بالأميين أي الخارجين عن الدين اليهودي وذلك بسبب وصول عدد من الزيجات بين يهوديات وشباب غير يهودي، أو شباب يهودي تزوج من غير اليهوديات وهو محرم في الشريعة اليهودية بالطبع وفي سنة 1952م صدر قرار من حاكم ولاية طرابلس بإغلاق هذا النادي الخبيث نهائيًا.

وإلى جانب هذه الأندية الصهيونية تأسست بعض الأندية العربية اتخذت لها مقارًا بالمدينة القديمة مثل نادي الكشاف بسوق الترك، ونادي العمال الرياضي الذي تأسس سنة 1944م بأحد المنازل بشارع سيدي درغوت أمام نادي القوارب سابقًا، وتتألف هيئة إدارته من السادة أحمد قنابة الدكتور مصطفى العجيلي نائبا، ومحمد محمد قنابة أمينا بالصندوق وهو مالك المقر وانضمت إلى هذا النادي أغلب الطبقة الكادحة من العمال والمهنيين وكانت قيمة الاشتراك به «50 فرنك» وفي عام 1945م تم نقل مقره إلى فندق النصر المقابل لساعة سوق الترك حيث اختير له مجلس إدارة جديد، وتم حله بعد تأسيس نادي الإتحاد لأسباب مالية في المقام الأول هذا من جهة ومن جهة أخرى

فإن الهيئة المديرة لهذا النادي رأت أن وجود ناديين تبعد بين مقراتهما خطوات قليلة ليس من مصلحتها التنافس في شيء، وخاصة لنادي العمال الذي تشكو إدارته من الصعوبات المالية، ففضلت ترك الساحة لنادي الإتحاد الوليد الذي يلتف حوله كل المواطنين الليبيين الذين قارعوا الاستعمار الإيطالي ومؤسساته الفاشية سياسيا، ورياضيا وفي كل المجالات وعلى رأسهم زعيم الأمة بشير بيك سعد السعداوي الذي رفض مد يده إلى الاستعمار رغم الإغراءات الكثيرة التي قدمت له من قبل إيطاليا ولجأ مع بقية المناضلين الآخرين إلى مصر للدفاع عن القضية اللّيبية سياسيًا وإعلاميًا وايصالها – للأمم المتحدة– مطالبين باستقلال هذا القطر الذي عانا من الإستعمار القديم والحديث على مدى تسعة قرون ونيف إلى أن أثمر هذا النضال الطويل بالاستقلال التام في 1951/12/24م[1].

النادي الأدبي العربي (وفريق القال) الرياضي:

كان هذا النادي العربي الليبي الذي تأسس في ظروف استعمارية بالغة الصعوبة فرضت فيها السلطات الاستعمارية نفسها في كل شيء يتعلق بالشباب الليبي وتطلعاته المستقبلية وطموحه الذي سيقوده يوما لتحرير بلاده من الغاصب الذي جثم عليها بعساكره وأسلحته.

وقد أخطأ المستعمر الإيطالي الدخيل حينما سمح للشباب الليبي بتأسيس»النادي الأدبي» سنة 1919م أي بعد الغزو بثمانية سنين ظنا منه أن الطبقة اللّيبية المثقفة سوف تكون له عونا في توعية وترشيد المواطن الليبي بأن الإيطالي الذي حل بالبلاد إنما جاء ليخلصها من الجهل، والفقر والمرض ويجعل منها جنة الله على الأرض ولكن الإيطالي المستعمر فوجئ بأن الوطنيين الليبيين الذين تولوا مسؤلية النادي كانوا من غلاة الرافضين للاستعمار والمستعمر ولو كان من أبناء جلدتهم فالاستعمار هو الاستعمار مهما كان أصله أو دينه، وقد لاحظت السلطات الأمنية الإيطالية مدى كراهية الطبقة المثقفة المستنيرة التي تلقي محاضراتها النارية فيه بما يتخللها من تحريض وتحفيز على شد الهمم

1 مرجع يهود مدينة طرابلس تحت الحكم الإيطالي ...ص 268.69.270

والعمل على الخلاص و تحرير الوطن من أي دخيل، وإزاء ذلك فقد أصدرت السلطات الامنية قرارا بقفل النادي الأدبي تداركا للخطر التي تشكله الهيئة العاملة به وبالفعل فقد صدر القرار بقفله وإيقاف نشاطه ولم يعد تأسيسه إلا في 1943/6/29 برئاسة الأستاذ أحمد الفقيه حسن والشاعر أحمد قنابة.

أما فريق الشباب العربي (القال) فقد تأسس سنة 1932م واشتهر باسم (القال) حيث كان يضم أبرز اللاعبين في ليبيا وقد صنفواللاعب مع فرق من الدرجة الأولى الإيطالية بل كانت السلطات الإيطالية تجلب له أقوى الفرق من إيطاليا للتباري معه وينتصر بتفوق عليها.

واستمر الدوري الإيطالي الذي يضم الفرق الإيطالية (مادريني، لاسالي، ش، س، تشير كولي تاليا) سان كاميلو، الآنتونينا، الفيات سانتا ماريا، الفولجري يلعب ضدّ الفرق الوطنية مثل الاتحاد / المدينة / الأهلي / ميزران / باب البحر، إلى ما بعد منتصف الخمسينيات وقد قسمت الفرق إلى الدرجة الأولى والثانية والثالثة وبقيت على هذا الحال حتى عام 1960م وقد مثل فريق القال العظيم.

كل من اللاعبين عثمان بيزان، ومسعود الزنتوتي، ومحمد قريفة، الحارس الذي أطلق عليه (مالك الشبكة) السنوسي مرسيليه، عامر المجراب، ومحمد الجهاني، ومحمد بن عليوه، ورجروبة البوهامي، وغالب سيالة، ومسعود جبران، والصادق حفيظ، وأبو بكر الخوجه، وسالم شرميط، وعلي بن حكومة، ومحمود العثماني والأخوين الشارف وسالم بن حسين، والمهدي الكريكشي، وحسن التونسي، وبشير الخضار، وحسين قنابة، ومحمد الزنتوتي، ومحمد رابح.

وقد أمضى هؤلاء الابطال في الملاعب منذ عام 1932 لغاية 1939م أبلوا في هذه السبع سنين البلاء الحسن في نشاط كرة القدم ضدّ الفرق الإيطالية والإنجليزية في عهد الإدارة البريطانية وكتبت الصحف الإيطالية التي تصدر في طرابلس على مستواهم المتميز الذي يصل ببعضهم مثل سيد عثمان بيزان، والسيد مسعود الزنتوتي، والسيد

السنوسي مرسيليه، وبن عليوه، وسالم شرميط إلى العالمية وقد أدّوا دورهم الوطني والرياضي والإنساني على أكمل وجه رحم الله من توفي ورزق أهلهم وليبيا كلها فيهم جميل الصبر والسلوان.

أما بالنسبة للأندية التي تأسست داخل محلات المدينة القديمة بعد الاستقلال سنه 1951م فهي نادي المدينة ونادي باب البحر ونادي الترسانة ونادي السلام ولنأتي على ذكر كل نادي في عجالة.

نادي المدينة الرياضي الثقافي الإجتماعي:

تأسس في شهر أكتوبر في عام 1953م برغبة من شباب المدينة القديمة الذين كانوا لاعبين مهرة يتمني كل من الأندية القائمة آنذاك مثل الإتحاد والأهلي الفوز بخدماتهم و الانضمام إليهم نظرا لرابطة الصداقة القوية التي جمعتهم اتفقوا بالإجماع على تأسيس نادي يضمهم باسم نادي المدينة القديمة أسوة بالأندية التي تأسست قبلهم على نفس المنوال مثل نادي الظهرة الذي تأسس عام 1949م ونادي بالخير الذي تأسس مع الظهرة قبل النادي الأهلي الطرابلسي الذي حصل على ترخيص مزاولة النشاط الرياضي يوم 1951/9/14م.

وقد تمكن شباب المدينة بمساعدة شيخ الشارع محمد بن موسى من حصولهم على ترخيص المزاولة بالتاريخ المدون أعلاه حيث استخدموا مكتب شيخ الشارع أمام جامع بن موسى بكوشة الصفار مقرًا مؤقتًا ثم انتقل المقر إلى سيدي الحطاب ومنه إلى الأربع عرصات ثم إلى شارع مايكل انجلو خارج أسوار المدينة ثم عاد إلى أحضان المدينة القديمة حيث توفر له مقر من الضمان الإجتماعي مقابل شاطئ البحر ثم انتقل إلى الأرض التي كانت تابعة لهيئة السكة الحديد التي تضم ملعب الأشغال الذي كانت تبعيته للهيئة الرياضية العليا التي كان يرأسها أبو الرياضة في ليبيا السيد مسعود الزنتوتي، وشق النادي طريقه في المجالات الرياضية والثقافية بفضل من تعاقب عليه من مسئولين لازال حقهم محفوظ لدى جمهور النادي ورياضيوه لما قدموه للنادي من وفاء وعمل وإخلاص ارتفعت بهم هامة النادي وصِيتُه إلى أعلى المراكز بين الأندية التي تأسست معه في نفس التاريخ

ولم تتمكن من الحصول على أية بطولات كالتي تحصل عليها وفي المقابل فإن الأهواء عصفت بهذا النادي والعواصف هزت أركانه بعد أن اعتزل لاعبوه المؤسسين فأصبح النادي لقمة سائغة، السرقة ينهشها الطامعون، وديمة يتلاعب بها الآفّاقون الذين انتشروا في الأندية كالجرذان مرتدين أقنعة العفة والطهارة متظاهرين بحماية الأندية والخوف عليها وهم في الواقع ومن على شاكلتهم من أهم أسباب سقوط الأندية والمؤسسات الرياضية لا سيما في عصر الظلام الذي دام اثنان وأربعون عاما عجافا سيطر فيها الرعاع وأصحاب الذمم الخربة والمصلحون على الأندية بدعوى انقاذها من أزماتها المالية بينما جاءوا ليسرقوا ما وجدوه في خزائنها و كبَّلوها بالديون التي تعدت ثلاثة ملايين جنيه ثم هربوا واستلم غيرهم المهمة دون أن يكلفوا أنفسهم دعوة الجمعية العمومية للنادي لطرح المواضيع واتخاذ إجراء فيها لتقديم السارقين إلى المحاكم، وما أكثرهم.

إننا نعرف الكثير عن نادي المدينة وما جرى فيه في حقب زمنية متعددة ونعرف التاجر، والفاجر ونعرف المشجع الحق، ونعرف المزوق، ونعرف من يعرف كل شيء ولا يريد أن يتكلم ونعرف من يراوغ ويتستر عما يحدث وقد نبهنا كثيرا من يسمون بالقوى الفاعلة ولكن أُذن من طين وأذن من عجين.

وأما نادي باب البحر ونادي الترسانة فقد حصلا على تراخيص المزاولة بعد سنة من نادي المدينة فقد شاركا في دوري الدرجة الثانية في موسم 1955-1956 ولعبوا ضد الإتحاد – ميزران، والمدينة –أبي الخير الظهرة وباب تاجوراء، الكشاف، وصعد فريق باب البحر إلى الدرجة الأولى بعد حصوله على كأس الدرجة الثانية لموسم 1958-1959م وقد مرت بهذا النادي الظروف المعتادة التي مرت على كل الأندية عند التأسيس وهي ظروف مالية يحتاجها النادي لشراء ملابس اللاعبين الرياضية وأحذيتهم الضرورية وكان بقاء الأندية في تلك الفترة يعتمد على التبرعات التي يحصل عليها لاعبو النادي من الدكاكين المجاورة له والتي تمثل أقل من القليل بالنسبة لنادي يضم ثلاثة فرق لكرة القدم فريق لكرة السلة وبعض النشاط الثقافي لذلك أصبح من الضروري اللازم على لاعبي النادي أنفسهم والقادرين منهم على وجه الخصوص دفع ما يستطيعون

لتغطية الاحتياجات الضرورية أما دخل المباريات فهو لا يصل إلى مستوى سد القليل من المصروفات ومع ذلك فقد عاش في هذا النادي نخبة من اللاعبين الأصدقاء كان في إمكان بعضهم اللعب مع الأندية الكبيرة لو أرادوا المال والجاه، ولكن جذوة الصداقة التي جمعتهم ومشاعر المحبة والود التي تشربوها طغت على كل ما هو مادي وشدتهم لبعض أكثر من أي شيء آخر بل وحفزتهم على تشابك الأيدي وأخذ العهد والوعد على أن يكونوا أوفياء لناديهم مهما كانت الظروف للأسباب الخارجة عن الإدارة، وهؤلاء الشباب الذين كانت تزخر بهم الأندية وإلا من أين جاء أحمد الأحول وأخيه رجب أليس من نادي أبو مشماشة مسقط رأسهما ومن أين جاء البسكي وحسين السنوسي أليس الأول من نادي الترسانة باب البحر والثاني من نادي بالخير وقص على ذلك مئات اللاعبين الذين قبضى عليهم غباء القذافي ورعونة أعوانه وحتى نادي باب البحر الذي نفخر ما حيينا بالآنتساب إليه تم دمجه لنادي المدينة فاستفاد الأخير من العديد من لاعبيه المتميزين لعل في مقدمتهم لاعب العصر (نوري السري) الذي استفاد منه نادي المدينة أيما استفادة كما استفاد من اللاعب العملاق خيري ميزران الذي لعب وأبدع في نادي المدينة وعمل معه المعجزات الكروية.

و تشكل فريق نادي باب البحر قبل 1956 من كل:

من بشير الكعامي، ومصطفى الفونجة، وميلود عرابي، عبد الرحمن الزنقي، الأمين الأشطر غيرهم وانتسبت لهذا النادي عام 1956م فوجدت أمامي مصطفى الفونجة وسالم الجنزوري، محمد بن ابراهيم (العلم) خيري ميزران، محمد السليني، القمودي، أبو بكر الحمال، خميس صالح، فرحات القهواجي، معتوق، محمد بركة، المبروك مشيع، عبد الله العايب، عثمان قرفال ثم انضم إلينا الحارس لطفي عبية الذي لعب لباب البحر والمدينة والأهلي واعتزل بعدإصابته وهو يلعب ولم يحض بالعلاج اللائق من نادي المدينة الذي كان ينتسب له آنذاك.

أما نادي السّلام الذي يقع مقره أمام السّراي الحمراء فقد صنف من فرق الدرجة الثالثة تحت رئاسة الأستاذ عمر المسلاتي الذي كان يدفع من جيبه وقد لعب لهذا النادي

الأخوان حسن وحسين نوره ولطفي عبيه، الزروق الزرقاني، عبد الحفيظ بيزان، محمد الخويلدي، عبد الله الشكشوكي، الصيد تارسين وآخرين لم يحضرني أسماءهم وكلمة حق نرى من اللازم قولها حتى ولو كانت مرة على أصحاب العلل!!! وهي أن الأنشطة التي كانت تقوم بها الأندية بمجهوداتها الذاتية ودون عون من أي جهة كانت أحسن وألف مرة من الوقت الذي توفر فيها المال لهذه الأندية مما أطمع فيها أصحاب الذمم الخاربة من العسكريين وأزلام آخرين أرسلهم النظام الفاسد الذي كانت فرائصه ترتعد من شباب هذه الأندية وما يحملونه من كراهية وأفكار.

ونختم جولتنا الكروية داخل أسوار المدينة القديمة بقصة قصيرة فأر شقي حكمت عليه القدرة أن يقع في يد من لا يرحم «إنه خيري ميزران».

قصة أطلقت عليها خيري والفأر التعيس:

التاريخ: موسم 1959-1960م الرياضي والحدث مباراة كبرى بين فريقي باب البحر والأهلي الطرابلسي على أرض الملعب البلدي بطرابلس حدثت المأساة ليلة المباراة ونحن نعد ملابس اللعب التي أخرجناها من الدولاب الوحيد الذي نضع فيه جميع الجوارب والغلالات القليلة العدد وما أن أخرجنا دستة الغلالات لنفرزها ونضعها في الحقيبة الخاصة بها حتى فوجئنا بشيء ما يسقط داخل الدولاب ويختفي وما ان حان دور فرز الغلالة رقم 9 التي يرتديها قلب هجوم الفريق حتى وجدناها من جهة الصدر كله مهرمشة أي لعب فيها الفار بالطول والعرض، مثلت لنا هذه المفاجأة مشكلة لا حل لها سوى شراء دستة غلالات جديدة للعب بها لكن واجهتنا مشكلة المال تليها مشكلة الشعار ففكرنا في شراء قماش من نوعين يتفق مع شعار النادي سلمته إلى الوالدة رحمها الله صباحا لنجده جاهزا قبل المباراة بدون أرقام وركبنا الأرقام ولعبنا المباراة وكسبنها بعون الله ومن المفارقات أنها كانت ضد فريق الأهلي الذي سجل عليه خيري ميزران هدف النصر وزارنا بعد المباراة مشجعوا الفريق الكبير الآخر الذي كان ينتظر خسارة الخصم الذي ينافسه على بطولة الدوري وفعلا قد كان له ما أراد وكرمنا مشجعوا الفريق الذي حصل على بطولة الدوري»بدينار واحد « لكل لاعب شارك في المباراة احتفلنا بفرحة النصر إدارة ولاعبين ومشجعين ولم يتحرك لخيري ساكنا فهو مهموم يفكر ويطيل

التفكير في الوسيلة التي ينتقم بها من الفأر اللعين ولم يكن هناك بد من مسايرة كابتن خيري وحاصرنا الفأر وأغلقنا عليه جميع سبل الهروب ووقع في قبضة خيري الذي صمم أن يمسكه حيا وليقوم بتعذيبه حتى الموت وفي المساء جاءت حفلة الموت حيث أدخل خيري في أذني الفأر خيط كهرباء أوصله بالطاقة الكهربائية للحظة ثم أوقفه، أعاده مرة أخرى والفأر يرتعش وخيري بل الجميع يضحك من هبال خيري وهكذا إلى أن مات الفأر المعتدي فعلق بعد موته وضرب بالرأس.

ونستمر مع نوادر خيري ميزران التي عشناها معه من مقتبل أعمارنا إلى أن أصبحنا الآن في خريف العمر صداقة في الله دون مصلحة تذكر رعاه الله وضللها الحب والصدق عدة عقود ولم يبعدنا عن بعض سوى ظروف الحياة وتغيرها، ورحيل البعض عن هذه الدنيا ومرض البعض الأخر وانزوائه والله المستعان.

كان ملجأنا صباحا الفنيدقة ودكان الحاج عبدالله الوراق الذي يعمل به (النول) حيث يتفنن في أردية (حب الرمان) التي تحتاج إلى صبر وفن في صناعتها وكنا نجلس في دكانه يوقد أحدنا نار الشاي ويضع البراد على النار ويتولى أما خيري أو عبدالله النعال رحمه الله إعداد (طاسة الشاي) الأولى التي تنادي على حرفي الفنيدقة من قريب وبعيد وفي أحد الأيام وخيري جالس على عالة إعداد الشاي وإذا برجل كبير في السن يرتدي حولي يظهر عليه أنه من ضواحي طرابلس وقف على دكان الوراق وبيده ساعة «هيرما» يريد إصلاحها التقطها خيري ميزران بيده ليقلبها ويرى عيوبها وبعد إلقاء نظرة عليها طلب من الرجل العودة بعد نصف ساعة ليجدها على ما يرام وذهب الرجل ووضع خيري الساعة في البراد استغرب الجميع من فعلة خيري الشنعاء وحينما سألناه قال وهذا دكان لتصليح الساعات؟ وقبل أن يعود الرجل لاستلام ساعته أخرجها خيري وغسلها بالماء ولفها في ورقة وطلب من الرجل عدم فتحها إلا عندما يصل إلى البيت وشكر الرجل خيري لأنه لم يطلب منه شيء مقابل إصلاح ساعته بغليها على النار في براد الشاهي.

خيري وعمي خليفة وربطة البرنصي:

بزنقة النخلي كان مسقط رأس خيري ميزران وبشارع قوس الصرارعي كان هناك دكان يبيع فيه الخضار عمي خليفة بضاعته التي ينشرها خارج دكانه، أم خيري أرسلته

ليشتري بعض الخضار من الدكان وكان من بين الخضروات والفاكهة المعروضة صندوق مملوء برطب «البرنصي» الذي يأخذ بلب من يشاهده، وشره خيرى على رطبتين لا يملك ثمنها ولكنه أكلهما وكانت ردة فعل عمي خليفة تجاه خيري (طريحة) نباشة القبور كما يقولون أثرت في وجدانه لأنه كان صغيرا وفي الجزء الأول من شبابه حضر إلى دكان عمي خليفة والتقط رطبتين أمام عمي خليفة الذي بلعها ولم ينبس ببنت شفه خوفا من العملاق الذي يقف أمامه لكن خيري تذكر تلك الطريحة التي أثرت في نفسيته بشأن رطبتين اشتهاهما صبي لا يملك ثمنها وعوقب بشدة من عمي خليفة الذي لم يراعي ضعف طفل اشتهى تمرتين لا يملك ثمنهما فأكلهما ونال جزاءه وقرر خيري أن يرد جزء من العقاب لعمي خليفة حتى يكون العقاب من جنس العمل بعد عشر سنوات سرد خيري قصته على عمي خليفة وذكره بالماضي الذي لم يمت فوجد العناد والجهل عنده لم يتغيرا رغم كبر سنه ورجاحة عقله، وطلب منه خيري الاعتذار عما بدر منه فرفض، فما كان من خيري إلا أن رد عليه ب» كفين» يتناسبا مع سنه وعناده كما دفع له ثمن كيلو من الرطب «البرنصي « وتركه يتذكره ومضى حدث وقائع هذه القصة ما بعد استقلال ليبيا بقليل.

علي نوم وحراسة المرمى:

ومن شخصيات ذلك الزمان المرحوم علي نوم، وسمي بالنوم لأنه كان دائم النوم كان من رواد نادي باب البحر بل لا أبالغ إذا قلت أن ما يقضيه في النادي من وقت أغلبه نوم أكثر مما يقضيه في بيته أحب الكرة ومارسها في الشوارع كما لعبها جميع المرحومين أمثاله نذكر منهما التومي المشهور «بلحا» وإبراهيم المرابط المشهور ب»الفاجون» وغيرهما من عشقوا كرة القدم ومنعتهم ظروفهم المختلفة بما فيها النفسية من مزاولتها رسميا فزاولوها عن طريق اللعب في الشوارع وكان علي نوم أحدهم إلا أنه كان يداوم على حضور تدريبات الفريق التي كانت تجري في ملعب الأشغال (نادي المدينة الآن) أو ملعب الاتحاد في شارع المعري، أو بملعب المكي الملاصق للمصيف البلدي، وكنا نحتاج لعلي نوم كحارس مرمى عند إجراء تقسيمة الفريق إلى قسمين، وتبدأ المهارات وتأتي معها الهجمات على مرمى الحارس «علي» الذي يجد فريقه متكئا على قائم المرمى وهو «في سابع حلمة» يغط في نوم عميق والكرة في حلق المرمى إلى ان يصرخ

في وجهه أحد اللاعبين أفقْ يا علي وأخرج الكورة، ويقوم علي من نومه مخلوعا متحسرا على الكرة التي دخلت مرماه ويخرج الكرة من المرمى لتبدأ ضربة البداية للفريق المنهزم ويعود علي إلى مرماه بعد أن يغمر وجهه بالماء لعل وعسى تفارقه آية النوم دون جدوى وينتهي التمرين ويعود اللاعبون إلى النادي لقضاء الأمسية وغالبا ما كان «سي عصمان بيزان «»مدربنا الكبير حاضرا لأمسياتنا ومباركتها بإصدار تعليماته لهذا وذلك، أما علي نوم فيأمره الاهتمام بعالة الشاهي وإعدادها وما أن يغلي البراد حتى ينام علي والجميع يصرخون عليه أفق يا علي البراد يغلي ليكشكشي الشاهي.

المؤسسون لنادي المدينة:

محمد الفقي، محمد الودان»النحسي»، محمد الباشا، محمدالكاب، محمد الدورار الشيخ محمد بن موسى، ميلاد المسلاتي، محمود الفزاني، أبوبكر عريبي، عبد الرحمان أبورقيقة ثم انضم للنادي عبد الكريم بن موسى الذي تقلد منصب رئيس النادي بعد محمود الفزاني الذي كان قائدا للفريق أيضا.

المؤسسون لفريق نادي باب البحر

الطاهر المليتي، مصطفى القدراب، محمد القربو، سالم الرماللي، الأمين الاشطر، فر حات الجنزوري

وتعاقب عليه كل من :-

عبد الله بن عبد الله رئيسا ومدربا بعد أن ترك نادي الظهرة

علي سعيد بركة	**نائبًا للرئيس وأمين للصندوق**
سالم الجنزوري	**لاعب ومسؤولا رياضيا**
المبروك فنقة	**لاعبا ومدربا للأشبال والفريق الأول**
خيري ميزران	**لاعبا ومسؤولا ثقافيا**

نادي الترسالة بباب البحر :

هذا النادي أسسه السيد عياد أبو سعيدة ودخل مسابقة الدرجة الثالثة ونجح وارتقى إلى الدرجة الثانية غير أنه بعد موسم وأحد لم تستطيع إدارته الاستمرار نظرا

لضائقة المالية التي وقفت حجر عثر أمام الكثير من الأندية آنذاك فاضطرت لوقف نشاطاتها وقد لعب لنادي الترسانة كل من :-

محمد الحجاجي المرحوم عبد السلام كشلاف، حسن شهاب، الدين عز الدين الجهاني، منصور الأشطر وكانوا من أبرز اللاعبين وما أن أوقف النادي نشاطه حتى التحق أغلبهم بأندية مرموقة فانتقل الحجاجي إلى نادي ميزران عبد السلام كشلاف إلى نادي الأهلي أما حسن شهاب الدين فقد حط به النصيب إلى نادي الإتحاد حيث لعب مع النهضة والإتحاد الأول.

أحب أن أشير بأن ما كتب عن الأندية داخل المدينة القديمة لم يصل إلى مستوى التاريخ لأن المعلومات الواردة في هذا الكتاب لم يكن للتوثيق فيها نصيب وإنما جاءت عن طريق روايات شفهية كان اللاعبون والمشجعون الذين لازالوا على قيد الحياة دور كبير فيها، وفي كل الأحوال من حق القارئ ان يقتنع بما كتب أو لم يقتنع اذا حصل على وثائق تخالف ما ورد في هذا الكتاب.

كذلك نستميح القارئ عذرا إذا ما وقع سهوا أو نسيانا لذكر بعض الأسماء الذي أسست أو شاركت أو لعبت مباريات ولم يذكر اسمها فالله وحده هو الكامل أما الإنسان فصفة النسيان دائما تلاحقه وجل من لا ينسى.

والثالثة هو أن بحث هذا الكتاب قد اقتصر على حدود المدينة القديمة وداخلها بحيث شمل محلاتها الأربعة في العادات والتقاليد والعرف وكل ما يحيط بسكان المدينة القديمة في الأفراح والأتراح والمأكل والملبس وغير ذلك دون الخروج حتى لأقرب المحلات الأخرى كمحلة بلخير مثلا أو ميزران ضرورة واحدة ربما تدفعنا إلى الخروج عن أسوار المدينة القديمة وشريطة أن تكون معلومة تفيد القارئ نري ضرورة إضافتها لتحقيق المعرفة وتوثيق الصلة الثقافية بين ربوع ليبيا شرقًا وغربًا وجنوبًا وهي الغاية والمنى من كتابة ونشر هذا الكتاب الذي نتمنى أن يرى النور في أقرب وقت ممكن.

المدينة القديمة ولعب الصغار فيها:

انقسمت ألعاب الصبية في المدينة القديمة إلى ألعاب شتوية ربيعية مثل الزربوط، والتيرا، والبتش، والفرا، والبنك وغيرها وتلعب من الوقوف أو الحركة الخفيفة وأخرى خريفية صيفية متحركة مثل الوابيس ومفتاحي طاح ، وعمل بديس، وزلزلاتي.

أما البنات فكانت ألعابهن... الخليطة، والنقيزة، والخميسة، والحرقوقشي و سأوافي القارئ الكريم بلمحة مختصرة عن كل لعبة.

- **الزربوط** ... قطعة من الخشب ذات شكل مخروطي يصنع بعناية على آلة « الطورنو « التي يستعملها النجارون في اعداد الشكل الذي يرونه مناسبا لقطعة الأثاث التي يريدون صنعها، منه الصغير الحجم ويسمى (الزغده) ومنه العادي به سن يدور عليه عندما يطلق من الخيط الذي دار على جسم الزربوط فيدور حول نفسه بسرعة فائقة يتمكن من خلالها صاحبه التقاطه على كف اليد بطريقة فنية ليضرب به الزربوط الملقى على الأرض ويطبق الإتفاق الذي اتفق عليه صاحبي الزربوطين وغالبا لا يتعدى أحد أمرين: الأول يسمى «توصيل « ويعني إذا وصل اللاعب (أ) زربوط اللاعب (ب) الملقى على الأرض إلى المكان المتفق عليه فسوف يفقد اللاعب (ب) زربوطه، وإذا اتفق الطرفان على عدد النقرات في حالة التوصيل فسوف ينقد الوعد بنقر أحدهما زربوط الآخر بعدد النقرات المتفق عليها دون تأخير، وهناك اتفاق بين اللاعبين اسمه (سن واخلع) ومعناها إذا لم تصب الزربوط الملقي على الأرض بسن مباشرة سوف تفقد زربوطك انت.

- **التيرا** وتتألف من قطعتين من خشب أحداهما صغيرة مخروطية الشكل والأخرى تضاهي نصف متر طولًا مفلطحة تضرب التيرة عندما تتصل بها عدة أمتار ويتنافس بضرب التيرة شخصان يكسب منهما من يضرب التيرة أطول مسافة من الآخر.

- **البتش** وهناك من يسميه (البيس) ولعبته أن يلتقي اثنان من الصبية أحدهما يجلس (ينصب) حيث يدق في الأرض الترابية مسمار ويضع فوقه قطعة نقود معدنية ويذهب الآخر مسافة يرمي منها البتش على قطعة النقود فإذا أصابها يأخذها وإذا لم يصبها يخسر بتشه.

- أما **الفرا** فهي لعبة حظ وكثيرا ما يستعملها حكام كرة القدم بين رئيسا الفريقين المتبارين على اختيار المرمى في شوط الأول، أما الصبية فيستعملوها لكسب أي شيء من أحدهما إلى الآخر كعملة معدنية، يرمي قطعة معدنية في الهواء ويختار الطرف الأول جهة معينة والثانية تكون من نصيب اللاعب الآخر.
- **مفتاحي طاح :**

وهي لعبة تعتمد على الذكاء من جهة والسرعة في العدو الفريقين من جهة أخرى أساسها صبيان من نفس المحلة أو المنطقة أو الشارع وربما يكونا زعيميْن لباقي الصبية يتفقان على أن يخفي أحدهما فريقه في مكان ما والأخر يكون أفراد فريقه طلقاء ليمسكوا بالمتخفيين فإذا أمسك الفريق الطريق بأحد أفراد الفريق المتخفي أو كل أفراده أن يركب على ظهره ليوصله إلى نقطة الانطلاق الذي تعتبر ملتقى الفريقان ويحدث الجري، والهروب من الفريق المتخفي المساك بعد كلمة مفتاحي طاح التي يطلقها زعيم الفريق المتخفي لكي يخرج فريقه من مخبئهم بسرعة ليفرو إلى دار الأمان وهي نقطة الانطلاق الذي حددها الزعيمان وأضيف أن الزعيم التي أخفى جماعته هو الذي يأتي رفقة الزعيم الثاني وجماعته المساكين إلى مكان الاختفاء بأهزوجته التي يرددها خلفه الجماعة المساكة...» بريني من هالنخلة يرد عليه المساكين بارك الله «باريني من هالرجل ويرد عليه المساكين بارك الله» وهكذا إلى أن يصلوا إلى المكان الذي أخفى فيه جماعته ويصرخ «مفتاحي طاح» فيخرج جماعته هربا قاصدين نقطة الامان فصاحب السرعة يهرب أما المقبوض عليه فلابد أن يوصل القابض عليه إلى نقطة الأمان محمولًا على الظهر وتتفاقم المشكلة إذا كان المساك سمينا والممسوك به عليلا لا يستطيع نقل المساك على ظهره وهنا يتدخل الزعيمان لفض المشكلة فإذا أصر السمين على توصيله حيث يؤجر له وأحد سمين مثله لينقله على ظهره إلى نقطة الأمان.

- **العملة بديس :**

وهذه العملة تتكون من مجموعة كلمات معبرة بنطق بها الشخص الذي يقفز على ظهر شخص آخر متخذا حركة الركوع مثبتا يديه علي ركبتيه، مستسلما للشخص الذي يقفز على ظهره «عملة بديس» ويعود بقفزة أخرى قائلا: «والديس على الديس» ويقفز مرة قائلا : «والديس عن جعدة» ويعود يقفز قائلا : «والجعدة علي الجعدة» ويعود قفزا ليقول : «الخرطة علي الكبدة» ويقفز ويقول: «والقرصة على الفخدة» ومن الجدير

بالتنويه أن هذه الحركات يستعملها الرياضيون في تدريبات كرة القدم للقوة والتحمل والمرونة والرشاقة.

- **النقيزة:**

ترسم بالطباشير أو بالفحم خطوك مربعة أو مستطيلة على الأرض تتقاطع مع خطوط أخرى بحيث تصبح النقيزة أربع مستطيلات تختار اللاعبات أي شيء أمامهن قشرة ليم او قطعة حجرية مفلطحة.

تبدأ إحدى البنات بجولة في المربعات والمستطيلات دون أن تلامس أحد رجليها الخطوط وفي الجولة الثانية تطوح ما بيدها: الشيقيفة: أمام رجليها وتتخطى جميع خطوط النقيزة تدفع الشقيفة بعيدًا عن الخطوط فإن نجحت كسبت تستمر إلى أن تخطي لتستلم غيرها من البنات الدور وإذا مرت بجميع مربعات ومستطيلات النقيزة دون أخطاء تمسك :الشيقيفة: بيدها وظهرها إلى النقيزة وترمي الشقيفة من فوق رأسها إلى مربعات النقيزة فإذا اجتازت الخطوط كسبت البطولة.

زمان ....زمان

والألعاب

- **زلزلاتي وزلزل:**

وهي من الألعاب التي كان يلعبها الأولاد والبنات على حد سواء فإذا كان الراكب والراكع ذكور فهي للأولاد وإن كن بنات فهي للبنات.

وتبدأ بفريقين أحداهما يركع والأخر يصعد على ظهره بعد أن تجري بين الفريقين القرعة اللازمة، تعطي للفريق الراكب على ظهر الفريق الراكع أسماء مختلفة مثل بأبور القمح أو الشعير، أو أية أسماء أخرى وتبدأ اللعبة يجلس رئيس الفريق الراكع وتغمض عينيه بيدي رئيس الفريق الصاعد الذي يقول «زلزلاتي وزلزل ما ينزل إلا بأبور الشعير» مثلا ويومئ برأسه إلى بأبور القمح حيث ينزل بسرعة ويضرب مرة وأحدة على جبهة رئيس الفريق الراكع بيده ويعود بسرعة إلى الصعود في مكانه في حين ينزع رئيس الفريق الراكب يديه من على عيني رئيس الفريق الراكع الذي عليه أن يجتهد في معرفة من لامسه على جبهته جين كانت عيناه مغمضتيين، فإذا سماه بالاسم وأشار إليه وثبت

صدقه هنا تتغير اللعبة ويصبح الراكعون راكبون والعكس بالعكس وهكذا.

ألعاب البنات:

وغالبا ما تكون هذه الألعاب رقيقة لينة لا تؤذي البنات جسديا ونفسيا بعيدة عن الرياضة وكثرة الحركة وفق نظرية خاطئة اختمرت في عقول كبار السن من آبائنا وأمهاتنا تقول بأن الحركة والرياضة العنيفة عدوة للفتاة كذبتها النظريات الحديثة التي أوضحت بأن الفتاة من حقها أن تمارس الرياضة وتعمل ما يقوم به الشاب من حركات في شتى أنواع الرياضة وقد اختير أيام زمان للبنات بعض الألعاب منها :-

- **الخليطة:**

وهي عبارة عن مجموعة من البنات الصغار يجتمعن في بيت إحداهن تأتي كل وأحدة منهن بنصيبها من الخضروات والدقيق وغيره ليتعلم البنات في هذه الخليطة كيف يطبخن ويقشرن الخضروات وغير ذلك وتطهي الخليطة بمعرفتهن ومشاركتهن جميعا في البداية إلى النهاية وغالبا ما تكون في برمة وكسكاس صغيرات الحجم ولا يتدخل الكبار إلا في حالة الضرورة بالنصح والترشيد.

- أما **الحبل** فهو عبارة عن حبل طويل أما تقفز الفتاة من خلاله لوحدها أو مع رفيقاتها بحيث تمسك كل واحدة من طرف وهي تقفز من فوق الحبل ثم تغير الفتيات عن بعضهن فتصبح القافزة ممسكة بطرف الحبل والأخرى قافزة.

- **معرض طرابلس ودوراته:**

كان لدورات معرض طرابلس الدولي منذ عام 1960م الأثر الكبير على الأسرة اللّيبية وانطلاقتها من سجن البيت إلى انطلاقة أسرية بريئة داخل المعرض فإلى جانب الأجنحة وما يشاهد فيها من مصنوعات وتحف وأثاث على جميع المستويات بالنسبة للكبار ويتمتع الشباب والأطفال بمدينة الملاهي وما تضمّه من ألعاب رياضية وفكرية ودراجيح هوائية وغيرمما يمارسه الشباب من الأولاد والبنات ومنها ما يخص الأطفال اما بالنسبة للرياضة فقد كانت دورات المعرض منذ الستينات فما فوق عبارة عن أولومبيادات

مصغرة كان الفضل فيها بالمتابعة والتنسيق بين إدارة المعرض المنفتحة التي كان يرأسها آنذاك السيد أحمد الحصائري والدكتور المتوهج علما وخلقا وكفاءة علي يحي المنصوري الذي ارتقى السلم الوظيفي إلى وزير الشباب والرياضة بكفاءة واستحقاق ويشهد الجميع بأن الفترة التي تقلد فيها الوزارة فقد ازدهرت فيها الالعاب الفردية والجماعية تشهد على ذلك دورات المعرض التي نظمتها وزارة الشباب والرياضة دعت إليها أغلب المنتخبات العربية في كل الألعاب وقد لبت الدعوة منتخبات مصر وفلسطين والسودان والمغرب وتونس والامارات وغيرها ونجحت دورات المعرض الرياضية التي أشرف عليها المرحوم وكان لها تأثير في النهوض بالكرة الليبية.

- **الخميسة أو اللقفة كما كانو يسمونها:**

وهي لعبة جلوس هادئة تتناسب مع هدوء البنات ورقتهن ... وتتكون من عدد خمسة حجيرات صغيرة وفتاتان أو ثلاثة متنافسات يجرين القرعة بينهن لمن يكون سهم المنافسة لاثنين من ثلاثة الحاضرات وتبدأ اللعبة بمسك أحداهن للحجيرات الخمسة في يد وأحدة لترميهن أمام منافستها ثم تلتقط من الحجيرات وأحدة وترميها إلى أعلى وتلتقط أخري من الأرض بجانبها ثم ترمي حجيرتها إلى أعلى وتلتقط أخرى من الأرض وتضعها بجانبها ثم ترمي حجيرتها إلى أعلى وتلتقط حجرتين وتقول «زويزه» بمعنى التقطت اثنين ثم تلتقط ثلثة حجيرات وتقول «ثليثة» ثم تحمل الخمسة حجيرات في يد وأحدة وتدفع منهم حجيرة وأحدة إلى أعلى وترفع الأربع حجيرات مع الحجيرة التي دفعتها إلى أعلى في يد واحدة إذا نجحت في ذلك ولم تسقط جميع الحجيرات تكون فائزة على زميلتها بخمسة دودات أو بأقل حسب العدد الذي يبقى في يدها.

- **أما لعبة الحرقوقش:**

فغالبا ما تلعب بالليل قبل أن ينام الأطفال ويقودها شخص أكبر قليلا من الأطفال أو الأب أو الام حيث تبدأ أن تضع جميع الأطفال أيديهم الاثنين على الأرض بحيث تلامس أكفف أيديهم الأرض ثم يأتي الشخص الكبير ليلمس أيدي الأطفال

المفروشة على الأرض بإصبعه ... «قائلا ياحرقوقش يامرقوقش جاك الديب ينقش، ينقش لاعصا، ولا دربا باش تنابح الكلبة ما كليت من تفاح طاح وفاح في قلبك يا مفتاح حنا وإلا زعفران « فإذا قال الطفل حنة يرد عليه الحرقوقش أمي وأمك في الجنة، وإذا قال زعفران فيقول له الله يحفظنا من النار ثم يطلب من الجميع تخبئة أيديهم لمدة وبينما أيدي الأطفال مخبئة يقول لهم قولوا طاب الفروج فيعيدون هذه الجملة طاب الفروج فيرد عليهم ما زال ويعدونها فيرد عليهم يذبحوا فيه، ويعيدونها فيرد عليهم يفرفطوا فيه ويعيدونها فيرد عليهم يرشوا فيه، ويعيدوها وهكذا إلى أن يطيب الفروج الخيالي وينام الأطفال ولم يطيب منذ العهد العثماني حتى الآن.

زمان..........زمان

في هذا الوقت التي انتهت فيه الحرب العالمية الثانية وليبيا تحت الوصاية البريطانية كانت حالة ليبيا السياسية، والاقتصادية، والإجتماعية في غاية السوء وقد تنبه علماؤنا الأجلاء لحالة التعليم المنهارة والجهل الإجتماعي الذي يعشعش في عقول المواطنين والأمية البغيضة التي خلفها الاستعمار العثماني والإيطالي وعهد الوصاية الذي تعاني منه البلاد قبل استقلالها من قلة المدارس وانعدام التعليم باللغة العربية ومما دفع شيوخ حفظة القرآن والفقه والشريعة وغيرهم من المواطنين إلى دعوة الشباب والصبية وحتى الرجال إلى الإهتمام بحفظ القرآن والالتجاء إلى الكتاتيب والمساجد لحفظه ونشره والعمل به حتى يتمكن المجتمع الليبي كله إزاء الظروف التي تمر البلاد من مقارعة الثقافة الغربية الواردة ووضع حد الفساد الذي استشرى بين طبقات المجتمع الليبي واجتهد شيوخ المحلات والشوارع وزقاق لفتح منارات لحفظ القرآن وتفسيره وأقبل الليبيون أطفالاً وصبيانا وشيوخا على حفظه وتدبره وتفسيره لمواجهة أي خطر يحدق ببلادهم في الظروف الخطيرة التي تمر بها ،وكتاب الزرقاني أحد أهم المنارات التي يتخيلها صبي سنة 1948م حين كان يصعد درجات سلم الكتاب فيجد أمامه ساحة مفروشة بحصر من الديس فوقها مرقوم كبير حيث يجلس الصغار أما مكتبة الشيخ علي رحمه الله وبيده عصا من جريد مفرطة الطول يتلون عليه كتاب الله، بينما الشيخان محمد الباباني ومحمد البزنطي (يكتبان) شباب

السدة وهي مرتفع عن الأرض يجلس عليه الذين قطعوا شوطًا طويلًا في الحفظ قرب من الختم وتجوا ببصرك في صحن الكتاب فتجد «المحاية» في الجانب الغربي يمحوا الصبية فيها ألواحهم مما حفظوه من القرآن ليكتبوا باقيا السور أو سور جديدة كما تشاهد «الفلقة» معلقة خلف الشيخ علي الذي كان قليلا ما يستعملها مع غيرى.

وكم تكون فرحة الأولاد عارمة حينما يأتي رب الأسرة وهو حامل معه (الفطائر) إلى الكتاب ويستأذن «الشيخ علي» في السماح للطلاب بالحضور إلى بيته (للقصادة) لأنه يريد ختان ابنه وكم تزداد حماسة الأولاد حين يقرأ بهم الشيخ محمد الغدادي «صلاتك ربي والسلام على النبي» ثم يشربون الروزاطة» ويأكلون «العبمبر» وربما ينالون نصيبا من الغداء ولحم العقيقة التي قدمها الوالد قربانا لختان ابنه، وحينما يعود الطلبة إلى كتابهم صباح اليوم التالي وبعد جلوسهم تنال القصادة التي أحيوها مساء امس قسمًا كبيرًا من حديثهم إلى حين موعد انصرافهم إلى بيوتهم فرحين مرددين الآتي :-

امروحين....... امروحين...... امروحين

سلم سيدي سرحنا حط عظامه في الجنة

الجنة مفتوحة فيها قلم ولوحة

ياصغار وياكبار صلوا على الهادي المختار

كل عشية وكل نهار   محمد شارف الآنوار

وصهد النار على الكفار   للنصارى في جمهاره

واليهود في صمود   والمسلمين باهيين

تحت عروق الياسمين   امين امين امين

بركة رب العالمين

شرح لبعض كلمات القصيدية:

امروحين: عائدين إلى بيوتنا

سلم سيدي: ويقصد به شيخ الكتاب

سرحنا: أخلى سبيلنا

الجنة مفتوحة فيها قلم ولوحة:-

القلم هو الأداة التي خط بها الله سبحانه بداية الدنيا إلى يوم البعث

لوحة: وهي اللوح المحفوظ ...... كتب فيه الله كل شيء من الأزل إلى الابد

صهد النار : ريحها وزفيرها

جمهاره: النار حينما تأكل بعضها

صمود: تشوي النار لحومهم كما يشوي اللحم في السفود

هذا وقد كان في قلب المدينة العديد من الكتاتيب متفرقة في شرقها وغربها مثل كتاب سيدي سالم بباب البحر والزاوية الصغيرة وسيدي عبد الوهاب وكتاب جامع قرجي وسيدي الشنشان وجامع الدروج وكتاب سيدي مفتاح والكثير غيرهم من الكتاتيب تعذر عليّ حصرهم.

وإلى هنا تنتهي صفحات الكتاب سائلا الله تعالى التوفيق.

الخاتمة

بهذا أرجو أن اكون قد وفقت بإنهاء كتابي المتواضع بما أشارت به المصادر التاريخية لمدينة طرابلس منذ نشأتها على أيدي الفينيقين في بداية الألف الأولى ق.م كمركز تجاري شأنها كشأن المراكز التجارية التي أنشأها الفينيقين لتوسعهم التجاري على ضفاف البحر المتوسط لما اختاروا أيضا مدينتي لبدة وصبراتة وأطلقوا على المدن الثلاث إسم –أويا– ومن خلال الحقب الزمنية المتعددة التي تتابع فيها الاستعمار على ليبيا بوجه عام وطرابلس بوجه خاص، لمع وجه طرابلس كحضارة تتميز عن غيرها من الساحل الليبي ممّا جعلها مطمعا لكل غازٍ مستعمر حط بأساطيله على شواطئها واحتلالها بعد طرد من احتلها قبله.

ويجمع المؤرخون القدامى والرحالة الذين زاروها خلال القرون المتعاقبة بعد الفتح الإسلامي لبرقة وطرابلس الذى صبغ هاتين الحاضرتين في الشرق والغرب بصبغة إسلامية ترسخت جذورها بتوحيد الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم دون أن تتأثر بالأديان الأخرى التي حملها المستعمرون الكثر الذين توافدوا عليها زرافات ووحدانا محملين بأديان وثقافات متعددة لم تجد لها مكان مع كلمة التوحيد التي ترسخت في قلب كل ليبي وستبقى إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد ضمنت هذا الكتاب معلومات أسعفتني بها الذاكرة بل عشتها وعايشتها في مدينتي القديمة التي كانت القلب النابض والرئة التي تتنفس منها مدينة طرابلس والمرآة التي عكست حياة الناس بها موروثا، وثقافة، وذوقًا، وسلوكًا، فلا وزن لطرابلس بدون مدينتها القديمة.

حسن يوسف الحويني

المصادر والمراجع

1. تود، مابل لومس، أسرار طربلس، طرابلس . مكتبة الفرجاني **1968** م.

2. أحمد النائب الأنصاري، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، سنة **1899**م.

3. ناجي: محمود، تاريخ طرابلس الغرب، ترجمة عبد السلام أدهم، محمد الأسطى، ط2، دار الفرجاني، طرابلس، **1995**م.

4. الأستاذ علي مصطفى المصراتي، نماذج في الظل، طرابلس

5. التجاني، رحلة التجاني، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب، ليبيا تونس : الدار العربية لكتاب، **1981**م.

6. الطاهر الزاوي، اعلام ليبيا . طرابلس : مكتبة الفرجاني، **1961**.

7. خليفة التليسي . حكاية مدينة . ليبيا .تونس :الدار العربية للكتاب .

8. الهادي المشيرقي، ذكريات.

9. دي أغسطيني، سكان ليبيا، ترجمة د.خليفة التليسي.

10. كوستانزيو برنيا طرابلس من **1510-1850** تعريب خليفة التليسي. دار نشر الفرجاني، طرابلس ليبيا.

11. حسن. الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق، محمد الأسطى، عمار جحيدر، ج1، مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ضد الغزو الإيطالي، طرابلس **1984**م.

12. فهمي بك، خريطة طرابلس الغرب، **1910**م.

13. فرانشكو كورو، ليبيا بين الماضي والحاضر ؛ خليفه التيلسي.ــ طرابلس : المنشأة العامة للنشر والتوزيع **1984**.

14. الطاهر أحمد الزاوي، معجم البلدان الليبية.

15. سجلات أوقاف طرابلس.

16. فيرو. شارل، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تحقيق محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ط2، سنة 1994م.

17. ميكاكي ـ رودلفو. طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانـــــلي ـ ترجمة طه فوزي ـ القاهرة. معهد الدراسات العربية العالمية. جامعة الدول العربية 1961م.



منشورات جهاز إدارة المدينة القديمة اطرابلس 2023م